ترطيب الأفواه

بذكر من يظلهم الله

المجلد الأول

تأليف

دكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري
الشيخ محمد صفوت نور الدين
الشيخ أبو إسحاق الحويني
الشيخ أحمد فريد
الشيخ محمد حسان
الشيخ محمد القاضي

مكتبة معاذ بن جبل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

* شيخي الذي ربّانا على حب السلف وآثارهم ووعظهم... بقية السلف شيخ المربّين والوعّاظ .. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، وهبنا أغلى الملك فلا ننساه أبداً لكرامة الدَّلاَّل الشيخ الدكتور **أحمد فريد**.

* الشيخ التقيّ النقيّ الربانيّ - نحسبه كذلك - شقيق الروح .. بقية السلف الذي جعل الله له في قلوب المؤمنين وُدًّا الشيخ **أبي أحمد محمد حسان**.

* شقيق الروح ... طيِّب القلب ... سمح الوجه ... الفياض الكريم كتيّار النيل

كريم الخُلُق ... الذي إذا رُئِيَ ذُكر اللَّه برؤيته

بقية السلف ... الشيخ **محمد عطية** ـ حفظه اللَّه ـ

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أبي بكر الجزائري

شيخ المسجد النبوي بالمدينة النبوية

كلمة تقريظ

الحمد للَّه ، والصلاة والسلام على رسول اللَّه وآله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

وبعد لقد أهدى إليَّ المحب الدكتور/ **سيد بن حسين العفاني** كتابه القيِّم النافع بإذن اللَّه المفيد ، والمسمَّى : « **ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم اللَّه** » والحاوي (لأربع مُجَلدات)[1] .

والكتاب لما حواه من العلوم والمعارف الربانية أراني - واللَّه - عاجز عن وصفه الوصف الكامل الذي يستوعب كل ما حواه من الأحكام والآداب والأخلاق ، وحسبي أن أقول :

إنه روضة من رياض العلم الشرعي الذي لا غنى لمسلم عنه بحال .

ومما يجب التنبيه له هو أن هذا الكتاب العلمي الفريد قد نجا نجاة تامة من الآفات الثلاث التي هي الأحاديث الموضوعة ، وشطحات الصوفية ، والمظاهر الشركية وبهذا أصبح هذا الكتاب خزانة العلم الشرعي الذى لا غنىً لطالب العلم اليوم عنه : « فاللَّهم اجز مؤلفه خير الجزاء ، إنك بر رحيم سميع الدعاء . وسلام علي المرسلين ، والحمد للَّه رب العالمين .

أبو بكر جابر الجزائري

المدرس بالمسجد النبوي الشريف

بالمدينة النبوية

(١) تم ضم المجلدات الأربعة في مجلدين فقط .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين

الحمد للَّه الذي خلق الخلق وجعل الحكمة فيهم بالغة ، وأرسل الرسل الكرام وجعل الطريق بهم واضحة ، وأنزل الوحي فجاء لحاجات الخلق مفصلاً لا يحتاجون بعده إلى بيان . فكان آخر ذلك القرآن أنزله على خاتم الرسل وإمامهم فقال سبحانه : ﴿ **الرحمن علم القرآن خلق الإنسان** ﴾ فالقرآن هو المنهج الذي لا يصلح حال الإنسان إلا أن يعمل به .

واللَّه سبحانه ـ رحمة منه وتفضلاً ـ لم يدع الخلق أمام نص مكتوب يقال لهم اعملوا بما فيه ؛ فتتفاوت الأفهام ، ويتنازع في الأصول العلماء ، ويعسر الفهم على العوام ، ويتحزب الكثير في أحزاب متضاربة ؛ فتقع العداوات محل الوئام والتلاعن موضع التراحم ، وما فِرقُ اليهود والنصارى في ذلك ببعيد عمن نظر واعتبر .

لكن رحمة من اللَّه سبحانه اصطفى أمة ختم بها الأمم ، واختار منها رسولاً أدبه واصطنعه لنفسه فأحسن تأديبه وصنعته ، وجعله أفصح الناس في أمة الفصاحة ، وأبلغهم في أمة فاقت الأمم في الفهم والإدراك والبلاغة . وأنزل على ذلك الرسول كتابًا هو القرآن وتولى بنفسه حفظه في النص والبيان ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه** ﴾ . وأمر الرسول أن يعمل به وأن يبلغه للناس واللَّه عليه رقيب ﴿ **بلغ ما أنزل إليك من**

ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وسدد رب العزة في ذلك خطاه ، وصوب سلوكه وقوله حتى صار القرآن له خلقًا كما قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ : « كان خلقه القرآن » ، ثم أمر الناس أن يعملوا بالقرآن على هذا المثال العملي الذي يرونه . فإذا جاء الأمر ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ جاء التفصيل والبيان في : «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» ، وإذا جاء الأمر : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ جاء التوضيح في : « **خذوا عني مناسككم**» وهكذا حتى كان جماع ذلك في قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول اللَّه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر اللَّه كثيراً** ﴾ .

والمولى سبحانه رب كل شيء ومليكه بيده ملكوت كل شيء علق سعادة الدارين بطاعته وشقاءهما بمعصيته ومخالفة رسله : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ .

ولما كانت الدنيا دار ممر لا دار مستقر ، ودار اختبار وابتلاء لا دار مكافأة وجزاء لم يجعل فيها من صنوف الجزاء إلا ما تتعلق به التذكرة والعبرة . بل أعطى الكافرين فيها عطاء طغوا به ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ ومن شفقته سبحانه بخلقه أنه لم يجعل المال والمتاع في الدنيا حكرًا على الكافرين فقال سبحانه : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابًا وسررًا عليها يتكئون * وزخرفًا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ .

واعلم أخا الإسلام أن الدنيا قليلة في أمدها ونعيمها وكذلك في عذابها قليلة في شقائها وسعادتها ، وأن ما في القبر من العمر أطول ومن الأهوال

أشد وأفظع . ويفوق ما في القبر من الأهوال ما أعد اللَّه ليوم البعث يوم القيامة يوم الحساب والنشور . وأن الأشد والأكثر والأدوم والأطول من العذاب ما كان بعد الساعة من عذاب في النار أجارنا اللَّه وإياكم منها ، وجعل اللَّه للمؤمنين العاملين وللأنبياء ومن تبعهم مخرجًا ونجاة من كل ذلك ، وجعل عاقبتهم جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للمتقين . فالفائز المفلح الذي ينجو يوم العرض فيزحزح عن النار ويدخل الجنة ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ .

والعذاب الأخري كثير الألوان شديد الوقع لا يحتمله أهل الصبر والجلد ، وجعل رب العزة عذاب يوم القيامة مقدمة له لا يطيقه الصابرون ويشفق منه الأنبياء والمرسلون فيقولون : « **سلم . سلم** » .

من ذلك العذاب الأخروي الفضيحة على ملأ الخلق جميعًا « **ينصب لكل غدْرة لواء يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان** » ، ومنه العطش الشديد الذي تنقطع منه الأعناق ، ومنه الفزع والهلع الذي تنقطع منه القلوب ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ومنه دنو الشمس من الرءوس قدر ميل أو ميلين ، وزيادة العرق حتى يغرق فيه الخلق .

وربنا الرحمن الرحيم أعد في هذا اليوم العظيم للمؤمنين العاملين من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، فالعامل المخلص لربه المتتبع لشرعه يتغمده اللَّه برحمته الواسعة في ذلك اليوم العصيب ؛ فيحميه بفضله وينجيه من كل كرب . من ذلك أنه جعل في ذلك اليوم للمؤمنين من العطش حوضًا يشرب منه الشاربون فلا يصيبهم الظمأ أبدًا ، ونصب ملائكة على الحوض تقصي أصحاب المحدثات فلا يشرب منه إلا من كان بالسنة مهتديًا وبالرسول ﷺ مقتديًا ، وجعل في ذلك اليوم سترًا يستر به عباده فمن ستر مسلمًا في الدنيا ستره اللَّه تعالى يوم القيامة . وجعل لمن فرج عن مؤمن

كربة من كرب الدنيا فرج اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة . وأعد سبحانه في ذلك اليوم من الحر والعرق ظلا لا يأوي إليه إلا من أرادهم اللَّه برحمته فعدهم أصنافًا لا يملك غيرهم أن يشاركهم أو يستظل معهم إنما يبلغ اللَّه ظله لأهل الظل وريه لأهل الري وستره لأهل الستر وهو علي كل شيء قدير .

فانظر أيها العاقل الذكي يا من تستعد في الدنيا من عزوبتك لزواجك ومن ليلك لنهارك . وتستعد طوال سنتك إن كنت طالبًا ليوم امتحانك . انظر فذلك اليوم أحق أن تستعد له ﴿ **يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ .

انظر أيها العبد بما تستحق الجنة وهي لا تنال بالأماني إنما بالتقوى ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا** ﴾ .

واعلم أن السالكون الصابرون من قبلك كثير قد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصر اللَّه فأدركهم في الدنيا ، وإن لم يدركهم في الدينا فهم مع المؤمنين من مثل أصحاب الأخدود قال عنهم سبحانه : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز العظيم** ﴾ واذكر قوله سبحانه : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند اللَّه والله عنده حسن الثواب * لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد** *

متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ .

واعلم أيضًا أن المفرطين من قبلك كثير كانوا أشد منك عتوًا وجبروتًا فأخذهم اللَّه أخذ عزيز مقتدر وجعلهم في قبورهم ﴿ **النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا** ﴾ ولا يكون ذلك نهاية مصيرهم إنما عذاب الآخرة أشد فأين أنت من قوم عاد وثمود وقوم فرعون وأصحاب الأيكة وكل أولئك الجبابرة ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون** ﴾ فالعذاب الدنيوي لا يفوتهم ، وإن ظن ظان أنهم لم يكافئوا في الدنيا فإن في الآخرة عذاب النار لا ينجو منه كافر أبدًا قد زال عنه ملكه وسؤدده وجاءوا في ذلك اللَّه ﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون** ﴾ .

وبعد ...

فهذه مقدمة متواضعة أسوقها بين يدي هذه الأمواج المتتالية في ذلك البحر العميق بدرره ونفائسه من كتاب « ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم اللَّه» والذي كتبه أخونا الحبيب الدكتور/سيد حسين العفاني جمع فيه فوق السبعة المذكورين فى الحديث المشهور ما صح نسبته إلى الرسول ﷺ ممن جعل اللَّه وعده يوم القيامة بالظل يوم لا ظل إلا ظله ، وقد جلى ذلك بالشرح والبيان والتوضيح والمثال ، وبحث في كتب المصنفين ، وجمع ما ذكره في ذلك السابقون من القدماء والمحدثون بأسلوب علمي رصين ، اعتنى فيه بالتحقيق والتدقيق والجمع الشامل الدقيق ، وأضاف عليه الموعظة البليغة الأخّاذة بالقلوب والألباب مع ضرب المثال في السابقين والصالحين من أهل الإيمان والتقى ؛ لتطلب الرفيق مع طلبك للطريق فلا تستوحش في السفر ولا

تشعر بالغربة فى الإقامة مع أولئك الذين جعلهم اللّه مع الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

فهذا سفر جليل مع الظل الظليل والعمل الصالح لتختار وتغتنم إن كنت إمامًا فكن عادلاً ، أو شابًا فكن في الطاعة ناشئًا ، أو متصدقًا فكن للصدقة مخفيًا ، أو ذاكرًا فكن بالعين باكيًا . فاختر لنفسك من هذا الخير العميم طريقًا واحذر أن تكون معرضًا فتحرم فإن النار تسع الخلق جميعًا إذا دخلوها ، وأبشر فإن الجنة تسع الخلق جميعًا إذا دخلوها .

أخي القارئ فإلى الأسلوب العلمي الرصين والجمع الشامل والموعظة التي تجلي الصدور وتزيل غبارها فتأخذ بالقلوب لتتعرف فإذا عرفت فالزم واغتنم الفرصة قبل أن تضيع وسل اللّه من رحمته يرحمك فإنه واسع العطاء يحب الدعاء ويقبل من العبد العمل ويحقق الرجاء .

فاللهم إنا نسألك أن تنفع المسلمين بهذا الكتاب وتجعله زخرًا لصاحبه في الداريـــن وأن تلحقنا بأهل هذه الأعمال الذين تظلهم في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك إنك على كل شيء قدير .

فاجعلنا أهلاً لعفوك ورحمتك . ونجنا من عذابك وسخطك يا أرحم الراحمين .

واللّه من وراء القصد

كتبه / محمد صفوت نور الدين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أبي إسحاق الحويني

إنَّ الحمد للَّه تعالىٰ نحمَدُه ، ونستعين به ونستغفره ، ونعوذُ باللَّه تعالىٰ من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبدُهُ رسوله .

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتابُ اللَّه تعالىٰ ، أحسن الهدي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثةٍ بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في انار .

أما بعد

فإنَّ حديث « السبعة » الذين يظلُّهم اللَّه تعالىٰ يوم القيامة ، حديثٌ كثير الفوائد ، جمُّ الفرائد ، علمتُ ذلك لما شرحتُ هذا الحديث في عشرين مجلسًا منذ عام مضىٰ ، وكنت أتمنىٰ أن أتفرغ لكتابة شيءٍ في هذا الحديث الماتع ، أُجلِّي فيه بعض فوائده ، وتصرَّمت الشهور ، **وما زلت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، حتى فجأني صاحبنا في اللَّه تعالى ـ الشيخ الودود سيد بن حسين العفاني بمجلدين حافلين في شرح هذا الحديث ، ففرحتُ به غاية الفرح ، ورأيت أنه أربى فيه على ما كنت أريدُ ، فبارك اللَّه في سعيه ، ونفعه به في يـــوم تكون العاقبةُ فيه للمتقين** وقد اتفقت روايات الحديث علىٰ تقديم الإمام العادل ، ثم اختلف الترتيبُ بعد ذلك ، وجُلُّها علىٰ التثنية بالشاب الذي نشأ في عبادة اللَّه . وإنما تقدَّم ذكرُ الإمام العادل ، لأن به صلاحُ العالم ، وقيام الشرائع ، وأمان الخلق ، وتستطيع أن تدرك ذلك بأدنىٰ نظر إذا نظرت إلىٰ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ، وهو في ذلك أشهر من نار في رأس عَلَم ، ودعني أذكر لك موقفًا واحداً .

فأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة قال : شكىٰ أهلُ الكوفة سعدًا إلىٰ عمر رضي اللَّه عنه فعزله واستعمل عليهم عمارًا فشكوا حتىٰ ذكروا أنه لا يحسن يصلي ، فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق ، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي ، قال أبو إسحاق : أمّا أنا - واللَّه - فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول اللَّه ﷺ ما أخرم عنها ، أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين ، وأخف في الأخريين ، قال : ذاك الظن بك يا أبا إسحاق ، فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلىٰ الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ، ولم يدع مسجدًا إلا سأل عنه ، ويثنون عليه معروفًا حتىٰ دخل مسجدًا لبني عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنىٰ أبا سعدة قال : أمّا إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، قال سعد : أما واللَّه لأدعون بثلاث : اللَّهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه بالفتن . قال : وكان بعد إذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد . قال عبد الملك : فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه علىٰ عينيه من الكبر ، وإنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن .

* قلتُ : فأنت ترىٰ أن أهل الكوفة جميعًا أثنوا خيرًا علىٰ سعد إلا رجلاً واحدًا هو الذي قدح في سيرته ، فكان خليقًا أن يهدر عمر رأيه ، ويضرب به عُرض الحائط ، ولكنه لم يفعل ، بل عزل سعدًا ، واستعمل عليهم عمارًا ، وهذا من دقيق فقه عمر - رضي اللَّه عنه - في السياسة ، إذ ما الفائدة من ترك رجل تكلم بعض الناس فيه ، والذين لم يُتكلم فيهم موجودون متوافرون ، وهذه المسألة اجتهادية لا شك في ذلك ، ولكن الإمام لا يدع الريبة تدخل علىٰ الرعية فيفسدوا ، ولم يعزل عمر سعدًا لسوء رأيه فيه ، فأخرج البخاري (٧/ ٦١) في قصة مقتل عمر أنه قال في وصيته : «إن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر ، فإني لم

أعزله عن عجز ولا خيانة » . وبهذا الحزم ، وتلك الحكمة مضى عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ حميد السيرة . حتى قال قائل لعلي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه : لم ثارت الفتن في عصرك وكانت ساكنة في عهد عمر ؟ قال : لأن عمر كان واليًا على مثلي ، وأنا والٍ على مثلك . ومن هنا تأتي براعة الترتيب في الحديث ، فالصنف الثاني : «وشاب نشأ في عبادة اللَّه » . فالشباب هم عدة الأمة ، فمنهم الوزراء ، والقادة ، وهم الحشو نعم حشو الأمم الكلام عن هذا الحديث يطول ، **وقد أشبع صاحبنا الشيخ سيد بن حسين العفاني المقام بحثًا وتحريرًا** ، وإن لم يسلم عمله ولا عمل غيره من النقصان ، فتلك شيمة بني آدم .

لكن يبقى شيء لم يتعرض[1] له صاحبنا أحببت أن أفيه ، وهو الرواية التي وقعت في « صحيح مسلم » : «**ورجل تصدق بشماله حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله** » . فهذه الرواية مقلوبة وصوابها : « **ورجل تصدق بيمينه ..** » قد ظن بعض أهل العلم أن هذا الوهم وقع من مسلم ، وليس كذلك .

وقد نقل الحافظ في « الفتح » (٣ / ١٤٦) عن الجوزقي أنه قال : «سمعت أبا حامد بن الشرقي يقول : يحيى القطان عندنا واهم في هذا » . فتعقبه الحافظ بقوله : والجزم بكون يحيى هو الواهم فيه نظر ، لأن الإمام أحمد قد رواه عنه على الصواب ، وكذلك أخرجه البخاري هنا عن محمد بن بشار ، وفي « الزكاة » عن مسدد ، وكذلك أخرجه الإسماعيلي من طريق يعقوب الدورقي وحفص بن عمر كلهم عن يحيى ، وكأن أبا حامد لما رأى عبد الرحمن قد تابع زهيرًا ترجح أن الوهم من يحيى القطان ، وكذلك قال ابن خزيمة في «صحيحه » ، وبيانه أن أصحاب يحيى القطان اختلفوا عليه في الحرف ، فرواه مسدد وأحمد بن حنبل وعمرو بن على الفلاس ، ومحمد بن خلاد ويعقوب الدورقي وحفص بن عمر ستتهم عن

---

(١) ثم أخبرني الشيخ ـ حفظه اللَّه ـ أنه تكلم عن هذه المسألة ، وألحقها بالكتاب قبل أن أكتب هذه المقدمة ، فتركت البحث على حاله زيادة في الفائدة . والحمد للَّه .

يحيى القطان بسنده فقالوا : « **حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » ورواه زهير بن حرب ومحمد بن المثنى وعبد الرحمن بن بشر بن الحكم ثلاثتهم عن يحيى القطان فرووا اللفظ المقلوب . ورواه محمد بن بشار عنه باللفظين معًا .

فأخرجه البخاري عنه عن القطان على الصواب ، وأخرجه ابن خزيمة عنه عن القطان على القلب ، وقد رواه محمد بن المثني على الصواب أيضًا . فأخرجه البزار في «مسنده» (ج٢ / ق١٥٩ / ١-٢) قال : حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن عليٍّ ، قالا : نا يحيى القطان بسنده سواء بلفظ : « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه ، أو ما تنفق يمينه**» .

فالحاصل أن محمد بن المثنى ومحمد بن بشار روياه عن يحيى القطان باللفظين معًا فدلَّ ذلك على أن الاختلاف من يحيى دون الرواة عنه ، وهذا هو الصواب الموافق لقواعد المحدثين خلافًا لما ادَّعاه البيهقي أن الاختلاف هو من الرواة عن يحيى . واللَّه أعلم .

أمّا الكتاب ؛ فاللَّه أسأل أن ينفع به مؤلفه وقارئه ، يوم تكون العاقبة فيه للمتقين .

والحمد للَّه أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

وكتبه

أبو إسحاق الحويني الأثري

حامدًا اللَّه تعالى ، ومصليًا

على نبينا محمد وآله صحبه

رجب / ١٤١٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم شيخي فضيلة الدكتور أحمد فريد

إنَّ الحمد للَّه تعالى نحمده ، ونستعين به ونستغفره، ونعوذُ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

ثم أما بعد

فمن أصول الإيمان الستة الإيمان باليوم الآخر ، والمقصود باليوم الآخر يوم القيامة وما قبله وما بعده ، ما قبله من الموت وحياة البرزخ ، وأشراط القيامة ، وما بعده من دار القرار الجنة والنار .

وقد قدره القرآن وكرر أمور الآخرة على قلوب المؤمنين حتى يزداد يقينهم وإيمانهم بها ، فكأنهم يرونها رأي العين وحتى لا يقول المؤمن قولاً أو يعمل عملاً وهو يعلم أنه يسود به وجهه يوم القيامة ، فمقتضى الإيمان الصادق أن تكون أقوال العبد وأعماله مما يوافق الإيمان ويرضي الرحمن ، وهي الاستقامة المأمور بها كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١، ٣٢] .

وقال النبي ﷺ : « **قل آمنت باللَّه ثم استقم** »[1] فما أطيبه وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة ، وكيف لا يكون كذلك وهو من كلام أفصح من نطق بالضاد وأوتي جوامع الكلم ، مع أنه ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ،

---

(١) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥عارضة) البر ، وأحمد (٥/ ١٥٨) . وقال الترمذي : هذا حسن صحيح وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » (١٦١٨) .

وقال : « **نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا** » ، ولكن أدَّبه ربه ، وعلمه خالقه ، وجعله نوراً وهدىٰ ، وأهداه إلىٰ البشرية فما فارق الدنيا حتىٰ استضاءت جزيرة العرب بالإسلام ، وجاء نصر اللَّه والفتح ، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا .

والاستقامة هي التقوىٰ ، والمداومة علىٰ التقوىٰ ، ولما كان الحفاظ علىٰ التقوىٰ والمداومة عليها عزيز فلا يخلو العبد من تقصير وذنوب وعيوب ، أمر اللَّه عز وجل المؤمنين بأن يجمعوا بين الاستقامة والاستغفار فقال : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت : ٦] .

ودل علىٰ هذا المعنىٰ كذلك قوله ﷺ : « **استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** »[١] .

وقد ذكر اللَّه تعالىٰ يوم القيامة في كتابه وأكثر من أساميه ، لتقف بكثرة أساميه علىٰ كثرة معانيه ، فسمَّاه يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم ، وكذا لطول القيام فيه للَّه رب العالمين .

وسمّاه يوم التناد ؛ لكثرة المناداة فيه ، فينادي علىٰ الخلائق فرداً فرداً ، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ، وينادي أهل الأعراف علىٰ رجال يعرفونهم بسيماهم .

وسماه يوم التغابن لكثرة المغبونين فيه ، والمغبون هو الذي باع شيئًا بأقل من ثمنه ، أو اشترىٰ شيئًا بأكثر من ثمنه ، وإنما كان ذلك في الدنيا ، ولكن يظهر يوم القيامة مقدار هذا الغبن ، وكثرة المغبونين الذين باعوا نفوسهم بثمن بخسٍ ، وكانوا فيها من الزاهدين .

وهو يوم البطشة الكبرىٰ ، حيث يبطش اللَّه عز وجل فيه بكل الكافرين

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٣٤) الطهارة ، بلاغًا ، ورواه ابن ماجه (٢٧٧) الطهارة ، والدارمي (١/ ١٦٨) ، والحاكم (١/ ١٣٠) ، وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ولست أعرف له علة . وصححه الألباني بطرقه في « الإرواء » رقم (٤١٢) .

والمجرمين والذين يصدون عن سبيل رب العالمين .

وهو يوم الزلزلة لأن الأرض تزلزل فيه زلزالها ، ويوم الصاخَّة والطامَّة والقارعة والواقعة وغير ذلك مما ثبت بالكتاب العزيز والسنة المشرفة .

وقد أشارت السنة الصحيحة إلىٰ أن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة فعن المقداد بن الأسود الكندي - رضي اللَّه عنه - قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، فتصهرهم الشمس فيكونوا في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجامًا** »(١) .

وعن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : « يقوم الناس لرب العالمين حتىٰ يغيب أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه »(٢) .

فيوم القيامة يوم عسير علىٰ الكافرين غير يسير .

وقد أشارت سنة النبي ﷺ إلىٰ جملة صفات أو هيئات أو أعمال صالحات ، من وفق إليها تشرف بظل عرش اللَّه يوم القيامة ، وقد تتبع **أخونا الفاضل الداعية الرقيق الدقيق المتفاني سيد بن حسين العفاني** .

صاحب الهمة العالية في الطلب والدعوة والتصنيف مثل هذه الأحاديث الشريفة وطيب بها الأفواه والأسماع والأبصار والقلوب في مصنف سماه : « **ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم اللَّه** » **وهو كتاب جامع ماتع، وحيد في بابه ، فريد في محرابه** ، وأنفاس أخينا الفاضل تحسها من بين السطور ، وكلماته الرقيقة الدقيقة تجد طريقها سريعًا إلىٰ أغوار الصدور فتضيء حياتها ، وترق بها الأفئدة ، وتعلو بها القلوب ، فتقترب من علام الغيوب وغفار الذنوب ، وتمهد لها طريق التوبة حتىٰ تتوب .

وقد وفق أخونا الفاضل **الشيخ/ سيد حسين** في تصنيف عدة كتب ،

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٩٦) « صفة القيامة » ، والترمذي (٩/ ٣٥٥ عارضة) « الزهد » .

(٢) رواه البخاري (١١/ ٣٩٢) « الرقاق » ، ومسلم (١٧/ ١٩٥) « صفة يوم القيامة » .

وإن شئت قلت مراجع وموسوعات علميه زاخرة بالخير والعلم والبركة ، وقد انتفع الإخوان بكثير من هذه الدرر الفاخرة والمآثر الناضرة ، ومن أنفس هذه الكتب في نظري كتابه الجامع « صلاح الأمة في علو الهمة » . . . ، وإنما يصنف في علو الهمة من كان عالي الهمة ، أما ضعيف الهمة فلا ينبغي له أن يرتقي هذا المرتقىٰ ، ويعلو هذه الهضبة العالية ، والرتبة السامية .

وكذا كتابه « الجزاء من جنس العمل » وفيه من القصص والعبر والمواعظ ما يروق القارئ ويحدو بقلبه وعقله إلىٰ رضا اللَّه الخالق الباري ، وكذا هذا الكتاب الذي نقدم له اليوم « ترطيب الأفواه » وأنا أنصح طلاب العلم من شباب الصحوة الإسلامية باقتناء هذه الكتب ، والانتفاع بها ، والعض عليها بالنواجذ ؛ فإنها جامعة نافعة إن شاء اللَّه تعالىٰ ، فجزىٰ اللَّه مصنفها خير الجزاء ، ورفعنا وإياه بها مع النبين والشهداء ، وأدام اللَّه عز وجل محبتنا فيه ، ونفع بقلمه وما يخرج من فيه ، وكذا سائر الدعاة الكرام علىٰ منهج أهل الحق والسنة ، مصابيح الدجىٰ ، ومنارات الهدىٰ ، وثبتنا وإخواننا المسلمين علىٰ الصراط المستقيم ، وجعلنا من أهل الفوز والسعادة وممن يحوز الحسنىٰ وزيادة ، وصلىٰ اللَّه علىٰ المبعوث رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، ومحجة للسالكين ، وحجة علىٰ العباد أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

وكتبه الفقير إلىٰ رحمة ربه

أحمد فريد

عفا اللَّه عنه وعن والديه وعن المسلمين

في الرابع عشر من شهر شعبان ١٤١٩هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ محمد حسان

الحمد للَّه الذي أكرمنا بنور العلم المبدد لظلمات الجهالة . وأنقذنا بالوحي من السقوط في دَرْك الضلالة . . وأنعم علينا بإرسال المصطفىٰ إرشاداً للعباد ودلالة .

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . البشير النذير . . . والسراج المزهر المنير . . . خير الأنبياء مقاماً . . . وأصدقهم كلاماً . . . لبنة تمامهم . . . ومسك ختامهم .

أرسله اللَّه عز وجل والناس صنفان :

مغضوبٌ عليهم جُفاة . . . وضالون غُلاة . . . فجاء بالدين الوسط . . . وحذر من الزيغ والشطط . . . وتركنا علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

اللَّهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين . . . وبعد فإن الأمةَ الآن في أمس الحاجة إلىٰ دُعَاةٍ ربانيين وَحُداةٍ صادقين . . . تتجمع عليهم القلوب . . وتتآلف حولهم النفوس . . . ينطلقون من فهم صحيح للقرآن والسنة . . . بوعي دقيقٍ وإداكٍ عميق . . لإعادة المسلمين من جديد إلىٰ دينهم الحق من ناحية . . ولتبصيرهم وتحذيرهم من المؤامرات الخطيرة التي تحاك لهم في الليل والنهار من ناحية أخرىٰ . . دعاة . . لا يعيشون لأنفسهم وذواتهم . . . بل يعيشون لدعوتهم ودينهم . . . يؤثرون التعب والنصب علىٰ ما يراه الآخرون راحة وسكونًا . . . وكيف يسكنون ويسترحيون وهم يرون دماءَ أمتهم الجريحة تنزف بغزارة في كل مكان ؟!

لذا . . . فالدعوة إلىٰ اللَّه تعالىٰ علىٰ بصيرة . . . هي همهم بالليل والنهار . . . هي فكرهم في النوم واليقظة . . . هي شغلهم في السر والعلن . . . يضحون في سبيلها بالوقت والجهد والمال . ويستعذبون في سبيل إبلاغها كل ابتلاء ، ويخوضون بدعوتهم معركة تلو معركة . . . في

عالم الواقع وعالم الضمير . . . في عالم الواقع مع الشر والباطل والضلال . . . وفي عالم النفس والضمير مع الشهوات والأهواء والشبهات . . . ولا يعرف حجم هذه المعارك إلا من عرف حجم الباطل وقوته من ناحية . . . وحجم التواءات النفس البشرية إذا طال عليها الأمد من ناحية أخرىٰ .

هؤلاء الدعاة الكرام . . . بجدارة . . . هم الحواريون والأنصار لدعوة النبي المختار . . . قال تعالىٰ : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ .

وفي « صحيح مسلم » من حديث عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ أن النبي ﷺ قال : « **ما من نبي بعثه اللَّه فى أمّة قبلي إلا كان له من أمّته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل** » .

نعم . . . إنهم الناصحون المصلحون المتجردون . . . إنهم الدعون إلىٰ تحرير البشر من عبادة العباد إلىٰ عبادة ربّ العباد . . . إنهم المنادون بتخليص الأمة من الذل والهوان بالعودة إلىٰ شريعة الرحمن . . إنهم قادةُ سفينة الإنقاذ بقوة وجدارة وسط هذه الرياح الهوجاء والأمواج المتلاطمة العاتية ! !

إنهم الشموع التي تحترق لتضيء للأمة طريق نبيها ﷺ .

إنهم وَعْيُ الأمة المستنير .

إنهم فكر الأمة الحر .

إنهم قلب الأمة النابض بالحياة .

إنهم أطباء القلوب المريضة والنفوس الجريحة .

حقًا . . . ما أحوج الأمة إلى هذا الصنف الكريم من الدعاة في هذا الظرف الحرج !!

وإني لأحسب أن أخي الحبيب الرقيق الدكتور / سيد بن حسين العفاني من هؤلاء المخلصين الصادقين المتجردين ـ أحسبه كذلك ولا أزكيه على اللّه ـ فهو لا يعرف الكلل ولا الملل . . ويبذل وقته وجهده وفكره وعقله للدعوة إلى اللّه عز وجل وإلى تذكير الناس بحياة السلف الحافلة العامرة . . . في عصر طغت فيه الماديات والشهوات وانصرف كثيرٌ من الناس عن منهج ربِّ الأرض والسموات يتحرك بهمة عالية ـ ولا شك أن الهمومَ بقدر الهمم ـ

وإن هذا السفر الجليل الذى بين أيدينا لمن أعظم الأدلة على أن اللّه سبحانه قد تفضل على أخينا المبارك بمعالي الأمور وهمَّة أهل الأجور .

أسأل اللّه تعالى أن يجعل سعيه مشكورًا وذنبه مغفورًا وأن يجمعنا به وجميع إخواننا وأحبابنا مع هؤلاء السعداء الذين يظلهم ربُّ الأرض والسماء .

فهيًّا ـ أيها الأحبة الكرام ـ لِنُسْعِدَ القلوب ونرطبَ الأفواه بذكر من يظلهم اللّه ـ جعلنا اللّه منهم بمنه وكرمه إنه وليُّ ذلك ومولاه ـ **فهو كتاب فريدٌ في بابه ومحتواه .**

كتابٌ جليلٌ وسفرٌ جميلْ	**عَزيزُ الوجودِ قليلُ المثيلْ**
أبانَ بأسْلُوبه حكمة	**تُنيرُ الفؤادَ وتُشفي العليلْ**
كأنَّ المَطالعَ في رَوْضَةٍ	**فيها الثمارُ وظلٌّ ظليلْ**

أسأل اللّه أن ينفع به وأن يجعل له القبول . وصلى اللّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

أبو أحمد محمد بن حسان

المنصورة / شهر رجب ١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم فضيلة
الشيخ محمد عبد الحكيم القاضي

حَنَانَيْكَ أيُّها الآخذُ بأزِمَّةِ قلوبنا إلى أكناف العرش ، السائقُ - بلا هوادَةٍ - رغائبنا إلى نور القيامة .

« رُوَيْدَكَ القواريرَ » ؛ قلوبٌ لم تتعوَّدْ صَدْعَ الحقِّ ، في وسط صُدَاع الحياة ، هذه الحياة المادِّيَّة التي ضربت سُوراً مِنَ الفولاذ بين أرواحنا وبين عالم الخلود ، حَبَسَتْنَا داخِلَ جُلُودنا ، وحجبتنا بغيوم بلادتنا عن ميدان المشاهَدَةِ ، وغَطَّتْ بصائرنا ، في فظاظة الجلاَّدِين - بعصابة غفلتنا عن : ﴿ **فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير** ﴾ ، حتى لا نُوقَظَ إلاَّ بِحَرٍّ : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ .

« **هُودٌ وأخواتُها** » - أبا سُمَيَّة - تُتْلَى على قلوبنا صباح مساءَ ، كالمقارع فوق جلامِد الصَّفَا :

إذا أنتَ لم تَعْشَقْ ، ولم تَدْرِ ما الهوَى

فكُنْ حجَراً من يابس الصَّخْرِ جَلْمدا

أتدري لماذا لم تشيبنا هودٌ ، وأَخَوَاتها ؟ لأنَّ مَرَضَ الغَفْلَة أصابَ قلوبنا فأَمْرَطَ شعرها ، والقَلْبُ الأصْلَعُ لا يظهر عليه تشيب ، أو شباب .

آه من روائح العرش ، ونسمات ظلاله ، تلك التي نستنشقُها من «ترطيب الأفواه» ، إلا أنه ليس تهويمًا حَوْلَ المعاني المُجَرَّدة لحديث السبعة الذي يتململ الآن على أفواه المذكرين والوُعَّاظ ، ويتململ أيضًا على آذانِ القاعدين في مجالس الوَعْظ والتذكير ، وإنما هو رحْلَةٌ داخلَ النفوس المؤمنة المطمئنة تُصَوِّرُ حناياها ، وتقيس أبعادهَا ، وتُعْطِي تقريراً بالغ الدِّقَّةِ ، والطَّرافةِ معًا حول هُويَّتها وانتمائها .

هذه هي السلفية الحقة . . . كيف تتحول المعاني إلى رجال تمشي على الأرض؟ كيف تتجسَّد القيم ؟

هذه هي السلفية الحقَّة . .

السلفية في حقيقتها هي عملية بعْث مكارم الأخلاق ، وهذا لا يكون إلا إذا صُوِّر في هيئة بشرية ، ذلك أننا نسمع ونقرأ عن مكارم الأخلاق فنشعر ببُعد ما بيننا وبينها ، وكأنما « نتنورَّها من أذرعات ، وأهلها بيثرب » على حد تعبير ذي القروح[1] ، بل هي أبْعد . ولكن حين تُصاغ لنا هذه المكارم في صورة بشر يحملونها بين ضلوعهم ، ويسيرون بها في الناس : ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ أقول : حين تصاغ تلك المكارم بهذه الصورة المركزة التي عودنا عليها د/ **سيد حسين العفاني** ، حينئذ يحدث الاقتراب بيننا وبينها ، بل يحدث التلاحم بين أمانينا الممتدة الأعناق ، وهذه المكارم المُطلَّة من جوارح القوم .

لقد تعوَّدنا من **الأخ الحبيب الدكتور سيد حسين** حين يكتب أن يكشف لنا عن وجه الحبيبة ، أن يُبْدي لنا محاسن الحُبّ ، حين يُظهر لنا ملامح أهلِه ، كيف كانوا يُحبّون ، وكيف كانوا يُقاسون في هذا الحب ، وكيف كانوا يحملون حبهم في قلوبهم جنينًا يحافظون عليه ، وأنغامًا شجِيَّةً يشعر بها ـ ويسمعها ـ كل من حولهم ، ثم كل من بعدهم .

هنا تظهر واضحة تقاسيم وجه الإسلام ، ويتحَقَّقُ ما نسميه (التربية بالقُدْوَة) ، إن الإسلام في قيمه يتخطى منزلة (الحقائق المجرَّدة) ويتجاوز مرحلة (المعارِف الجافَّة) ، إلى كونِه (رجالاً تتجسَّد فيهم هذه الحقائق ، وتختال في حركاتهم وسكناتهم هذه المعارف / فحينما نرى مفهوم الإمام العادل قد تحقق في عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ وابن عبد العزيز

---

(١) وهو قوله في لاميته :

تنوَّرتُها من أَذْرَعاتٍ وأهلُها   بيثربَ ، أدْنى دارِها نَظَرٌ عالِ

ومحمود بن سبكتكين وألب أرسلان ومحمود زنكي وصلاح الدين وشريح ، وجُميع بن حاضر الباجي والعز بن عبد السلام والمئات من الأسماء ، وحينما نرىٰ مفهوم الشاب الذي نشأ في عبادة اللَّه قد تجسّد في علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وأسامة بن زيد والحسن والحسين ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين ـ ومحمد بن القاسم الثقفي ، وأيوب ابن كيسان . . إلخ هذه الأسماء ، وإلىٰ آخر هذه المفاهيم ـ أقول : حينما نرىٰ تحقق مثل هذه المفاهيم وتجسّدها في هذه الأسماء المتزاحمة بل المتدافعة ـ علىٰ صفحات كتاب « ترطيب الأفواه » حينئذ نشعر أنَّ الأمر ليس مجرد (مفهوم) ، وإنما هو (قدوة) .

كان يقال : إن الفلسفة قبل أرسطو كانت في السماء ، فلما جاء أرسطو أنزلها من السماء إلىٰ الأرض . ويمكن أن يقال : إن الوعظ والرقائق في عصرنا الحاضر ما يزال لونًا من ألوان الغرائب ، يضطرك الواعظ إلىٰ الإحساس بأنك تنازل العنقاء ، وتبحث عن الغراب الأبلق ، فإذا بـ **سيد حسين العفاني** يحدُّ من كبرياء هذه المعارف ، ويجعلها واقعًا يمكن محاكاته ، وسلوكًا بشريًا يسهل الاقتداء به . .

صديقي العفّاني الحبيب :

لتكن منك هذه السُّنَّةُ الحسنة ، فأحسبك جديرًا بها ، « عِلْم التوجيه بالقدوة » ، و« علم التربية بالقدوة » ، إشاعة الروح السلفي في الوعظ والتوجيه ، بَعْث القيم من القِمم ، واستدراجها إلىٰ السُّفوح ، إليَّ وإلىٰ أمثالي الكُسالىٰ المغرورين ، عسىٰ أن تنفث فيهم ضياء الحق ، وتبث فيهم دماء الحياة .

محمد عبد الحكيم القاضي

حامدًا ومصليًا

المنيا ـ صفط الخمار

عشية الثالث من شعبان ١٤١٩هـ

ترغيب الدُّعَـــاة

فـــي

« ترطيب الأفـــواه »

لفضيلة الشيخ : محمد عبد الحكيم القاضي

امْنـحِـيـنـي يـا رِياضَ الـهِـمَـمِ | زَهْرةً يَشْفِي شَذاهـــا سَقَمِي
ضَوِّعِي مِسْكَ العُلا في أَضْلُعِي | وانشُرِي عَرْفَ التُّقَى في قَلَمِي
قَدْ أَضَعْتُ العُمْرَ في مَعْصِيَةٍ | آلَمَتْ نَفْسِي ، أَذَلَّتْ شَمَمِي
وأرِقْتُ اللَّيْلَ ، مَا أَطْوَلَهُ ! | أتمنَّـى لـذةً لَـمْ تَـدُمِ
أينَ طَعْمُ الحقِّ في حَلْقِ الذي | غَصَّ بالباطِلِ حتى المَأْثَمِ ؟
أينَ ضوءُ الحقِّ في قلبِ الذي | ألْزَمَ القلبَ طريقَ الظُّلَمِ ؟
فتلوَّى بي طريقٌ ضَيِّقٌ | في متاهاتِ الزَّمانِ المُعْتِمِ
تتحاشى النفسُ فيه نَفْسَها | فاحِمِ الأردانِ ، غَثٍّ الجُثَمِ
أينَ مِنِّي إبلٌ غادرتُها | حين غادرتُ استواءَ الحُصْرُمِ ؟
أينَ مني إبلي : كَيْفَ سَرَتْ ؟ | أينَ ضَلَّتْ في سفوحِ الحَشْرَمِ
يا مطايا الشوقِ عُوجي بي عَلَى | غادياتِ البَهْمِ في الشِّعْبِ الهَمِي
وَقِفِي بي عِنْدَ (سَلْمَى) بُرْهَةً | في مُحَيَّاها أرى مُعْتَصَمِي
جَدِّدي في الشَّوْقِ أشجاني فلي | عِنْدَهُ أخبارُ صِدْقٍ تَنْتَمِي
غَرَّدَتْ وُرْقِي على أغصانِهِ | وشَدَتْ لَحْنَ الغرامِ الأكرمِ
وتَهادتْ بي مطاياهُ إلى | أُفُقِ الحقِّ وَضِيءِ الأنْجُمِ

تحتَ ظِلِّ العَرْشِ روحي سبَحتْ ... بَيْنَ ذرّاتِ الضياءِ الأَعْظَمِ

تحت ظِلِّ العرشِ أَلْقَى أنفُسًا ... ما أعزَّ النفسَ بينَ القِمَمِ !!

من إمامٍ عادلٍ ؛ إنْ جئتَهُ ... جئتَ ميزانًا قليلَ اللَّمَمِ

وشبابٍ مُشْرِقٍ في حُبِّه ... وافرِ الشوقِ همِّي الدِّيَمِ

مَنْ لقلبٍ ساقَهُ الحَقُّ إلى ... ساحِهِ الرَّطْبِ ، زَكيِّ الشِّيَمِ

ذاهلٍ عن كلِّ شيءٍ حَوْلَهُ ... غيرَ بيتِ اللهِ صلبِ الدِّعَمِ

تحْتَ ظلِّ العرشِ قَلْبانِ على ... وترٍ رَهْفِ المغنَّى أَهْيَمِ

في رياضِ اللهِ لمّا اجتمعا ... عَرَّفا السُّحْبَ غُيوثَ المَوْسِمِ

وحَصُورٍ ، زانَهُ استعصامُه ... فَلَنِعْمَ العائذِ المُسْتَعْصِمِ

عَلَّمَ الخُودَ - وقد راوَدْنَهُ - ... خُلُقَ العفِّ الأبيِّ المسلمِ

ورأتْ نَفْسيَ في تطوافِها ... تحت ظِلِّ العرشِ حَوْلَ العَلَمِ

مُنْفِقًا سَيْلَ العطايا مُخْفِيًا ... راغبًا في الأجرِ عند المُنْعِمِ

مستظلاً في رُبا إحْسانِه ... هل جزاءُ البِرِّ غيرُ الأَنْعُمِ ؟

وحَييٌّ مِنْ عُلا خالقه ... قد خلا بالنفسِ كالمُتَّهَمِ

فأدارَ الفِكْرَ في زلّاته ... وأراقَ الدَّمْعَ مُرَّ العَلْقَمِ

ورأَتْ نفسي رجالاً طُيِّبُوا ... للقاءِ الحقِّ في اليومِ الظَّمي

أنَّتِ الأشواقُ في أكفانِها ... وربَتْ ترْغُو بنفسي والدَّمِ

وأجلْتُ الطَّرْفَ في واقعنا ... شاكيًا عَجْزِي وضعفَ المِعْصَمِ

لَمْ أزلْ أسقي عَطاشَى أدمُعي ... وأواسي باشتياقي أَلَمي

وإذا بي شاخصًا عند امرئٍ ... عبقريِّ العِلْمِ فَذِّ القَلَمِ

من (بني عفانَ) يُزجِي موْكِبًا ... ويَغُذُّ السير نحوَ القِمَمِ
قد أحَالَ الفكْرَ فينا واقعًا ... نَيِّرَ الأركان دَفَّاقَ الدَّمِ
جَسَّدَ الأخلاقَ في أمَّتنا ... في رجالٍ صَنعوا مِنْ قِيَمِ
هو ذا [الترطيبُ] يَغدُو مؤنسًا ... مُوحِشَ الدَّرْبِ الكئيبِ المُعْتِمِ
هل تَرَى الأقمارَ من طُرَّتِه ... برزتْ تَهْدي فؤادَ الأنجُمِ ؟
في رحاب العَرْشِ أعطانا يداً ... مَنْ يَزِغْ عن كَفِّهَا لا يَسْلَمِ
أنا يا شيخُ أناخَتْ ناقتي ... وتعثَّرْتُ ، وزلَّتْ قَدَمِي
فاعتذرْ لي عِنْدَ ربِّي يا أخي ... وارْجُهُ ما عِنْدَهُ من كَرَمِ
أنا لَمْ أنْشَأْ مُطِيعًا ، أو أُفِقْ ... مِنْ ضَلالِ السَّعْيِ قَبْلَ المَنْدَمِ
غير أني ـ والذي تعْبُدُهُ ـ ... آمُلُ العَفْوَ لدى المنتقِمِ
وأرى في وَجْهِهِ فيضَ النَّدَى ... فهو يأسُو يا صديقي سَقَمِي
يا ابن عفان أعِنِّي كَيْ أرَى ... واسْتَعِدْ يا ابنَ حُسَيْنٍ شَمَمِي

* * *

أخوك العائذ بالله الفارّ منه إليه

محمد عبد الحكيم القاضي

المنيا ـ صفط الخمّار

ليلة الاثنين ـ ٤ من شعبان ١٤١٩ هـ

مقدمة

لمثل يوم القيامة وحديثه فلنطل البكاء ، هذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه .

قال عمر بن ذر - رحمه اللَّه - أعَليَّ تحملون جمود أعينكم وقسوة قلوبكم ؟ احملوا العيَّ عليَّ إن لم أسمعكم اليوم واعظًا من كتاب اللَّه عز وجل : ﴿ **أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً** ﴾[4] .

فياله من يوم ما أطوله ! . وقال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى**

---

(١) سورة المطففين الآيات (٤ ، ٥ ، ٦) .
(٢) سورة الإنسان الآية (٢٧) .
(٣) سورة الإنسان الآية (١٠) .
(٤) سورة المعارج الآية (٤ ، ٥) .
(٥) سورة غافر الآية (١٨) .
(٦) سورة إبراهيم الآية (٤٣) .

النَّاس سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[٦] .

ياله من يوم ما أهوله... شاب منه سيد البشر ﷺ .

قال ﷺ : « **شيبتني هود وأخواتها** »[٧] .

---

(١) سورة الحج الآية (١ ، ٢) .
(٢) سورة المزمل الآيتان (١٧ ، ١٨) .
(٣) سورة الكهف الآيتان (٤٧ ، ٤٨) .
(٤) سورة النمل الآية (٨٧) .
(٥) سورة الجاثية الآيتان (٢٧ ، ٢٨) .
(٦) سورة المعارج الآيات (٨ : ١٤) .
(٧) صحيح : رواه الطبراني عن عقبة بن عامر و عن أبي جحيفة وصححه الألباني في « صحيح =

وقال ﷺ : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت »[١] .

وقال ﷺ : « شيبتني هودٌ وأخواتها قبل المشيب »[٢] .

وقال ﷺ : « من سره أن ينظر إلى القيامة كأنه رأي عينٍ ، فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و﴿ وإذا السماء انفطرت ﴾ ،و﴿ وإذا السماء انشقت ﴾»[٣] .

* تنمحي فيه علوم الأنبياء وتُدهش عقولهم فلا يدرون بما يجيبون : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[٤] .

* قال الفضيل بن عياض : « لو خُيِّرت أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا ولا أرى يوم القيامة لا خترت ذلك »[٥] .

وقال : « ما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته ، إذاً لطاش عقلي»[٦] .

* وبكى مسعر بن كدام وقال لأمه : « يا أماه لمثل ما نهجم عليه غداً فنطل البكاء . قالت : وما ذاك ؟ فانتحب فقال : القيامة وما فيها، ثم غلبه البكاء فقام »[٧] .

كيف أنت إذا سمعت أنك إلى العرض على الملك الأعلى ، أفلا يطير

= الجامع » رقم (٣٦١٤) و« الأحاديث الصحيحة » رقم (٩٥٣) .

(١) صحيح : رواه الترمذي والحاكم في « المستدرك » عن ابن عباس ، ورواه أيضًا الحاكم في «المستدرك» ، عن أبي بكر ، وابن مردويه ، عن سعد وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦١٧) .

(٢) صحيح : رواه ابن مردويه ، عن أبي بكر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦١٥) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في «المسند » والترمذي والحاكم في « المستدرك » ، عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦١٦٩) ، و« الصحيحة » رقم (١٠٨١) .

(٤) سورة المائدة الآية (١٠٩) .

(٥) « سير أعلام النبلاء » .

(٦) « سير أعلام النبلاء » .

(٧) « صفة الصفوة » لابن الجوزي (٣/ ١٣٠) دار المعرفة - بيروت .

فؤادك ويشيب رأسك للنداء ؟

توهم نفسك بعُريك ومذلتك ، وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك ، وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة ، وهم صموت ، أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة .

قال ﷺ : « **تحشرون حفاة عراة غرلا** »(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا** ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾(٣) .

* أقبلت الوحوش من البراري وذرىٰ الجبال ، منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ، ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ، ولا خطية أصابتها .

* وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها ، خاشعة لذل العرض علىٰ اللَّه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء ، واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض ، قد أذلهم البعث ، وجمع بينهم النشور .

* وتوهم ملائكة السموات قد انحدروا محشورين إلىٰ الأرض للعرض والحساب ، بعظم أجسامهم وأخطارهم ، وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلىٰ الذي أنزلهم محشورين إلىٰ الأرض بالذلة والمسكنة والعرض عليه والسؤال بين يديه .

* فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ، ونكّسوا رؤوسهم في عظم

---

(١) رواه البخاري عن عائشة ، والترمذي والحاكم في « المستدرك » ، عن ابن عباس .

(٢) سورة النبأ الآية (٣٨) .

(٣) سورة هود الآية (١٠٥) .

خلقهم بالذلة والمسكنة والخشوع لربهم ، كل أهل السماء محدقين بالخلائق صفًا واحدًا .

فياطول حزننا وغمنا ويا طول جهدنا وكمدنا ، إن كان اللَّه قد قطع ما بينه وبيننا فواللَّه ما أنصب العباد وأضناهم إلا ذكر المقام ، وخوف الحساب وحر يوم القيامة بطوله ، وروعة النداء بالعرض على اللَّه .

* ولم لا تذوب أبدان العباد والزهاد والخدام فزعًا ، والقيامة أمامهم ، وفي العرصات مقامهم ، وعلى الصراط جوازهم ، ولهم في يوم ما قد عملوا ؟ ! فمن لنا في ذلك الموقف ، من لتحيرنا وتلددنا ، ولجوعنا وعطشنا ؟! فواطول وقفتاه ؟ واتحيراه ! وآثقل ظهراه من حمل الذنوب والمظالم والخطايا وأوساخ العيوب ، أوه من حملها ! أوه من ذكرها ! أوه من ثقلها ! أوه من إقراري بها .

* قطع ذكر يوم العرض على اللَّه أوصال المحبين .

قال ابن مسعود : « إن هاهنا رجلاً ود لو أنها قامت ألا يبعث » ، يعني القيامة .

قال الحسن : يحق لمن يعلم أن الموت مورده ، وأن الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي اللَّه تعالى مشهده أن يطول حزنه .

وسفيان الثوري : كان إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم[1] .

وقال الفضيل : ما أغبط ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً يعاين القيامة وأهوالها ، ما أغبط إلا من لم يكن شيئًا .

---

(١) في « السير » (٧/ ٢٤٢) .

وعلي بن الفضيل يموت من آية : ﴿ ولَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

قال بهز بن حكيم : أمَّنا زرارة بن أوفى في مسجد بني قشير ، فقرأ المدثر ، فلما انتهى إلى هذه الآية : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾(٢) ، فخرّ ميّتًا(٣) .

« وعبد اللَّه بن وهب قرئ عليه كتاب أهوال القيامة « تأليفه » ، فخرّ مغشيًا عليه ، فلم يتكلم بكلمة ، حتى مات بعد أيام »(٤) .

« وكان عبد العزيز بن سليمان إذا ذكر القيامة صرخ كما تصرخ الثكلى ، ويصرخ الخائفون من جوانب المسجد ، وربما رفع الميت والميّتان من جوانب مجلسه »(٥) .

« وبشر بن منصور ـ رحمه اللَّه ـ يقول : إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا ، ألهي به نفسي عن ذكر الآخرة ، أخاف على عقلي »(٦) .

« ويحيى البكاء قرئ عنده : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ... ﴾(٧) .

فصاح صيحة مكث منها مريضًا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة»(٨) .

أخي : إن حضر قلبك فهجير الشمس في الدنيا يذكرك إن كنت لا تستطيعه

---

(١) سورة الأنعام الآية (٢٧) .

(٢) سورة المدثر الآية (٨) .

(٣) أحمد في « الزهد » ، وابن سعد في « الطبقات » ، وابن نعيم في « الحلية » ، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» ، والذهبي في « السير » (٤/ ٥١٦) ، وقال : صحّ .

(٤) « السير » (٩/ ٢٢٦) ، و« الانتقام » لابن عبد البر (ص٤٩) .

(٥) « الحلية » (٦/ ٢٤٣) ، و« صفة الصفوة » (٣/ ٣٧٧) .

(٦) « روضة الزاهدين » (ص٣٢) .

(٧) سورة الأنعام الآية (٣٠) .

(٨) « الإحياء » (٤/ ١٩٤) .

في دار الدنيا فكيف تصبر على حرها يوم القيامة . . . إذا كان يوم القيامة كسيت الشمس حر عشر سنين ، وأدنيت من رؤوس الخلائق فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضحوّ بحرّ الشمس ، قد صهرته بحرها ، واشتد كربه وقلبه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ، فيدفع بعضهم بعضًا ، وتضايقت ، فاختلفت الأقدام ، وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق ، وتزاحمُ أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض على الأبدان ، على مقدار مراتبهم ومنازلهم عند اللَّه عز وجل بالشقاء .

وأنت لا محالة أحدهم فيالكربك وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو دار الشقاء ﴿ ويوم تقوم الساعة يؤمئذ يتفرقون ﴾ .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل أواثنين ، فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه [(١)] ومنهم من يلجمه[(٢)] إلجامًا** »[(٣)] .

وعن سليم بن عامر ، عن المقداد بن الأسود ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم**

---

(١) موضع شد الأزار .

(٢) المراد : يبلغ العرق فمه .

(٣) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، والترمذي عن المقداد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٨٩) .

كمقدار ميل » ، قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل : أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين ؟ قال : « **فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمهم العرق إلجامًا** » ، قال وأشار رسول الله بيده إلى فيه»[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « **يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا أو يلجمهم حتى يبلغ آذانهم** »[2] .

وقال رسول الله : « **إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعًا وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم** »[3] .

عن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال : « **يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه** »[4] .

وعن عبد العزيز العطار ، عن أنس بن مالك ـ لا أعلمه إلا رفعه ـ قال : «**لم يلق ابن آدم شيئًا منذ خلقه الله عز وجل أشد عليه من الموت ، ثم الموت أهون مما بعده ، وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم العرق ، حتى إن السفن لو أجريت فيه لجرت** »[5] .

أخي : أحدنا يؤثر الظل على الشمس في دار الدنيا فكيف لا نؤثر ظل عرش

---

(١) رواه مسلم عن المقداد بن الأسود .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البخاري والترمذي وقال : حديث صحيح مرفوعًا وموقوفًا .

(٥) إسناده جيد : قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٣٣٤) : رواه الطبراني في « الأوسط » وإسناده جيد ورواه أحمد باختصار عنه ولم يشك في رفعه وإسناده جيد .

الرحمن . . . . كيف إذا آواك الودود إلى ظله . . . فوالله لو مات إنسان من شدة الفرح لمت . . . حين ترجو هذا وأنت في دار الدنيا فكيف إذا أتاك اليقين يوم القيامة بأنك ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؟ .

إذا أتاك اليقين أنك من الذين شملتهم العناية والرعاية ، فلا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿ **وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ حتى يقضى بين الخلائق ، ولا يعتريهم حزن ولا يتتابهم خوف .

« إنها أعلى منزلة بعد الوسيلة لرسول الله ﷺ ، وشفاعة الأنبياء في إممهم »[1] .

والحمد لله أن هؤلاء الذين يظلهم الله في ظله زادوا على السبعة ، كثيراً فاحرص على أن تكون منهم سواءً من جهة أو جهتين أو أكثر .

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

وثامِن بنفسك النفيسة لا تبعها بالغبن ، وقدّم لنفسك ليوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب .

أخي : أحدنا يؤثر الظل على الشمس في دار الدنيا أفلا نؤثر ظل عرش الرحمن والقرب منه على شمس تطحن الناس طحناً ، لم نرحم من أنفسنا ما نرحم من غيرنا إذا رأينا رجلاً يسير في الهجير قلنا : ألا ترحم نفسك . . .

فرحمة بنفسك أخي . . . وقربا من الظلال . . . . ظلال العرش

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » لعطية محمد سالم (ص٥٩) .

يا عـــرشُ تحـت ظلـك الحبيـــب يا ليـت لي فـي الظـــل من نصيـب

اللَّهم اجعلنا منهم ، ولا تحرمنا أجر الدلالة على فضلهم .
وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين .

* * *

وكتبه الفقير إلى عفو ربه
السيد بن حسين العفاني
ليلة الجمعة ١٣ ربيع الثاني
محافظة بني سويف ـ مدينة بني سويف
صندوق بريد ١٢٣

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبي ﷺ أنه قال :

« سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظله إلا ظله :

إمام عادل .

وشاب نشأ في عبادة الله .

ورجل قلبه معلق بالمساجد .

ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرّقا عليه .

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله .

ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وقفة مع حديث السبعة
ومعناه الإجمالي

أحسن حديث في فضائل الأعمال وأعمها وأصحها

منزلة هذا الحديث عند العلماء عظيمة .

قال الذهبي في « العلو » : « وقد ورد في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر »[1] .

وقال ابن عبد البر في « التمهيد » : « هذا أحسن حديث يروى في فضائل الأعمال وأعمها وأصحها إن شاء اللَّه ، وحسبك به فضلاً ؛ لأن العلم محيط بأن كل من كان في ظل اللَّه يوم القيامة لم ينله هول الموقف . . . » إلى أن قال : « وفي فضل الإمام العادل ، وفضل الشاب الناسك ، وفضل المشي إلى المسجد والصلاة فيه ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وفي المتحابين في اللَّه ، وفي البغض في اللَّه والحب في اللَّه ، وفي العين الباكية من خوف اللَّه مع قول اللَّه : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ ، وفي العفة وفضلها ، وفي ذم الزنا وأنه من الكبائر وما انضاف إلى هذا المعنى من قصة ذي الكفل ، وفي فضل الصدقة في السر مع قول اللَّه عز وجل : ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ ، وفي تضعيف اللَّه الصدقة المقبولة من الكسب الطيب إلى سائر ما ينتظم بهذه المعاني آثار كثيرة جداً تحتمل أن يفرد لها كتاب ، فضلاً عن أن ترسل في باب ، ومن طلب

---

(١) « مختصر العلو » للذهبي - اختصار الألباني (ص١٠٥) طبع المكتب الإسلامي - طبع وزارة الأوقاف المغربية .

العلم للَّه فالقليل يكفيه إن شاء اللَّه وباللَّه التوفيق »[١] .

قال الشيخ عطية محمد سالم : « وهو كما قال ـ رحمه اللَّه ـ : تحتمل معانيه أن تُفرد في كتاب ، وقد أفردت بالفعل ، ولكن كل التآليف التي أفردت لهذا الحديث تتجه إلى العدد ، وتضيف أصنافًا أُخَر . . .

إن تلك التآليف لم تتوسع في بيان المعاني التي قال فيها ابن عبد البر إنها تحتمل كتابًا ، أي : لسعة مدلولاتها ، ووفرة معانيها ، وشمولها لجوانب المجتمع الإسلامي ، وحكمة التشريع ، وقوة التأثير في الفرد ومن ثم في الجماعة . . . ثم عوامل تكوين الإنسان التي استطاع بها أن يكتسب هذه الصفة أو تلك ، إذْ أنها كلها صفات مثالية كاملة لا تُنال إلا بجهد وجهاد .

وكيف نربي عليها الإنسان المسلم من شبابه إلى إمامته ، وما بين ذلك من عدل ، وتقى وعفة وتعاون ، وتحابب وذكر اللَّه تعالى ، إلى غير ذلك من أعطيات هذا الحديث أسلوبًا وموضوعًا »[٢] .

شمول الحديث واستيعابه :

يلحظ المتأمل في هذا الحديث من جهة الشمول والاستيعاب : أنه اشتمل أطراف المجتمع الإسلامي من الإمام في عدالته وعدله ، والشباب في نشأتهم ، والأفراد في ترابطهم ، والجنسين في تعففهم ، والطبقات الغنية والفقيرة في تقاربهم ، وأعمال الدنيا والدين في ذكرهم للَّه وعدم غفلتهم .

انتظم أصنافًا متفاوتة ، من قمة المجتمع إلى قاعدته . . . رجل في

---

(١) « التمهيد » لابن عبد البر (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤) .
(٢) في « ظلال عرش الرحمن » (ص٢٧ ـ ٢٨) .

نفسه لا يعلم به أحد إلا اللَّه يذكر اللَّه خاليًا حتى تفيض عيناه .

المعاني المشتركة بين الأجناس السبعة :

قال الشيخ عطية محمد سالم : « من مبادئ البلاغة والعادة : أنه لا تورد متعددات إلا مع التجانس ، لحسن النسق وجمال التنسيق ، كلبنات الجوار ، وحبّات العقد ، وكذلك الكلام والبلاغة النبوية : هي الذروة والقمة ، وقد أعطى ﷺ جوامع الكلم ، وكذلك مجامع الحكم .

فكما أن أسلوب الحديث النبوي مُبَرّأ من تنافر الكلمات ، ونشاز العبارات ، فكذلك في المعاني .

فإيراد هذه الأصناف السبعة في أسلوب واحد ، مع تفاوتها في مواضيعها ، وبُعد ما بين بعضها البعض ، لابدّ أن فيها ما يربط بعضها ببعض من معنى شامل ، يسوغ نظمها في إيرادها لما تقتضيه البلاغة النبوية العالية ، ويستوجبه خلو الحديث النبوي من النشز والتنافر .

وقد أعطى في ذلك ما لم يُعْطه أحد ، وهو ﷺ أفصح العرب والعجم، مما يدعونا إلى تأملها بعين تتطلع إلى ما يقال له : فائدة الخبر لازم الفائدة ، وهو أبعد غايات البلاغة »[١] .

أولاً : الرغبة والرهبة في اللَّه ومن اللَّه :

ثانيًا : مراقبة اللَّه والإخفاء عن الناس :

وإن كان بعض الصور تبدو ظاهرة محسوسة ، إلا أنه مرتبط بعنصر الإخفاء حتى لتكاد تكون من باب واحد ، وهو مراقبة اللَّه ، والخوف منه ، وإيداع ودائع السر عند اللَّه لسان حالهم : ضع كنزك عند من لا يضيّعه .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٥٩ ـ ٦٠) .

الإمام العدل والعادل :

فأما الإمام العدل والعادل ، فعدالته لم تتحقق إلا بتقوىٰ من اللَّه ، وأما عدله فلا يكون إلا خوفًا من اللَّه من مظالم العباد ، أو رجاءً فيما عند اللَّه من دوام ولايته .

ومعلوم أنه لا سلطان عليه من الرعية ، وإنما حقيقة السلطان عليه هو اللَّه ـ ومن ناحية أخرىٰ لا يطّلع علىٰ حقيقة عدله إلا اللَّه ، فكم يعطي ويمنع ويدني ويقضي ويكرم ويهين ، ولكم يعمل سراً وخفية ، وكل ذلك لا يطّلع عليه إلا اللَّه سبحانه ، وقد يوقع ما قد يُستنكر منه فيتعلل أنه للصالح العام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾[1] .

والشاب الناشئ في عبادة اللَّه :

هو لا يرجو ولا يرهب إلا جناب اللَّه، ثم إنه لا يطلع علىٰ حقيقة عبادته وسر إخلاصه إلا اللَّه ، ولا يراه دائمًا في خلوته وجلوته ، وسره وجهره إلا اللَّه سبحانه وتعالىٰ .

والرجل المعلق قلبه في المساجد :

لم يتعلق قلبه به لدنيا يصيبها ، ولا لامرأة يتزوجها ، ولا لجاه يحصل عليه ، وإنما رغبة ورهبة للَّه ، وفي اللَّه لما تذوّق من حلاوة المناجاة للَّه في بيت اللَّه .

ومن السر النبوي هنا : أنه أسند التعلق لقلبه لا لجسمه ، ولا لنظره ، لأن حلاوة الإيمان محلها القلب ، وأقوىٰ مؤثر في ذلك هي الصلاة ، كما جاء عنه ﷺ : « **وجعلت قرة عيني في الصلاة** » .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٠) .

وأما المتحابون في اللّه :

أي لا مال بينهم ، ولا نسب يربطهم ، ولا رحم يجمعهم ، ولا على مصالح تدفعهم ، إنما هو للّه ، وفي ذات اللّه ، وكذلك لا يعلم حقيقة نصح كل منهما الآخر إلا اللّه ، فإذا اجتمعا كان للّه وإذا افترقا كان للّه ، أي لما يقع من أحدهم ما لا يرضي اللّه ، فارتباطهم حقا في ذات اللّه .

والمتصدّق في الخفاء :

تغلّب على شُحّ نفسه في ماله ، وتخطّى حب الثناء وطبيعة حب المدح ، فغالب في نفسه غريزتين : غريزة الشح الحاضرة في الأنفس ، وغريزة حب الثناء المجبولة عليها النفوس .

وبذل المال في قانون الحياة لا يكون إلا بمعاوضة إلا في الصدقة ، فالمعاوضة فيها معدومة ، بل العوض منتظر من اللّه ، فالإخفاء ركنها الأكبر ، والرغبة فيما عند اللّه الدافع الأول ، فإخفاؤها يُطهّرها من شائبة الرياء ، وهذا نهاية إرادة وجه اللّه .

وأما الباكي من خشية اللّه :

فإن عنصر الإخفاء في نص قوله ﷺ : « **ذكر الله خاليًا** » أي خاليًا عن الناس وفي خلوة وحده ـ أو خاليًا قلبه من الشواغل فسواء ، وكذلك عنصر الخوف ، وهل أبكاه إلا خوفه من اللّه ؟ إما من ماضٍ أساء فيه ، أو مستقبل لا يعلم ما اللّه فاعل به ﴿ **وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ** ﴾[1] [2] .

* * *

(١) سورة المعارج الآية (٢٧) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٠ ـ ٦١) .

المعنى الثالث : ارتباط هذه الأجناس بعضها ببعض ، وتأثير بعضها في بعض .

ولا سيما في النَّسق الذي أورده البخاري ـ رحمه اللَّه ـ في بعض رواياته ، فقد اتفق الرواة في ترتيب الأصناف الثلاثة الأولى : إمام عادل ، شاب نشأ في عبادة اللَّه ، رجل قلبه معلق بالمساجد ، وإن اختلفوا في التقديم والتأخير في البقية فعلى بعض روايات البخاري ، ورجلان تحابا في اللَّه ، ورجل دعته امرأة ، ورجل تصدّق ، ورجل ذكر اللَّه .

وبتأمل هذا الترتيب ، نجد تلك الأصناف بعضها مع بعض ، بمثابة المقدمات والنتائج والأسباب ومسبباتها ، والآثار ومؤثراتها ، فما يشهد حقًّا بأن كل متعددات في الحديث النبوي مترابطة المعاني وإن اختلفت المباني .

• فالإمام العادل سيقيم مجتمعًا فاضلاً ولا سيما وهو في ذاته عدل أي مستقيم آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر مقيمًا للصلاة ، ومؤتيا للزكاة ، ومن الأمر بالمعروف : إقامة محاسن التشريع ، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود ، سيكون مجتمعه حقًّا فاضلاً تنشأ فيه النشأة ، ويشب فيه الشباب على هذا المنهج في عبادة اللَّه .

• ومن أخص تلك النشأة ارتياد المساجد ، حفاظًا على الصلوات في الجماعة ، ومن كان هذا حاله من أول نشأته ، لا شك أنه سيتعلق قلبه بالمساجد ، ومن تعلق قلبه بالمساجد داوم على ارتيادها ، وكان من لوازم ذلك التعارف على المصلين ومحبتهم والشعور بالإخاء معهم ، فينتج قطعًا التحاب في اللَّه ، لأنهم جميعًا مثله ما جاؤوا إلى المساجد إلا لما جاء هو إليه ، وهو ابتغاء وجه اللَّه ، وإلى هنا قوى وجه هذا الارتباط ، وظهر مدى هذا التأثير في تكوين أفراد المجتمع .

• أمّا من دعته امرأة فتعفف عنها ، فإن عفّته عنها لم تأت عفواً بل بعد مغالبة الغريزة والفطرة ولا يغلب الغرائز إلا ما كان أقوىٰ منها ، ولا يكون إلا الإيمان باللَّه ، والخوف من اللَّه ، ولا يورّث هذا إلا تلك الصلوات في تلك المساجد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[١] .

• وكذلك إخراج المال في غير معاوضه ، وتخّطي غريزة الشح ، وجبلة حب الثناء كان من تلك المؤثرات ، ومن قوىٰ علىٰ مغالبة الغريزة الجنسية فهو علىٰ غيرها أقوىٰ ، وهل من يستطيع ذلك كله يكون غافلاً عن ذكر اللَّه في السر والعلانية ؟ لا ، وكلا ، وهكذا فكل صفة في صنف تؤثر في الصنف الذي يليها »[٢] .

المعنى الرابع : اشتراكهم في مخالفة هواهم :

قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ : « إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم اللَّه عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوىٰ ،

• فإن الإمام المسلّط القادر لايتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه .

• والشباب المؤثر لعبادة اللَّه علىٰ داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر علىٰ ذلك .

• والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله علىٰ ذلك مخالفة الهوىٰ الداعي له إلىٰ أماكن اللذات .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٢ ـ ٦٣) .

• والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لو لا قهره لهواه لم يقدر على ذلك .

• والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف اللَّه عزَّ وجلَّ وخالف هواه .

• والذي ذكر اللَّه عز وجل خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدَّته سبيل عليهم يوم القيامة .

الجزاء من جنس العمل في هذا الحديث :

قاعدة « الجزاء من جنس العمل » متحققة في هذا الحديث : ـ

بحيث أن اللَّه سبحانه نظر إلى هذه الأصناف وقد جمعت بين الخوف من اللَّه وإخفاء العمل رجاءً فيما عند اللَّه .

وأنه سبحانه أمّنهم يوم الفزع الأكبر فقابل خوفهم بالأمن ، وقد جاء الأثر : « إني لا أجمع على عبدي خوفين أو أمنين ، فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة . . . » الحديث .

ولمّا كانوا مخلصين إليه العمل وكانت أعمالهم خفيّة تولّى سبحانه جزاءهم في الآخرة ، فآواهم إلى ظله وظل عرشه ، كما جاء في الصوم إذ قال عنه : « فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه من أجلي . . . » .

وهكذا هؤلاء أقوام أتوْا وتركوا ما تركوا من أجله هو سبحانه ، جعلنا اللَّه تعالى منهم وحشرنا معهم »[1] .

* * *

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٣) .

قوله ﷺ : « سـبعة ...

الكلام على العدد سـبعة

قال الشيخ عطية محمد سالم :

أولاً : عند علماء الحساب :

قال صاحب « العذب الفائض في علم الفرائض » ما ملخصه :

أن الأعداد بعد السبعة مكررة المكرر ، وأن نهاية العدد حقيقة هو العدد سبعة ، كما يقول الجميع بأن المائة تكرار العشرة ، والألف تكرار المائة وهكذا .

وبيان ذلك على حد قولهم : أن كلا من الأعداد واحد واثنين وثلاثة أعداداً أولية أي ليست مركبة من مكرر بناءً على أن الواحد ليس داخلاً في العدد ، وأن ابتداء العد من اثنين .

ثم تأتي الأربعة مجموع الاثنين ، والخمسة مجموع الاثنين والثلاثة ، والستة مجموع الثلاثة مرتين ، والسبعة مجموع الثلاثة والأربعة .

وما فوق السبعة ففيها تكرار المكرر ، وتكرار المكرر لا نهاية له ، فالثمانية تكرار الاثنين أربع مرات ، ولوقيل : هي مجموع الأربعة مرتين ، لقيل : إن الأربعة نفسها تكرار الاثنين ، فلا تخرج عن تكرارالمكرر .

والتسعة تكرار المكرر الذي هو الثلاثة ثلاث مرات .

والعشرة تكرار الاثنين خمس مرات .

• قال ابن القيم في « زاد المعاد » (٣/ ٢٠٠) : « والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه » وعلى هذا يكون العدد سبعة هو النهاية للعدد ، وما بعده يكون تكرار المكرر إلى المئات والآلاف وما فوقها .

ولعلّ في هذا نوع بيان لذكر هذا العدد في أمور عديدة ونصوص متعدده على ما سيأتي إن شاء اللَّه .

دخول هذا العدد (٧) في عدة مجالات :

وقد تكلم ابن القيم - رحمه اللَّه - في « زاد المعاد » (٣/ ٢٠٠) كلامًا لطيفًا نورده ، ثم نعقّب عليه بما لم يذكره ، مع بعض التنبيهات على الربط بين كون هذا العدد نهاية العدد ، وما ورد فيها من نهاية جنسه .

قال ابن القيم - رحمه اللَّه - ما نصه :

أما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدراً وشرعًا ، فخلق اللَّه عز وجل السماوات سبعًا ، والأرضين سبعًا ، والأيام سبعًا ، والإنسان كمل خلقه في سبعه أطوار ، وشرع اللَّه سبحانه لعباده الطواف بالبيت سبعًا ، والسعي بين الصفا والمروة سبعًا ، ورمي الجمار سبعًا سبعًا ، وتكبيرات العيدين سبعًا في الأولى ، وقال ﷺ : « **مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ...** » .

وإذا صار الغلام سبعًا خيّر بين أبويه .

وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبع قرب .

• وسخر اللَّه الريح على قوم عاد سبع ليال ، ودعا النبي ﷺ أن يعينه على قومه بسبع كسبع يوسف .

• ومثّل اللَّه سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

• والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعًا ، والسنين التي زرعوها دَأَبًا سبعًا ، والبقرات السمان والعجاف سبع ، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفًا .

• فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ، والسبع جمعت معاني العدد كله وخواصه ، فإن العدد شفع ووتر ، والشفع أول وثان ، والوتر كذلك ، فهذه أربع مراتب : شفع أول وثان ، ووتر أول وثان ، ولا تجتمع هذه المراتب من أقل من سبعة ، وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة أعني الشفع والوتر ، والأوائل والثواني ، ونعني بالوتر الأول : الثلاثة ؟ وبالثاني : الخمسة ، وبالشفع الأول : الاثنين ، وبالثاني : الأربعة .

• وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة ، ولا سيما في البحارين ، وقد قال بقراط : كل شيء من هذا العالم فهو مقدر على سبعة أجزاء .

• والنجوم سبعة ، والأيام سبعة ، وأسنان الإنسان « سبعة » . . . ولا يخفى أنه لم يذكر حديث « **سبعة يظلهم الله** ... » لأن ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ إنما هو من قبيل الأمثلة لا الاستقصاء وإلا ففي كل باب ذكره ، أو أكثرها توجد سبعات أخرى نسوق أهمها مع التنبيه على ما أشرنا من ارتباط بين العدد والمعدود كالآتي :ـ

أولاً : وأهمها السبع المثاني والتي هي أم الكتاب فهي متناسبة مع السبعة أم العدد .

ثانياً : أنزل القرآن على سبعة أحرف وهو الإمام والمرجع .

ثالثًا : ليلة القدر وهي أم الليالي في سبعة وعشرين أو كما قال ابن عباس : لسبع بقين أو لسبع خلون .

وخلق الإنسان على أطوار سبع ، وغذاؤه من سبع ، (راجع ابن كثير) .

رابعًا : صلاة الجماعة وهي عماد الدين تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة .

خامسًا : أعضاء السجود التي تخشع لله سبع .

سادسًا : البدنة عن سبعة ، والبدنة هي النهاية في أجسام بهيمة الأنعام .

سابعًا : يبعث في آخر كل سبع أمم نبي .

ثامنًا : أنتم توفون سبعين أمة .

تاسعًا : المهدي يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً ، نهاية العدل والأمن .

عاشرًا : الكافر يأكل في سبعة أمعاء .

أحد عشر : صيام بعض أيام عوض دم الهدي (وسبعة إذا رجعتم) .

اثنا عشر : المقام عند البكر سبع .

ثلاثة عشر : العقيقة بعد سبع ، قالوا : لا ستكمال الدورة الزمنية أسبوعًا .

أربعة عشر : العادة عند الالتباس بالحيضة سبعة أيام .

خمسة عشر : « الأخذ من سبعة آبار » ، وفد موسى (٧٠) رجلاً .

ستة عشر: تسبيع الإناء من ولوغ الكلب .

سبعة عشر : « هذا العود الهندي فيه سبعة أشفية » .

ثمانية عشر : « بادروا بالأعمال سبعًا » .

تسعة عشر : « أمر النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع .

عشرون : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » .

واحد وعشرون : الأعمال عند اللَّه سبع .

اثنان وعشرون : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة لقمان الآية (٢٧) .

هذا إيراد ما تيسّر على سبيل الإجمال ، وإليك إيراد تفصيل الأربعة الأخيرة .

(أ) « **بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنظرون إلا فقرا منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفقداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشرّ غائب يُنتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمرّ** » رواه الترمذي وقال : غريب حسن[١] ، « تحفة الأحوذي » (٦/ ٢٩٥) .

(ب) « **وأمرنا بسبع** » حديث البراء : أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع الجنائز ، وعيادة المريض ، وإجابة الداعي ، ونصر المظلوم ، وإبرار القسم ، ورد السلام ، وتشميت العاطس ، ونهانا عن آنية الفضة ، وخاتم الذهب ، والحرير والديباج ، والقَسِيّ ، والاستبرق » رواه البخاري في كتاب الجنائز .

(جـ) « **اجتنبوا السبع الموبقات** » : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات من المؤمنات الغافلات .

(د) « **والأعمال عند الله سبع** » : عملان موجبان وعملان بمثلهما ، وعمل بعشر ، وعمل بسبعمائة وعمل لايعلم قدره إلا الله ، فأما العملان الموجبان : فالإشراك بالله موجب النار ، والإيمان موجب الجنة والعملان بمثلهما ، منّ هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بسيئة فعملها كتب سيئة واحدة وأما العمل بعشر فالحسنة بعشر أمثالها ، وأما العمل بسبعمائة فالدرهم في سبيل الله ، وأما العمل الذي

---

(١) ضعّفه الألباني في تحقيق « رياض الصالحين » .

لا يقدر قدره إلا اللَّه فالصوم .

هذا ما أصبنا إيراده وإلا ففي كتب الحديث من ذلك كثير .

المراد بالسبعة :

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٧٣) :

« ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له ، بل يشترك النساء معهم فيما ذكر ، إلا إن كان المراد بالإمام العادل الإمامة العظمى ، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم ، وتخرج خصلة ملازمة المسجد لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد ، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن » .

● قال الزرقاني : سبعة من الأشخاص ، ولم يقدر غيره شيئًا .

● وقال أبو عبيد اللَّه سيد محمد مصطفى ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل الشنقيطي في رسالته « منيل البش فيمن يظلهم اللَّه بظل العرش » : قوله سبعة أي من الأشخاص ، ليدخل النساء فيما يمكن أن يدخلن فيه شرعًا ، فلا يدخلن في الإمامة العظمى ، ولا في ملازمة المساجد لأن صلاتهن في بيوتهن أفضل ، نعم قد يمكن أن يكن ذوات عيال فيعدلن بينهم فيدخلن في الإمامة كغيرها .

قال الشيخ عطية سالم : إنه كما افترض إمكان كونهن ذوات عيال ، فيعدلن فيهم ، فيصدق عليهن الوصف بالإمامة أي بالمعنى ، فكذلك يقدر لها من حيث المسجد لو افترضنا لها مسجدًا في بيتها وتعلق قلبها به حرصًا على أداء الصلوات في أوقاتها .

● وفي « إرشاد الساري » للقسطلاني (٢/ ٣٢) : سبعة من الناس .

● قال الشيخ عطية سالم « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٤ ـ ٦٥) :

« بما أنه لم يرد تمييز للعدد[١] ، ويحتمل تقديره رجالاً أو أشخاصًا ، وتقديره بالرجال يخرج النساء ، وتقديره بالأشخاص قد يُشعر بالحصر والتحديد في سبعة بأعيانهم ؛ فإن الأولىٰ عندي تقدير بـ (أصناف) ليشمل العدد من الأفراد في كل واحد من الأقسام السبعة ، مما لا يعلم عدده إلا اللَّه ، واللَّه تعالىٰ أعلم ، إذ سْياق الحديث للترغيب في هذه الأعمال وليس للإخبار عن أفراد معينين » .

● قال ابن حجر معلقًا علىٰ : « **اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه** » : عدت هذه الخصلة واحدة مع أن متعاطيها اثنان لأن المحبة لا تتم إلا باثنين ، أو لما كان المتحابان بمعنىٰ واحد . . . لأن الغرض عدّ الخصال لا عدّ جميع من اتصف بها .

سبعة :

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٦٨) :

« ظاهره اختصاص المذكورين بالثواب المذكور ، ووجهه الكرماني بما محصله : أن الطاعة إما أن تكون بين العبد وبين الرب ، أو بينه وبين الخلق :

فالأول : باللسان وهو الذكر ، أو بالقلب وهو المعلق بالمسجد ، أو بالبدن وهو الناشئ في العبادة .

والثاني : عام وهو العادل ، أوْ خاص بالقلب وهو التحاب ، أو بالمال وهو الصدقة ، أو بالبدن وهو العفة ، وقد نظم السبعة العلاّمة أبو شامة قال :

---

(١) أي لم ترد به رواية ، وكذلك لم يذكره أئمة الحديث كابن عبد البر وابن حجر مثلاً . . . قاله الشيخ عطية محمد سالم .

وقال النبي المصطفى إن سبعة يظلهم الله الكريم بفضله
محب عفيف ناشيء متصدق وباك مصل والإمام بعدله

• **ملحوظة** : قال الشيخ عطية سالم :

« السبعة » المذكورون في هذا الحديث بمثابة الأصل لكل ما نصوا عليه، سواءً بأسانيد صحيحة أو ضعيفة لأنها كلها داخلة في إطار إخفاء العمل، أو إخلاصه للَّه رغبة أو رهبة من اللَّه .

وقال في كتابه : « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٣) :

« في هذه السبعة النماذج الكافية[١] ، بل قد يمكن إدخال بقية الأصناف ضمنها وذلك للآتي :

أولاً : اشتملت تلك الأصناف السبعة طبقات المجتمع من القمة إلى القاعدة : إمام عادل ، ورجلان تحابا في اللَّه .

ثانيًا : قسّم العلماء أعمال الخير إلى قسمين : بدنية ومالية . . . وهذه الأصناف السبعة جمعت القسمين : البدنية والمالية على أكمل وجه .

ثالثًا : قسّم الأصوليون الأحكام التكليفية إلى ثلاثة أقسام :

(أ) ضروريات . (ب) حاجيات . (جـ) تتميمات .

فالضروريات : الحفاظ على الجواهر الست .

والحاجيات : عقود المعاملات .

والتتميمات : الحث على مكارم الأخلاق .

وهذا الحديث في نسق هؤلاء السبعة قد شملها ضمنًا والتزامًا بدلالة الإيماء والتنبيه فأغنى بيانه عن غيره وللَّه الحمد والمنة » .

---

(١) في هذا نظر ، وذلك لورود أصناف تختلف عن السبعة اختلافًا بيّنا وظاهرًا .

لطيفة : قال الزرقاني في رسالته التي لخصّ فيها رسالة السخاوي :

« يقال إن السبعة الأولىٰ اجتمعت في يوسف عليه السلام ، فهو : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة اللَّه تعالىٰ ، وتحاب هو ووالده يعقوب عليهما السلام في اللَّه ، ودعته « زليخا » وهي ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف اللَّه ، وتصدّق علىٰ إخوته سرًّا كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ** ﴾[1] .

ولاشك أن قلبه كان يحب مواطن العبادات وأنه شديد الشوق إلىٰ اللَّه .

العدد « سبعة » لا مفهوم له :

قال الحافظ في « الفتح » (٢/ ١٦٨ - ١٦٩) :

« وقع في « صحيح مسلم » من حديث أبي اليسر مرفوعًا « **من أنظر معسرًا أو وضع له أظله اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله** » وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية فدلّ علىٰ أن العدد المذكور لا مفهوم له . . . ثم تتبعت بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك فزادت علىٰ عشر خصال ، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد ونظمتها في بيتين تذييلاً علىٰ بيْتَيْ أبي شامة وهما :

وزِدْ سبعةً : إظلال غاز وعونه وإنظارُ ذي عسر وتخفيف حمله

وإرفاد ذي غرم وعون مكاتب وتاجر صدق في المقال وفعله »

قال الحافظ السيوطي في « تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش » (ص٦٦) :

---

(١) سورة يوسف الآية (٦٢) .

« أنشدني شيخ الإسلام في عموم إجازته لنفسه :

وزد سبعة إظلال غاز وعوْنه وانظار ذى عسر وتخفيف حمله

وحَامي غُزاة حين ولّوا وعون ذي غرامة حقٍّ معْ مُكاتبِ أهله

• قال الزرقاني : « دل استقراء الأحاديث على أن هذا العدد لا مفهوم له » فهو ممن يقول لا مفهوم لهذا العدد .

• وقال القسطلاني في « إرشاد الساري » (٢/ ٣٣) عند باب « من جلس في المسجد ينتظر الصلاة » : وتقييد العبد بالسبعة لا مفهوم له ، بدليل ورود غيرها » وسرد بعض النصوص عند مسلم وغيره ، إلى أن قال : « ومن تتبّع دواوين الحديث وجد زيادة كثيرة على ما ذكرته » ، ثم قال : « وللحافظ ابن حجر مؤلف سماه « معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال » .

• وقال القسطلاني في شرحه على باب مشروعية الصدقة باليمين : «لا مفهوم للعدد بالسبعة فقد روى الإظلال لذي خصال أخر كثيرة غير هذه أفردها شيخنا الحافظ السخاوي في جزء فبلغت مع هذه السبعة ثنتين وتسعين »(١) .

قوله ﷺ « يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله »

اعلم يا أخي أن كل روايات حديث « **السبعة الذين يظلهم الله في ظله** » وردت هكذا : « **يظلهم الله في ظله يوم لا ظله إلا ظله** » إلا رواية النسائي وبعض روايات البخاري في بعض المواطن من صحيحه ، ففيها زيادة كلمة «يوم القيامة ، هكذا : « **سبعة يظلهم الله عز وجل يوم القيامة** » .

---

(١) « إرشاد الساري » (٣/ ٢٤) أغلب هذه الخصال وردت بأحاديث ضعيفة ضعفها أهل العلم كما سنبيّن ذلك إن شاء الله .

وكذا كلمة العرش إنما جاءت في بعض روايات مالك فيما ساقه ابن عبد البر في «التمهيد» وعلى هذا فالكلام على «**يظلهم الله في ظله**» ؛ ما هو ظله ؟ وكيف يظلهم ؟

«باديء ذي بدء نقول : ليس هذا من باب الصفات ولا أحاديثها إذْ لم يرد لا في آيات الصفات ولا أحاديثها وصف الله وصفًا مستقلاً بذلك وهذا ما يظهر والله تعالى أعلم»[١] .

في ظله :

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ١٦٩) : «قوله : «في ظله» ، قال عياض : الظل إلى الله إضافة مُلك ، وكل ظله فهو ملكه ، وكذا قال.

وكان حقه أن يقول : إضافة تشريف ليتحصل امتياز هذا على غيره كما قيل للكعبة بيت الله مع أن المساجد كلها ملكه .

وقيل : المراد بظله كرامته وحمايته ، كما يقال : فلان في ظل الملك ، وهو قول عيسى بن دينار ، وقوّاه عياض .

وقيل : المراد في ظل عرشه ، ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه**» فذكر الحديث ، وإذا كان المراد ظل العرش استلزم ما ذكر من كونهم في كنف الله وكرامته من غير عكس فهو أرجح وبه جزم القرطبي .

ويؤيده أيضًا تقييد ذلك بيوم القيامة كما صرّح به ابن المبارك في روايته عن عبيد الله بن عمر وهو عند المصنف في كتاب الحدود وبهذا يندفع قول من قال : المراد ظل طوبى أو ظل الجنة لأن ظلها إنما يحصل بعد الاستقرار

---

(١) «في ظلال عرش الرحمن» للشيخ عطية سالم (ص٧١) .

في الجنة ، ثم إن ذلك مشترك لجميع من يدخلها ، والسياق يدل على امتياز أصحاب الخصال المذكورة ، فيرجح أن المراد ظل العرش وروى الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعًا : « **أحب الناس إلى اللّه يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عدل** » اهـ .

وقال الحافظ أيضًا في « الفتح » (١١ / ٣١٨) : « ظل كل شيء بحسبه ، ويطلق أيضًا بمعنى النعيم ومنه ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ وبمعنى الجانب ومنه «يسير الراكب في ظلها مائة عام» وبمعنى الستر والكنف والخاصة ، ومنه أنا في ظلك ، وبمعنى العز ومنه « أسبغ اللّه ظلك » اهـ .

وقال القسطلاني : « **يظلهم اللّه في ظله** » أي عرشه « يوم لا ظل في القيامة ودنو الشمس من الخلق « **إلا ظله** » .

وقال ابن عبد البر : « والظل في هذا الحديث يراد به الرحمة واللّه أعلم ومن رحمة اللّه : الجنة ، قال اللّه عز وجل ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ وقال : ﴿ **وظل ممدود** ﴾ وقال : ﴿ **في ظلال وعيون** ﴾ .

ومن كان في ظل اللّه يوم لا ظل إلا ظله نجا من هول ذلك الموقف إن شاء اللّه ، واللّه أعلم جعلنا اللّهم منهم برحمته آمين »[١] .

وقال النووي في « شرح مسلم » (٧/ ١٢٠) : « قال القاضي : إضافة الظل إلى اللّه تعالى إضافة ملك ، وكل ظل فهو للّه وملكه وخلقه وسلطانه والمراد هنا ظل العرش كما جاء في حديث آخر مبينًا .

والمراد يوم القيامة إذا قام الناس لرب العالمين ودنت منهم الشمس واشتد عليهم حرها وأخذهم العرق ولا ظل هناك لشيء إلا العرش وقد يراد

---

(١) « التمهيد » لابن عبد البر (٢/ ٢٨٢) .

به ظل الجنة وهو نعيمها والكون فيها كما قال تعالى : ﴿ **وندخلهم ظلا ظليلاً** ﴾ قال القاضي : وقال ابن دينار : المراد بالظل هنا الكرامة ، والكنف ، والكف عن المكاره في ذلك الموقف ، قال : وليس المراد ظل الشمس ، قال القاضي : وما قاله معلوم في اللسان ، يقال : فلان في ظل فلان أي في كنفه وحمايته ، قال : وهذا أولى الأقوال ، وتكون إضافته إلى العرش لأنه مكان التقريب والكرامة وإلا فالشمس وسائر العالم تحت العرش وفي ظله » .

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في « عارضة الأحوذي » (٩/ ٢٣٧) : « حديث « **سبعه يظلهم الله فى ظله** » الظل : الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان ، وقيل هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس ، أي الغداة ، وما كان بعده أي العشي ، فهو الفيء : وهو نقيض الضحى ، ويجمع على ظلال وظلول وأظلال ، وفي الحديث « **الجنة تحت ظلال السيوف** » وهو كناية عن الدنو من الضراب في الجهاد حتى يعلوه السيف ويصير ظله عليه ، وقد روى « سبعة في ظل العرش » أي في ظل رحمته ، وفي حديث آخر « **السلطان ظل الله في الأرض لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظل أذى حر الشمس** » .

وقد يكنى بالظل عن الكنف والناحية ، ومنه « **إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام** » أي في ذراها وناحيتها ، وفي شعر العباس يمدح النبي ﷺ :

من قبلها طبْت في الظلال وفي مستودع حيث يُخصفُ الورقُ

أراد ظلال الجنة ؛ أي : كنت طيبًا في صلب آدم حيث كان في الجنة » .

تعليق للشيخ عطية محمد سالم :

أولاً : معنى الإظلال . **ثانياً** : وقته . **ثالثاً** : مكانه . . . **وأخيراً** : تحديد المراد في هذا الحديث .

أولاً معنى الإظلال : فمما تقدّم من قول أئمة الحديث تجده دائراً بين الحقيقة والمجاز .

أ - فعلى الحقيقة : يكون الإظلال في ظل العرش ، وهذا من حيث الصناعة تقييد للمطلق ، ولا يتعارض مع الروايات الأخرى « **يظلهم الله في ظله** » ، إذ ظل العرش للَّه تعالى وليس لغيره سبحانه ، ولا يملك أحد أن يظل أحداً في ظل العرش إلا اللَّه سبحانه وحده ، فهو ظل مضاف إلى العرش ، والعرش مضاف إلى اللَّه سبحانه وتعالى وحده فصدق عليه أنه للَّه سواءً على ما قال القاضي عياض إضافة ملك أو على ما وجّهه ابن حجر : إضافة تشريف أو من باب بيان المجمل إذ في « ظل اللَّه » مجمل ، وإضافته إلى العرش بيان له ، ويكون ذلك جمعاً بين الروايتين وإعمالاً لهما معا

أما اعتبار الإظلال في الجنة أو طوبى فإن هذا لا ذكر له في الحديث وهو من باب تأويل اللفظ ، لا من باب النص عليه وإن الكل للَّه ويصدق عليه جملة أنه ظل للَّه أي مملوك له سبحانه إلا أنه تأويل مردود بما تقدم من أن هذا الإظلال يكون بعد دخول الجنة فإذا أدخل الناس الجنة كان هذا الإظلال عام لجميع أهل الجنة ، والحال أن الحديث سيق لتخصيص هؤلاء السبعة بظل خاص ، فلم يبق صالحًا للحمل على الحقيقة إلا ظل العرش كما تقدم .

ب ـ أما على مجازه وكناياته :

فكل ما قيل من المعاني محتمل إلا أنه أعمّ من المراد إذ الكنف والعز والسلطان للَّه تعالى شامل لأوليائه وأصفيائه وعباده الصالحين في الدنيا قبل الآخرة .

بل في الحديث ما يشير إلىٰ القيد بغير الدنيا بأمرين :

١ ـ قوله : « **يوم لا ظل إلا ظله** » : والناس في الدنيا قد يكون بعضهم في ظل بعض وكما في حديث « **السلطان ظل الله في الأرض** » فهذا ظل للسلطان وإن كان مرجعه إلىٰ الله إلا أنه مضاف إلىٰ عدل السلطان .

٢ ـ وقوله في بعض الروايات الصحيحة : « **يوم القيامة** » إلا أنه في ذلك اليوم أظهر وأشد فعالية وأعظم منّة وتفضيلاً حيث تمس الحاجة إليه ، وليس هناك ما يغني عنه إذ لا ملجأ ولا منجا منه سبحانه إلا إليه .

فإذا لم يحمل علىٰ حقيقته بظل العرش ، فلا سبيل إلىٰ حمله علىٰ حقيقته بالنسبة إلىٰ ذات الله إذ محال علىٰ الله أن يكون له ظل كما نتصور في المخلوق حينما يكون حاجزاً للشمس فينشأ له ظل »[١] .

تنـبـيـــه :

قال الشيخ عطية محمد سالم : « إن حقيقة الإظلال بالعرش لانستطيع تكييفها كتكييفنا للظل في الدنيا لأن الشمس من كواكب السماء والدنيا أو حتىٰ علىٰ ما قيل في السماء الرابعة ، فأين هي من العرش حتىٰ تعلوه ؟ فيكون هو الحاجز دونها ويستظلون بظله .

إنه لولا حديث : « تدنو الشمس من الخلائق قدر ميل . . . » المتقدم ذكره لما استطعنا تصوّر وجود شمس في ذلك اليوم لأن الله تعالىٰ يبدل العالم كله كما قال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾[٢] ، وقوله في حق الشمس خاصة : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ**

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٠ ـ ٧١) .
(٢) سورة إبراهيم الآية (٤٨) .

﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾[(١)] .

تغير شامل للعالم كله ، والأرض وما عليها من جبال وبحار ودواب ، والسماء وما فيها من الشمس والنجوم ، فمتى يكون ذلك التكوير ؟ أهو عند تسيير الجبال وانكدار النجوم ؟ .

قال الفخر الرازي : « واعلم أن هذه العلامات الست يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا ويمكن وقوعها أيضًا بعد قيام القيامة وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين .

وكذلك قال القرطبي بعد روايات عديدة .

أما ابن جرير الطبري فقد أورد كل الأقوال ، ثم جاء بأثر عن أبي العالية في قوله : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال : سيأتي أولها والناس ينظرون ، وسيأتي آخرها إذا النفوس زوجت .

فإذا أخذنا بعين الاعتبار رواية أبي العالية أن تغيرات الشمس تبدأ والناس ينظرون وتنتهي إذا النفوس زوجت ، ولاحظنا حديث « دنو الشمس من الرءوس في الموقف فإنه يمكن أن يقال : لا مانع من وجود الشمس حالة الموقف ودنوها من الرءوس ، ثم بعد الانتهاء من الموقف تكور الشمس وتلقى سواء في البحر فتسجر بها أو في النار ، أو يطفأ نورها على الروايات التي جاءت في هذا كله ومصير العلم حقيقة للَّه تعالى .

ومهما يكن من شيء فليس هناك جواب حقيقي لبيان الحقيقة وإن حقيقة الأمر مردها إلى اللَّه سبحانه إلا أن المعنى كما

---

(١) سورة التكوير الآيات (١ : ١١) .

قال ابن عبد البر : « ومن كان في ظل اللَّه يوم لا ظل إلا ظله نجا من هول ذلك الموقف إن شاء اللَّه ، واللَّه أعلم ، جعلنا اللَّه منهم برحمته آمين » .

لأننا نعلم يقينًا أن المعنى العام في جملته : هو التنويه بفضل هذه الصفات وفضيلة هذه الأصناف ، وتفضل اللَّه تعالى عليهم ، وكرامته إياهم ، وتخصيصهم دون غيرهم .

وقريب منه في عمومه : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾[1] .

حيث لا يعلم كنه ذلك إلا اللَّه ، جعلنا اللَّه تعالى منهم جميعًا بفضله وتفضله ورحمته وإحسانه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه[2] .

من عظمة العرش تعرف عظمة ظله :

اعلم رحمك اللَّه أن سلف الأمة كانوا يثبتون للَّه تعالى العرش دون تأويل أو تحريف ، إلى أن غزت الفلسفة اليونانية التعاليم الإسلامية ، ونشأ علم الكلام فوجدت طائفة أنكرت العرش .

فقال جماعة من هؤلاء : إن العرش هوعبارة عن معنى الملك وسعة السلطان ، وليس هو سرير الملك الذي يعرفه الناس وهو قول أكثر المعتزلة وقوم من الخوارج وجماعة من الأشاعرة .

وهناك قول آخر للفلاسفة والمتكلمين : وهو أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، وهو الذي قد يسمونه بالفلك الأطلس أو الفلك التاسع .

وذكر الدارمي في الرد على الجهمية (ص١٣) قولاً آخر لأحد زعماء

---

(١) سورة القمر الآية (٥٤ : ٥٥) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » .

المعطلة فإنه قال : لما خلق اللَّه الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن سمى ذلك كله عرشًا له واستوى على جميع ذلك .

وهذه الأقوال كلها باطلة لأنها خلاف ما استفاضت به الأدلة من القرآن والسنة الصحيحة وقد ورد فيها ما يقطع ببطلان ما ذهبوا إليه من هذه الأقوال ، فقد قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾[1] .

فلا يمكن أن يقال في هذه الآية : « كان ملكه على الماء » وكذلك ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « **فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش** » فهل يجوز أن يؤول العرش بما ذهب إليه هؤلاء الناس بعد هذا التصريح .

وقد قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾[4] .

فهذه الآيات كلها تمنع منعًا باتًا أن يكون المراد من العرش ما قالته هذه الطوائف من الملك أوسعة السلطان أو الفلك الأطلس أوغيرها من الأقوال لأنه لا يمكن أن يحمل الملائكة كل ذلك .

وقال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري في « صحيحه » من حديث أبي هريرة : « **فإذا سألتم اللَّه فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه**

---

(١) سورة هود الآية (٧) .
(٢) سورة غافر الآية (٧) .
(٣) سورة الحاقة الآية (١٧) .
(٤) سورة الزمر الآية (٧٥) .

عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » فهل يسوغ أن يقال : إن ملك الرحمن أوسلطانه فوق الفردوس ؟ ونظراً لهذه الأدلة وغيرها فقد ذهب أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة وخلفها إلىٰ الإيمان بعرش اللَّه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما جاء في القرآن والأحاديث الصحيحة وهو عندهم سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة علىٰ العالم ، وهو سقف المخلوقات ، وأمر اللَّه تعالىٰ ملائكته بحمله ، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به وهو أعظم المخلوقات علىٰ الإطلاق وكان هذا هو المعروف لدىٰ أصحاب القرون الأولىٰ دون غيره ، وقد قال الدارمي في « الرد علىٰ الجهمية » (ص٨) : باب الإيمان بالعرش وهو أحد ما أنكرته المعطلة ، ثم قال في هذا الباب : «وما ظننا أن نضطر إلىٰ الإحتجاج علىٰ أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان حتىٰ ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات اللَّه فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا وإلىٰ اللَّه نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرىٰ الإسلام وإليه نلجأ وبه نسعتين » اهـ .

ولا يلزم في إثبات العرش للَّه تعالىٰ علىٰ وجه يليق بذاته وبجلاله أي مانع من النقص أو التشبيه بعرش الملوك ، فإنه سبحانه لم يستو علىٰ عرشه لأنه يحتاج إليه ، بل هوغني عن العرش وعن كل ما سواه لا يفتقر إلىٰ شيء من المخلوقات ولا يُمَثَّل استواؤه باستواء المخلوقين بل يثبت للَّه تعالىٰ كل ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات والعرش والكرسي ، وينفي عنه مماثلة المخلوقات مع العلم بأن اللَّه ليس كمثله شيء لا في ذاته لا في صفاته ولا في أفعاله وبالتالي فإنه لا يجوز أن يقال إن في إثبات العرش له مساواته بالأجرام والأجسام »[١] .

---

(١) انظر التعليق علىٰ : « كتاب العظمة » لأبي الشيخ الأصبهاني تعليق رضاء اللَّه المباركفوري (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٦) ـ نشر دار العاصمة ـ الرياض .

العرش أول المخلوقات على أرجح الأقوال :

العرش أول المخلوقات ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، وشارح الطحاوية ، ونسبه ابن كثير وابن حجر نقلاً عن أبي العلاء الهمداني إلى الجمهور ، ومال إليه ابن حجر أيضًا[١] .

واستدلوا على قولهم هذا بما رواه مسلم في « صحيحه » بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص مرفوعًا قال : « كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » . ففي هذا الحديث تصريح بأن التقدير وقع بعد خلق العرش وحديث عبادة[٢] .

صرّح بأن التقدير وقع عند أول خلق القلم فدل ذلك على أن العرش سابق على القلم وهذا هو الراجح من الأقوال .

العرش خلقه اللَّه بيده :

قال مجاهد : قال عبد اللَّه بن عمر : « خلق اللَّه أربعة أشياء بيده : العرش ، القلم ، وآدم ، وجنة عدن ، ثم قال لسائر الخلق كن فكان »[٣] .

---

(١) انظر : « مجموع الفتاوى » (١٨/ ٢١٣ ـ ٢١٦) ، « مختصر الصواعق المراسلة » (٢/ ٣٢٣) ، و« اجتماع الجيوش الإسلامية » (ص٩٩ ـ ١٠٠) ، و« البداية والنهاية » (١/ ٩) ، و« العقيدة الطحاوية » (ص٢٩٥) ، و« فتح الباري » (٦/ ٢٨٩) .

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ إن أول ما خلق اللَّه القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . . . الحديث رواه الترمذي وأبو داود واللفظ له .

(٣) إسناده جيد ، على شرط مسلم : أخرجه الدارمي « في الرد على بشر المريسي » ، والآجري في « الشريعة » والحكيم الترمذي في « الرد على المعطلة » واللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » والحاكم في « مستدركه » (٢/ ٣١٩) إلا أنهما زادا فيه : احتجب من الخلق بأربع : بنار وظلمة وبنور وظلمة .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأورده في العلو =

العرش ياقوتة حمراء :

قال إسماعيل بن أبي خالد : أخبرت أن العرش ياقوتة حمراء .

قال الحافظ الذهبي : « هذا ثابت عن هذا التابعي الإمام » .

قال قتادة : « إن العرش من ياقوتة حمراء »[1] .

عظم العرش :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**»[2] .

وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[3] قال : « الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره »[4] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى وعلى قرنه العرش وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير**

= باللفظ الأول وقال : إسناده جيد ، وقال الألباني : على شرط مسلم .

(١) « العلو للعلي الغفار » (ص٧١) تحقيق أشرف بن عبد المقصود - مكتبة أضواء السلف .

(٢) صحيح : أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب « العرش » ، وابن جرير في « تفسيره » .
وقال الألباني« الحديث بهذه الطرق صحيح وخيرها لطريق الأخير» انظر : «السلسلة الصحيحة» الحديث رقم (١٠٩) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٤) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » والدارمي في « الرد على بشر المريسي » وعبد اللَّه بن الإمام أحمد في « السنة » وابن أبي شيبة في « العرش » وابن خزيمة في « التوحيد » ، والطبراني في «الكبير» وابن جرير في « التفسير » والحاكم في « مستدركه » وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافق الذهبي ، وقال الذهبي في « العلو » : رواته ثقات ، وقال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٢) : هذا إسناد صحيح .

سبعمائة عام ، يقول ذلك الملك ، سبحانك حيث كنت »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه عز وجل أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض ، ورأسه مثنية تحت العرش وهو يقول : سبحانك ما أعظمك ربنا فيردُّ عليه : ما يعلم ذلك من حلف بي كاذبا** »[٢] .

● عن ابن عباس - رضي اللَّه عنه - حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ، و[زعموا أن] خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب[٣] .

● وعن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : إن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام ، وتضد كل سماء - يعني غلظه - خمسمائة عام - ، وما بين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، واللَّه تبارك وتعالى فوق العرش ، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء »[٤] .

● عن أبي عيسى يحيى بن رافع التيمي قال : إن ملكًا لما استوى الرب

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الأوسط » عن أنس وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٠) و« صحيح الجامع » رقم (٨٥٣) .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في « الأوسط » ، وأبو يعلي في « مسنده » ، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة وقال : « وعنقه مثنيه » وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٠) .

(٣) موقوف صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « العرش » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » صحيح بمجموع الطرق انظر : « العظمة » (٣/ ٩٢٤) ، (٣/ ٩٥٢) .

(٤) إسناده صحيح : أخرجه الدارمي في : « الرد على بشر المريسي » ، وابن خزيمة في « التوحيد » ، والطبراني في « الكبير » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٣/ ٥٦٦ ، ٦٨٨) ، وصحح إسناده الذهبي في « العلو » ، و« المختصر » (ص١٠٣) ، وابن القيم في « الصواعق المرسلة » انظر : « مختصره » (٢/ ٣٧٣) .

على عرشه سجد لم يرفع رأسه حتى تقوم الساعة ، فتقول الملائكة : سبحانك لم نعبدك حق عبادتك[1] .

عن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا عند النبي ﷺ ، فمرت سحابة فقال : « **ما هذا ؟** » قلنا : السحاب ، قال : « **والمزن ؟** » قلنا : والمزن ، قال : « **والعنان ؟** » قلنا : والعنان ، قال : « **تدرون ما بعد السماء إلى الأرض ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **كذا وكذا سنة ، ثم عد سبع سماوات ، وفوق ذلك بحر ، ما بين أعلاه إلى أسفله ما بين سماء إلى سماء وفوق ذلك ثمانية أوعال[2] ما بين أظلافهن وركبهن ما بين سماء إلى سماء والعرش فوق ذلك والله تبارك وتعالى فوق ذلك بعلمه على العرش** »[3] .

وعند أحمد التصريح بأن بعد ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة .

وكيف يقدر قدر العرش وهو سقف الجنة ، وأرواح الشهداء تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش .

---

(١) إسناده كلهم أئمة ثقات : أخرجه ابن المبارك في « الزهد » ، وأبو الشيخ في « العظمة » وأورده ابن القيم في « اجتماع الجيوش الإسلامية » (ص١٠٢ ـ ١٠٣) وقال : هذا الإسناد كلهم أئمة ثقات ، وأورده الذهبي في « العلو » ، وأبو أحمد العسال في كتاب « المعرفة » .

(٢) الأوعال : جمع وعل بكسر العين وهو تيس الجبل . « النهاية » (٥/ ٢٠٧) .

(٣) أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وابن أبي عاصم في « السنة » ، وابن خزيمة في كتاب «التوحيد» ، واللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » ، وابن منده في « التوحيد » .
قال الألباني في « تخريج السنة » (١/ ٢٥٤) : « إسناده ضعيف ، وعبد الله بن عمير قال الذهبي : فيه جهالة ، قال البخاري : لا نعلم له سماعًا من الأحنف بن قيس » اهـ .
وصرح الجوزقاني في « الأباطيل » (١/ ٧٩) بصحة الحديث ، ومال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (٣/ ١٩٢) ؛ وتلميذه الحافظ ابن القيم في « تهذيب السنن » (٧/ ٩٤) إلى تصحيحه .

ومن الأحاديث الثابتة في العرش حديث ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « العرش فوق الماء ، واللَّه فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[(١)] .

• قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ : « الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره »[(٢)] .

• وعن أبيّ بن كعب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**يا أبا المنذر ، أي آية في كتاب اللَّه أعظم** ؟ قلت : اللَّه ورسوله أعلم [فرددها مراراً] ثم قال [أبيّ] : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فضرب صدري وقال : «**ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش** »[(٣)] .

• وعن أبي ذر قال : قال النبي ﷺ : « **أتدري أين تغرب هذه الشمس** ؟ قلت : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « **فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش عند ربها وتستأذن** .... » أخرجه البخاري .

• عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لما قضى**

---

(١) إسناده صحيح : رواه عبد اللَّه بن الإمام أحمد في « السنة » والبيهقي في « الأسماء والصفات » وابن خزيمة والدارمي وأبو الشيخ في « العظمة » واللالكائي في « شرح أصول أعتقاد أهل السنة» ، وسنيد بن داود بإسناد صحيح كما قال ابن القيم في « جيوشه » . قال الذهبي في «العلو» : إسناده صحيح ، وقال الشيخ الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٤) : سندهم جيد .

(٢) صحيح موقوف : أخرجه ابن خزيمة في « التوحيد » ، والدارمي في « الرد على المريسي » وابن أبي شيبة في « العرش » وعبد اللَّه بن أحمد في « السنة » . قال الذهبي : رواته ثقات ، وقال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٢) : إسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات .

(٣) حديث صحيح : قال الألباني في « مختصر العلو » (ص٩٣) : حديث صحيح ، أخرجه أحمد بسند صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة دون الشطر الأخير منه ، لكن قال المنذري في « الترغيب » (٢/ ٢٢١) : رواه ابن أبي شيبة في كتابه بإسناد مسلم وزاد . . .

اللّه الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » وفي لفظ : « **إن اللّه كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو عنده فوق العرش** » وفي لفظ آخر : « **لما خلق اللّه الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو مرفوع فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي** »[١] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعداً ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان** »[٢] .

● وعن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **الرحم معلقه بالعرش ، وليس الواصل بالمكافيء**[٣] **، ولكن من إذا قطعه ذو رحم وصله** »[٤] .

● وعن جابر ـ رضي اللّه عنه ـ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم : « **اهتز لها عرش الرحمن** » رواه مسلم .

قال الذهبي : فهذا متواتر أشهد بأن رسول اللّه وسلم قاله .

---

(١) حديث صحيح : قال الألباني في « مختصر العلو » (ص٩٢) : حديث صحيح ، وبعض ألفاظه عند الشيخين ، واللفظ الأخير للترمذي ، وقد خرجته في « الصحيحه » (١٦٢٩) ، وفي «تخريج السنة » لابن أبي عاصم (٨١٠) .

(٢) صحيح : قال الألباني : أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في « تلخيصه » (٤/ ٥٥٩) وزاد : « على شرط مسلم » وهو كما قال ، وأخرجه أبو الشيخ أيضاً في « العظمة » (٧٣/ ١) .
قوله : ما طرف : أي ما غفل لحظة ترقبًا لأمر اللّه وانتظاراً له .

(٣) الذي يصل من بدأ بوصله .

(٤) سنده صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ١٦٣ ، ١٩٣) وسنده صحيح على شرط البخاري ، وقد أخرجه في « صحيحه » دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » وصححه الترمذي ، ولهذه الزيادة شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة منهم عائشة عند الشيخين . قاله الألباني في « مختصر العلو » (٩٦) .
وقال الذهبي : إسناده قوي .

• وفي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ : « **لا تخيروا بين الأنبياء ، أنا أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفي الصعقة الأولى بعث أم بعدي ؟** »[١] .

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**لا تخيّروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فإذا بموسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثنى اللَّه عز وجل**» متفق على ثبوته .

• وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو قال : « **العرش مطوّق بحيّة ، والوحي ينزل في السلاسل** »[٢] .

• قال مجاهد في « وقربناه نجيًا » قال : « بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب ، فما زال يقرب موسى حتى كان بينه وبينه حجاب ، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال : ﴿ **رب أرني أنظر إليك** ﴾[٣] .

قال الذهبي في كتابه « العلو » : « في الجنة قطعًا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته ، وقوائمه ، وماهتيه ،

---

(١) أخرجه البخاري بتمامه في موضعين (٢/ ٨٩) ، (٤/ ٣٢٧) .
(٢) قال الألباني في « مختصر العلو » (١٢٦) : إسناده حسن ، واشار الحافظ في ترجمة « البكالي » من « الإصابة » إلى هذا الأثر وقال : رويناه في « البشرانيات » . وقال الألباني أيضًا : «إسناده صحيح» أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٣/ ١ ـ ٢) ثم رأيته في « السنة » (ص١٥٠) . قال ابن عراق في « تنزيه الشريعة » : رجاله ثقات ولكن لا يستبعد أن يكون من الزاملتين .
(٣) إسناده صحيح : أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » ، وأبو الشيخ في « العظمة » .
وقال الذهبي : هذا ثابت عن مجاهد إمام التفسير ، وقال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٣٢) : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات كلهم » .

وحملته ، والكرو بيين الحافين من حوله ، وحسنه ، ورونقه ، وقيمته ؟ فقد ورد أنه من ياقوته حمراء ، ولعلّ مساحته مسيرة خمسمائة ألف عام .

لا إله إلا هو الحليم الكريم ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، لا إله إلا اللّه رب السموات السبع ورب العرش الكريم ، الحمد للّه رب العالمين ، سبحان اللّه وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه ، ورضىٰ نفسه ومداد كلماته ، ضاعت الأفكار وطاشت العقول ، وكلّت الألسنة عن العبارة عن بعض المخلوقات ، فاللّه أعلىٰ وأعظم ﴿ **آمنا باللّه واشهد بأنا مسلمون** ﴾ تبًا لذوي العقول الخائضة ، والقلوب المعطلة ، والنفوس الجاحدة ، فما قدرو اللّه حق قدره ، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون ، اللّهم بحقك عليك ، وباسمك الأعظم وكلماتك التامة ، ثبت الإيمان في قلوبنا ، واجعلنا هداة مهتدين ، نعم : ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة ، وما الكرسي في العرش العظيم إلا كحلقة في فلاة ، اسمع وتعقل ما يُقال لك وتدبر ما يلقىٰ إليك ، والجأ إلىٰ الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة .

قال اللّه تعالىٰ : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وترى الملائكة حافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **رفيع الدرجات ذو العرش** ﴾ . والقرآن مشحون بذكر العرش - وكذلك الآثار - بما يمتنع أن يكون مع ذلك أن المراد بذلك المُلك : فدع المكابرة والمراء ، فإن المراء في القرآن كفر ، ما أنا قلته بل المصطفىٰ ﷺ قاله »[1] .

---

(١) « مختصر العلو » (ص٩٩ - ١٠٠) .

إمـــام عـــادل

« من رأس العين يأتي الكدر ، وإذا صفا رأس العين صفت السواقي »

« الليث بن سعد »

إمـــام عـــادل

العدالة لغة :

« حقيقة معنىٰ العدالة التي بمعنىٰ الإنصاف يوضحها فقه اللغة ، إذ أن أسماء المعنويات كلها مأخوذ من أسماء المحسوسات ، كما قالوا في الأذان والإذن والاستئذان ، والمأذون والأذن : إن كلها يرجع إلىٰ اسم حاسة (الأذُن) فكذلك قالوا في العدل والعدالة والمعادلة والعادل كلها مأخوذة من اسم (العِدْلة) بكسر العين التي هي إحدىٰ شقي حمل البعير ، والعدالة هي تعادل شقي حمل البعير وتوازنهما ، فإذا اختل توازنهما وتفاوت ثقلهما مال الحمل إلىٰ جهة الثقل .

ومنه الميل والحيف : ضد العدل والإنصاف .

وعليه فالعادل هو الذي عدل في حكمه وسوّىٰ بين طرفي القضيّة كصاحب البعير في تسويته بين شقي حمله .

فهو وصف عام لكل من عادل بين كل متساويين ، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها أيًا كان موضوعها ، وأيًّا كان طرفاها »[1] .

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠) :

« وأحسن ما فُسِّر به العادل أنه الذي يتبع أمر اللّه بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط » .

« وقدّمه في الذكر لعموم النفع به » .

الألفاظ الواردة فيه :

١ ـ إمام عادل : رواية مالك ، وإحدىٰ روايات البخاري وعند الترمذي والنسائي .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٧) .

٢ ـ الإمام العادل : بتعريف العرفين : وهي لمسلم وإحدىٰ روايات البخاري .

٣ ـ إمام عدل : بتنكير إمام وعدْل علىٰ وزن فَعْل نعت بالمصدر ، إحدىٰ روايات البخاري ، وبعض الرواة عن مالك ، قال ابن حجر : « وهو أبلغ لأنه جعل المسمىٰ نفسه عدلاً » كأن العدل تجسّم في شخصه .

قال ابن عبد البر : « وأكثر رواة « الموطأ » في هذا الحديث إمام عادل ، وقد رواه بعضهم عَدْل وهو المختار عند أهل اللغة يقال : رجل عدل ورجال عدل وامرأة عدل وكذلك رضا سواء .

ويجوز عادل علىٰ اسم الفاعل يقال : عدل فهو عادل »[(١)] [(٢)] .

٤ ـ إمام مقسط : عزاها السيوطي لابن عساكر .

• وكل من ابن عبد البر وابن حجر يريان أن الأصل لـ (عدل) و (عادل) واحد وهو العدالة ضد الظلم .

• (عدل) و(عادل) بينهما عموم وخصوص :

قال الشيخ عطية سالم :

« الذي يظهر لي أن بينهما فرق في الأصل ، وأن بينهما عموم وخصوص .

• فالعادل من العدل الذي هو ضد الظلم كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[(٣)] ، واسم الفاعل منه عادل علىٰ وزن فاعل .

---

(١) « التمهيد » (٢/ ٢٧٩) .

(٢) « للعادل في اللغة معاني مختلفة ، منها العدول عن الحق ، ومنها الإشراك بالله عزوجل وليس هذان المعنيان من هذا الحديث في شيء » قاله ابن عبد البر في « التمهيد » (٢/ ٢٧٩) .

(٣) سورة النساء الآية (٥٨) .

● والعدل من العدالة التي هي ضد الفسق ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾[1] .

● والأول مبحثه في الحقوق والأحكام ، وقد يكون الحاكم عادلاً وهو كافر .

وعليه المثل من قول عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ لعامله علىٰ مصر « نحن أحق بالعدل من كسرىٰ » .

وقوله ﷺ في حق النجاشي : « **فإن فيها ملكاً عادلاً** » وكان ذلك قبل أن يسلم فوصفه ﷺ بأنه ملك عادل ، وقال : « **لا يُظلم أحد بجواره** » .

وعلىٰ هذا فوصف الإمام بالعدل في هذا الحديث أخص لأن العادل قد يكون مع الكفر سياسة للملك ، أما العدْل فلا يكون إلا مع الإسلام ، «فكل عدل عادل وليس كل عادل عدل »[2] .

والعدالة هي مجتمع الأخلاق الفاضلة من صدق الحديث وكرم النفس والشجاعة والعلم والأدب وفعل المأمور وترك المحظور . . .

والإمام العادل ، أي العدل في نفسه ، العادل في حكمه ، قال تعالىٰ : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[4] .

---

(١) سورة الطلاق الآية (٢) .
(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٥) .
(٣) سورة الحج الآية (٤١) .
(٤) سورة النور الآية (٥٥) .

● وهؤلاء هم الأمناء المؤدون الأمانة : سواء أمانة في الحكم أو أمانة الخلق في الحق ، فهم عدول في أنفسهم عادلون في أحكامهم .

المراد بالإمام العادل :

والمراد بالإمام العادل في هذا الحديث ، قال ابن حجر : هو صاحب الولاية العظمى ، ويلتحق به كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه .

قال ابن عبد البر : « يدخل تحت قوله عليه السلام « إمام عادل » بالمعنى دون اللفظ كل من لزمه الحكم بين اثنين » واستدل بحديث ابن عمر « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » .

وأحسن ما يفُسَّر به معنى الإمام العادل : الذي جمع الأمرين العدالة في نفسه والعدل في حكمه ، هو الذي يتبع أمر اللَّه فيضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط ، ولا تأخذه في اللَّه لومه لائم .

عموم النفع بالإمام العادل ... « إذا صفا رأس العين صفت السواقي »

والإمام العادل هو أحد الأفراد الذين قاموا بالعدل في أحكامهم وتصرفاتهم ، ولكنه خُصّ بالنص هو بالذات لأهميته ، وخطر منصبه ، وعموم صلاحياته ، وإذا طاب الأصل طاب الفرع . . « ومن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي » كما قال الليث بن سعد لهارون الرشيد .

أولاً : لأن عدله يشمل كل الرعية ، وشمول عدله سواء في الحكم والعطاء والحفاظ والعناية بالأمة كلها ، ومراعاة مصالح العامة والخاصة .

ثانيًا : بعدله سيردّ المظالم ، ويمنع وقوع الظلم ، ويكون الناس عنده سواء .

ثالثًا : سيقوم بعدله بتنفيذ حكم اللَّه في خلق اللَّه ، ويحكّم كتاب اللَّه كما شرع اللَّه ، وهذا هو مناط عدالة الإمام .

ومجمع القول في ذلك أن يقال : عدالة الإمام هي تنفيذ عدالة السماء في الأرض وذلك بتطبيق كتاب اللَّه على عباد اللَّه .

وقد جاء عن الإمام أحمد - رحمه اللَّه - بيان هذا المعنى بقوله : « لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان ، لأن بصلاحه صلاح الأمة » .

* * *

الإمام العادل :

الإمام العادل زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقِوَام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا ، وهو حمى اللَّه في بلاده ، وظله الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم ، واللَّه عز وجل يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

ومتى « سلم السلطان من الحيف لم يزاحم في فضيلته ، وتزيد مرتبة السلطان العادل على قوّام الليل وصوّام النهار ، لأن نفع أولئك لا يتعداهم ونفعه يتعدى ، إذ بنظره يتعبد المتعبدون ، ويسافر التاجرون ، ويشتغل بالعلم المتعلمون ، فكأنه عَبَد اللَّه بعبادة الكل »[1] .

قال الثوري : « صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة : السلطان والعلماء »[2] .

قال اللَّه تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

---

(١) « الشفاء من مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٤٣) تحقيق فؤاد عبد المنعم نشر مؤسسة شباب الجامعة .

(٢) « حلية الأولياء » للأصبهاني (٧/ ٥) .

بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[١] .

قال ابن القيم : « قسّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله اللَّه على رسوله ، وإلى الهوى وهو ما خالفه »[٢] .

قال ابن كثير : « هذه وصية من اللَّه عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله ، وقد توعد تعالى من ضلّ عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد »[٣] .

● والعدل الذي يطالب الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس طرف من الحق الذي يقوم عليه ناموس اللَّه في خلق الكون الذي قامت عليه السماء والأرض ، وما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنة اللَّه وناموس الكون وطبيعة الوجود .

قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[٤] .

قال ابن القيم : « أنزل اللَّه كتابه وأنزل الميزان وهو العدل ليقوم الناس بالقسط »[٥] .

---

(١) سورة ص الآيتان (٢٦ ـ ٢٧) .
(٢) « إعلام الموقعين » لابن قيم الجوزية (١/ ٨١) .
(٣) « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٧/ ٥٤) طبع ـ الشعب .
(٤) سورة الحديد الآية (٢٥) .
(٥) « مفتاح دار السعادة » (٣٣٦) .

« ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل فالتوحيد أعدل العدل والشرك أظلم الظلم »[١] .

هذا الميزان الذي أنزله اللّه مع الكتاب وفي الكتاب « يقيم حياة الناس في مأمن من اضطراب الأهواء ، واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع .

ميزانًا لا يحابي أحدًا ، هذا الميزان هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات ، يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة[٢] .

نداء علوي جميل للأمة التي لها القوامة والشهادة على البشرية:

قال اللّه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٤] .

« إنه نداء للذين آمنوا ، نداء لهم بصفتهم الجديدة ، وهي صفتهم

---

(١) « الجواب الكافي » بتصرف (ص١٩٠) .
(٢) « في ظلال القرآن » لسيد قطب (٦/ ٣٤٩٤) بتصرف دار الشروق .
(٣) سورة البقرة الآية (١٤٣) .
(٤) سورة النساء الآية (١٣٥) .

الفريدة ، صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرىٰ ، وولدوا ميلادًا آخر ، ولدت أرواحهم ، وولدت تصوراتهم ، وولدت مبادئهم وأهدافهم ، وولدت معهم المهمة الجديدة التي تناط بهم ، والأمانة العظيمة التي وكلت إليهم ، أمانة القوامة علىٰ البشرية ، والحكم بين الناس بالعدل ، ومن ثم كان للنداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه .

وكان التكليف بهذه الأمانة الكبرىٰ تكليفًا شاقًا ثقيلاً .

إنها أمانة القيام بالقسط . . . بالقسط علىٰ إطلاقه في كل حال وفي كل مجال ، القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه .

﴿ **كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله** ﴾ . . .

حسبة للَّه ، وتجردًا من كل ميل ، ومن كل مصلحة ، ومن كل اعتبار

﴿ **ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾ . . .

وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها ، تجاه ذاتها أولاً ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا ، وهي محاولة شاقة . . . أشق كثيرًا من نطقها باللسان ، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل . . . ولكن المنهج يجنِّد النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة . . . لأنها لابد أن توجد في الأرض هذه القاعدة ، ولابد أن يقيمها ناس من البشر .

ثم هو يُجنِّد النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيرًا ، تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له ، معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية .

وحين يكون المشهود له أو عليه غنيًا ، تقضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته ، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده ! وهي مشاعر فطرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع . . . والمنهج يجنِّد النفس تجاهها كذلك كما جنَّدها تجاه حب الذات وحب الوالدين والأقربين .

﴿ **إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما** ﴾ .

وهي محاولة شاقة . . . ولا نفتأ نكرر أنها محاولة شاقة . . . وأن الإسلام حين دفع نفوس المؤمنين ـ في عالم الواقع ـ إلىٰ هذه الذروة ، التي تشهد بها تجارب الواقع التي وعاها التاريخ ، كان ينشيء معجزة حقيقية في عالم البشرية ، معجزة لا تقع إلا في ظل المنهج الإلهي العظيم القويم .

﴿ **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾ .

والهوىٰ صنوف شتىٰ . . . حب الذات هوىٰ ، وحب الأهل والأقربين هوىٰ ، والعطف علىٰ الفقير ـ في موطن الشهادة والحكم ـ هوىٰ ، ومجاملة الغني هوىٰ ، وكراهة الأعداء ـ ولو كانوا أعداء الدين ـ في موطن الشهادة والحكم هوىٰ ، وأهواء شتىٰ الصنوف والألوان . . . كلها مما ينهىٰ اللَّه الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدل عن الحق والصدق تحت تأثيرها .

وأخيرًا يجيء التهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشهادة ، والإعراض عن هذا التوجيه فيها . . . ﴿ **وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ ويكفي أن يتذكرالمؤمن أن اللَّه خبير بما يعمل ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير ، يرتجف له كيانه ، فقد كان اللَّه يخاطب بهذا القرآن المؤمنين »[1] .

---

(١) « في ظلال القرآن » لسيد قطب (٢/ ٧٧٥ ـ ٧٧٦) ـ دار الشروق .

وقال تعالىٰ : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٢) .
(٢) سورة الحجرات الآية (٩) .
(٣) سورة الشورىٰ الآية (١٥) .
(٤) سورة المائدة الآية (٨) .
(٥) سورة النساء الآية (٥٨) .
(٦) سورة النحل الآية (٧٦) .

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[(١)] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص - رضي اللَّه عنهما - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا**[(٢)] »[(٣)] .

وعن سلمان - رضي اللَّه عنه - قال : « سبعة يظلهم اللَّه في ظل عرشه يوم القيامة : رجل إذا ذكر اللَّه خاليًا فاضت عيناه ، ورجل أفنى شبابه ونشاطه في عبادة اللَّه ، ورجل قلبه معلَق بالمساجد من حبها ، ورجل تصدّق بيمينه ، وكان يخفيها من شماله ، ورجلان التقيا ، فقال كل واحد منهما : إني أحبك في اللَّه تصادرًا على ذلك ، ورجل أرسلت إليه امرأة ذات منصب تدعوه إلى نفسها ، فقال : إني أخاف اللَّه ، وإمام مقتصد »[(٤)] .

وعن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **ثلاثة لا يـــرد الله دعاءهم : الذاكر اللّه كثيراً ، والمظلوم ، والإمام المقسط** »[(٥)] .

وعن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول

---

(١) سورة النحل الآية (٩٠) .

(٢) وَلُوا ، وأيضًا أتى الضبط هكذا « وما وُلُّوا » .

(٣) رواه مسلم وأحمد والنسائي .

(٤) إسناده حسن : رواه سعيد بن منصور في « سننه » ، وحسّن إسناده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٢/ ٤٤) .

(٥) حسن : رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٢١١) و«صحيح الجامع» رقم (٣٠٦٤) .

في بيتي هذا : « **اللّهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به** »(١) .

وكفى منقبة وفضلاً للإمام العادل أن إجلاله من إجلال اللّه وطاعته طاعة لرسول اللّه ﷺ .

قال رسول اللّه ﷺ : « **مَن أجلَّ سلطان اللّه ، أجله اللّه يوم القيامة** »(٢) .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **من أهان سلطان اللّه في الأرض ، أهانه اللّه**»(٣) .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **من أطاعني فقد أطاع اللّه ، ومن عصاني فقد عصى اللّه ، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعصي الأمير فقد عصاني** »(٤) .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **إنما الإمام جُنّة يقاتَل من ورائه ، ويُتّقَى به ، فإن أمر بتقوى اللّه وعدل فإن له بذلك أجراً ، وإن أمر بغيره فإنّ عليه وزراً** »(٥) .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم ؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتدعون لهم ويدعون لكم ، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم** »(٦) .

وقال رسول اللّه ﷺ : «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون**

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) حسن : رواه الطبراني عن أبي بكرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٢٨) ، و«الصحيحة» (٢٢٩٨) : حم ، وابن أبي حاتم .

(٣) حسن : رواه الترمذي عن أبي بكرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٨٧) ، و«الصحيحة» (٢٢٩٦) : الطيالسي ، حم .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٩٦) .

عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم »[١] .

قالت الحكماء : إمام عادل ، خير من مطر وابل ، وإمام غشوم خير من فتنة تدوم ، ولما يزعُ اللَّه بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

فحق على من قلده اللَّه أمّة حكمه ، وملّكه أمورخلقه ، واختصه بإحسانه ، ومكّن له في سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه اللَّه عز وجل من الكرامة ، وأجرىٰ له من أسباب السعادة ، قال اللَّه عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾[٢] .

قال كعب الأحبار : « مَثَل الإسلام والسلطان والناس ، مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد ، فالفسطاط : الإسلام ، والعمود : السلطان، والأطناب والأوتاد : الناس ، ولا يصلح بعضها إلا ببعض » .

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاةَ لهم ... ولا سراةَ إذا جُهّالهم سادوا

والبيت لا يُبتنى إلا له عَمَدٌ ... ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ

فإنْ تجمّع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا

* * *

(١) رواه مسلم عن عوف بن مالك .
(٢) سورة الحج الآية (٤١) .

• وصلاح الرعية بصلاح الإمام :

قالت الحكماء : الناس تبع لإمامهم في الخير والشر .

وقال ابن القيم : أعمالكم عُمّالكم ، فإن ولاتنا من جنس أعمالنا .

وقال أبو حازم الأعرج : الإمام سُوق ، فما نفق عنده جُلِب إليه .

وقالوا : إذا صلحت العين صلحت سواقيها .

وقالوا : لا سلطان إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وأسوس الناس لرعيته ، من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبها بخواطرها ، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة .

والمُلْك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالمُلْك أُسٌّ والعدل حارس ، والبناء ما لم يكن له أس فمهدوم ، والملك ما لم يكن له حارس فضائع .

وخير الملوك من إذا وَلِيَ لم يُطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم ، فالمحسن راج والمسيء خائف .

ولا يصلح لهذا الأمر إلا اللَّيِّن من غير ضعف ، والقويّ من غير عنف .

قال سعيد بن سُويد بحمص : أيها الناس إن للإسلام حائطًا منيعًا ، وبابًا وثيقًا ، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ، ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضربًا بالسوط ، ولكن قضاءً بالحق وأخذًا بالعدل .

* * *

• وصف الحسن البصري ـ الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء ـ للإمام العادل :

كتب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ لّما ولي الخلافة إلىٰ الحسن بن أبي الحسن البصـري ، أن يكتب إليه بصفـة الإمـام العادل ، فكتب إليه الحسن ـ رحمه اللَّه ـ : « اعلم يا أمير المؤمنين ، أن اللَّه جعل **الإمام العادل** قِوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالراعي الشفيق علىٰ إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويُكنها من أذىٰ الحرّ والقرّ .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأب الحاني علىٰ ولده ، يسعىٰ لهم صغاراً ، ويُعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كُرها ، ووضعته كرها ، وربّته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، تُرضعه تاره وتفطمه أخرىٰ ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ وصي اليتامىٰ ، وخازن المساكين ، يربُي صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ هو القائم بين اللَّه وبين عباده ، يسمع كلام اللَّه ويُسمعهم ، وينظر إلىٰ اللَّه ، ويُريهم ، وينقاد إلىٰ اللَّه ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك اللَّه عز وجل كعبد ائتمنه سيّده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال وشرّد العيال ، فأفقر أهله وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن اللَّه أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ؟! وأن اللَّه أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويُفارك أحباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ﴾(١) .

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ **أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ** ﴾(٢) .

فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد اللَّه بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فأنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزاراً مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك .

---

(١) سورة عبس الآية (٣٤ : ٣٦) .
(٢) سورة العاديات الآيتان (٩ ، ١٠) .

ولاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي اللَّه في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحي القيوم .

إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم آلُك شفقة ونصحًا ، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه اللَّه وبركاته »[١] .

* الترهيب من الإمارة وظلم وغش الرعية :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة ، وما هي ؟ أولها ملامة، وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا مَنْ عدل** »[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنكم ستحرصون على الإمارة ، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة ، فنِعْمِ العِرافة المرضعة وبئست الفاطمة** »[٣] ،[٤] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه تعالى سائل كل راع عما استراعاه ، أحفظ ذلك أم ضيّعه ؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته** »[٥] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **العرافة أولها ملامة ، وآخرها ندامة** ،

---

(١) «العقد الفريد» (١/ ٣٥-٣٦) .

(٢) حسن : رواه الطبراني عن عوف بن مالك وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٥٦٢) ، وفي « صحيح الجامع » رقم (١٤٣٣) .

(٣) المرضعة : مثل للإمارة وما توصله لصاحبها من المنافع ، والفاطمة : مثل للموت الذي يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها .

(٤) رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) حسن : رواه النسائي وابن حبان في « صحيحه » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٧٧٠) ، و« الصحيحة » رقم (١٦٣٦) .

والعذاب يوم القيامة »[1] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوام وُلُّوا هذا الأمر أنهم خروا من الثريا، وأنهم لم يَلُوا شيئاً »**[2] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ليودَّنَّ رجل أنه خرّ من عند الثريا ، وأنه لم يَلِ من أمر الناس شيئاً »**[3] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ليوشكنَّ رجل أن يتمنَّى أنه خرَّ من الثريا ولم يل من أمر الناس شيئاً »**[4] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من أمير عشرة ، وإلا وهو يُؤتى به يوم القيامة مغلولاً ، حتى يفكّه العدل ، أو يوبقه الجور »**[5] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من أمير عشرة ، إلا وهو يُؤتى به يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه »**[6] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك ، إلا أتى اللَّهَ مغلولاً يدُه إلى عنقه ، فكّه برُّه أو أوثقَهُ إثمه ، أولها ملامة ، وأوسطها ندامة ، وآخرها خزي يوم القيامة »**[7] .

---

(١) حسن : رواه الطيالسي عن أبي هريرة ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٠٠٧) .

(٢) حسن : رواه أحمد في « مسنده » عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٢٣٦) ، و« الصحيحة » (٣٦١) .

(٣) حسن : الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٦١) ، و« الصحيحة » (٣٦١) .

(٤) حسن : الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٦٢) ، و« الصحيحة » (٣٦١) .

(٥) صحيح : البيهقي في « سننه » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٥٧١) ، و« الصحيحة » رقم (٣٤٤) .

(٦) صحيح : البيهقي في « سننه » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٥٧٢) .

(٧) حسن : أحمد في « مسنده » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم =

• الإمام العادل أبعد شيء عن ظلم الناس لعلمه بعاقبته :

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أربعة يبغضهم اللَّه تعالى : البيّاع الحلاّف ، والفقير المختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجائر** »[1] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أشد الناس عذابًا للناس في الدنيا ، أشد الناس عذابًا عند اللَّه يوم القيامة** »[2] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أشد الناس يوم القيامة عذابًا إمام جائر** » [3] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أخاف عليكم ستًا : إمارة السفهاء ،وسفك الدماء، وبيع الحُكْم ، وقطيعة الرحم ، ونشوًا يتخذون القرآن مزامير ، وكثرة الشُّرَط**»[4] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»[5] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن شر الرِّعاء الحُطَمَة** »[6] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أيما راع غش رعيته فهو في النار** »[7] .

= (٥٥٩٤) ، و« الصحيحة » رقم (٣٤٨) .

(١) صحيح : رواه النسائي والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٩٣) ، و« الصحيحة » رقم (٣٦٢) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والبيهقي في « شعب الإيمان » عن خالد بن الوليد ، والحاكم في «المستدرك» عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٠٠٩) ، و« الصحيحة » رقم (١٤٤٢) .

(٣) حسن : رواه أبو يعلى في « مسنده » والطبراني في « الأوسط » وأبو نعيم في « الحلية » عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٠١٢) .

(٤) صحيح : رواه أحمد والطبراني في « الكبير » عن عوف بن مالك ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢١٦) ، و« الصحيحة » رقم (٩٧٩) .
ونشوا : أي الناشئون الصغار .

(٥) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والطبراني في « الكبير » عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٥٤٧) ، و« الصحيحة » رقم (١٥٨٢) .

(٦) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ومسلم عن عائذ بن عمرو .

(٧) صحيح : رواه ابن عساكر عن معقل بن يسار ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم =

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاث أخاف على أمتي : الاستسقاء بالأنواء ، وحيف السلطان ، وتكذيب بالقدر** »(١) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاثة لا يكلمهم اللّه يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر**»(٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي : إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق** »(٣) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من أمير يلي أمر المسلمين ، ثم لا يَجْهد لهم وينصح ، إلا لم يدخل معهم الجنة** »(٤) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من عبد يسترعيه اللّه رعية ، يموتُ يوم يموت، وهو غاش لرعيته ، إلا حرّم اللّه عليه الجنة** »(٥) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**ما من إمام أو وال ، يَغلقُ بابهُ دون ذوي الحاجة والخَلة ، والمسكنة ، إلا أغلق اللّه أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته** »(٦) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من ولي من أمور المسلمين شيئاً ، فاحتجب دون**

= (٢٧١٠) ، و« الصحيحة » رقم (١٧٥٧) : حم ، م .

(١) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والطبراني في « الكبير »عن جابر بن سمرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠١٩) ، و« الصحيحة » رقم (١١٢٧) : غ ، ابن أبي عاصم ، طب ، طص ، عم .

(٢) صحيح : رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة .

(٣) حسن : الطبراني في « الكبير » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٩٢) ، و« الصحيحة » رقم (٤٧٠) .

(٤) صحيح : رواه مسلم عن معقل بن يسار .

(٥) صحيح : رواه البخاري ومسلم عن معقل بن يسار .

(٦) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والترمذي عن عمرو بن مرة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٦١) ، و« الصحيحة » رقم (٦٣٠) .

خلتهم ، وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب اللَّه عنه يوم القيامة ، دون خلته، وحاجته ، وفاقته ، وفقره »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لعن اللَّه الراشي والمرتشي في الحكم** »[٢] .

* الإمام العادل قدوته وأسوته رسول اللَّه ﷺ :

الإمام العادل يضع نصب عينيه قول رسول اللَّه ﷺ **وهو القدوة والأسوة: « إني لأرجو أن أفارقكم ولا يطلبني أحد منكم بمظلمة ظَلَمته »**[٣] .

وعن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه تعالى هو : الخالق ، القابض ، الباسط ، الرازق ، المسعِّر ، وإني لأرجو أن ألقى اللَّه ، ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال** »[٤] .

أكرم بـه هادياً لولا هدايتـــه   لم يظهر العدل في أرض ولم يقم

بأبي وأمي رسول اللَّه ﷺ إذ يقول :

« **أما بعد ، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » .

● وروى البخاري عنه قوله ﷺ : « **إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعلّ**

---

(١) صحيح : لأبي داود وابن ماجه والحاكم في « المستدرك » عن أبي مريم الأزدي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٤٧١) ، و« الصحيحة » رقم (٦٢٩) .

(٢) صحيح : أحمد في « مسنده » والترمذي والحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٩٦٩) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، ورواه أحمد ، والطبراني في « الأوسط » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٤٨٠) .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والبيهقي في «سننه»، وصححه الألباني في « غاية المرام » (٣٢٣) و« صحيح الجامع » رقم (١٨٤٦) .

بعضكم أن يكون ألحن من بعض ، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » .

● ويقدم أعدل الناس ﷺ نفسه للقصاص :

فبينما كان رسول اللَّه ﷺ يعدل صفوف جيشه ، مرّ بسواد بن غزية ، وهو خارج عن الصف فطعن في بطنه بعود كان في يده قائلاً : « **استو يا سواد**» ، وهنا قال سواد : أوْجعتني يا رسول اللَّه ، وقد بعثك اللَّه بالحق والعدل ، ثم طلب من الرسول ﷺ أن يعطي القصاص من نفسه قائلاً : أقدني ، فلم يتردد ﷺ ، وكشف عن بطنه ﷺ ليقتص منه سواد قائلاً له : «**استقد**» .

ولكن سواد بدلاً من أن يطعن في بطن الرسول قصاصًا ، أخذ يقبّلها ، فقال له الرسول ﷺ : « **ما حملك على هذا يا سواد ؟** » .

قال : يا رسول اللَّه حضر ما ترىٰ - يعني القتال - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك ، فدعا له الرسول ﷺ بخير[١] .

● وقضيته مع ابن عباس وأبي بكر - رضي اللَّه عنهما - ، هذا غلام وذاك شيخ له منزلته وصحبته ، فكان ابن عباس عن يمينه وأبو بكر عن يساره ، فأتىٰ ﷺ بقدح فشرب ، ومن حق العطاء لمن علىٰ اليمين ، فلم يقدم أبا بكر مع طول صحبته وعلو منزلته وعظيم مِنَنه علىٰ ابن عباس مع حداثة سنّه ، ولكن قال لابن عباس : « **الحق لك ، ولكن هل تأذن لأبي بكر فيشرب قبلك؟** » فيقول ابن عباس : واللَّه لا أوثر علىٰ سؤرك أحدًا يا رسول اللَّه . فيناوله فيشرب قبل أبي بكر .

ولقد أمر رسول اللَّه ﷺ بالعدل مع عامة الناس وخاصتهم حتىٰ الوالد

(١) « سلسلة معارك الإسلام الفاصلة » - غزوة بدر - لمحمد أحمد بشاميل (ص١٥٦ - ١٥٧) - دار الفكر .

في ولده فقال : « **اتقوا اللَّه واعدلوا بين أولادكم في العطاء** » .

وأمر الزوج بالعدل بين الزوجات ، بل أمر الإنسان نفسه أن يعدل بين نفسه فإذا انقطعت شراك إحدىٰ نعْليه خلع الأخرىٰ ، وقال : « **لينعلهما معًا أو ليحفهما معًا** »[1] .

* الإمام العادل من يدعو إلى التوحيد ويطهر بلاده من الشرك ويقيم حدود اللَّه :

ولما كان التوحيد هو أعظم القسط ورأس العدل وأعدل العدل كان من صفة الإمام العادل الدعوة إليه وإلىٰ عقيدة أهل السنة والجماعة ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وعليه أن يطهر بلاده من البدع وأهلها ويقمع باطلهم بما كان عليه صحابة رسول اللَّه ﷺ والقرون الخيرية ورد الأمر إلىٰ ما كان عليه في الصدر الأول .

قال عمر بن عبد العزيز : لولا سنة أُحييها أو بدعة أُميتها ، لما باليت أن لا أعيش فواقًا » .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : لو كان كل بدعة يميتها اللَّه علىٰ يدي ، وكل سنة ينعشها اللَّه علىٰ يدي ببُضعة من لحمي ، حتىٰ يأتي آخر ذلك علىٰ نفسي ، كان في اللَّه يسيرًا .

وقال أحمد بن حنبل : « إن اللَّه تعالىٰ يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن وينفي عن رسول اللَّه ﷺ الكذب ، فنظرنا ، فإذا في رأس المائة الأولىٰ عمر بن عبد العزيز .

قال ابن الجوزي عن الإمام العادل : « ينبغي أن لا يخلي مجلسه من كبار العلماء الأخيار الأفاضل الذين يخافون اللَّه فإن ذلك زيادة في دينه

---

(١) « ظلال عرش الرحمن » (ص٨٨) .

ودنياه ولا يعمل شيئًا إلا بفتواهم »[١] .

والإمام العادل من أقام حدود اللَّه ، قال ﷺ : « **إقامة حد من حدود اللَّه خير من مطر أربعين ليلة في بلاد اللَّه** »[٢] .

وقال ﷺ : « **حدّ يُعمل في الأرض ، خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا** »[٣] .

وقال ﷺ : « **أقيموا حدود اللَّه تعالى في البعيد والقريب ولا تأخذكم باللَّه لومة لائم** »[٤] .

وقال ﷺ : « **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** »[٥] .

والإمام العادل لا يحابي في إقامة الحدود ، نبراسه قول النبي ﷺ لحبه وابن حبه أسامة بن زيد : « **يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود اللَّه ؟** »[٦] .

وقوله ﷺ : « **من حالت شفاعته دون حد من حدود اللَّه فقد ضاد اللَّه في أمره** »[٧] الحديث .

---

(١) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٥٧) .
(٢) حسن : رواه ابن ماجه عن عبد اللَّه بن عمر ، و حسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١٥٠) ، و« الصحيحة » رقم (٢٣١) .
(٣) حسن : رواه ابن ماجه والنسائي عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣١٢٥) ، و« الصحيحة » رقم (٢٣١) .
(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٢٠١) ، و« الصحيحة » رقم (٦٣٨) .
(٥) صحيح : البخاري ومسلم عن عائشة .
(٦) رواه البخاري ومسلم عن عائشة .
(٧) صحيح : لأبي داود والطبراني في « الكبير » والحاكم والبيهقي في « السنن » عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٧٣) ، و« الصحيحة » رقم (٤٣٨) .

والإمام العادل يلتزم آداب الشرع في التعزير قال ﷺ : « **لا عقوبة فوق عشر ضربات إلا في حدّ من حدود الله** »[١] ، وقال ﷺ : « **لا تعزروا فوق عشرة أسواط** »[٢] .

قال ابن الجوزي : « وليحذر السلطان من العمل بالهوىٰ والغضب أو يجري علىٰ قانون العادة فيما كان من قبله يفعل ، فإن خلقا من الأمراء يقطعون يد من لا يجوز قطعه ، ويقتلون من لا يجوز قتله ، ويسمون ذلك سياسة وهذا انتقاد علىٰ الشرع معناه : أن الشرع قاصر وأنه ما ورد بما يكفي من الردع فنحن نضم إليه برأينا هذا .

وهذا من أقبح الأشياء ، بل الشريعة هي السياسة »[٣] .

وقال ابن الجوزي : « إن الشريعة سياسة إلهية ومحال أن يقع في سياسة الإله خلل يحتاج معه إلىٰ سياسة الخلق ، قال الله عز وجل : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** ﴾[٥] .

فمدعي السياسة مدّعي الخلل في الشريعة وهذا يزاحم الكفر »[٦] .

* * *

---

(١) صحيح : رواه البخاري عن رجل .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي بردة بن نيار .
(٣) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٥٨ ، ٥٩) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٣٨) .
(٥) سورة الرعد الآية (٤١) .
(٦) « تلبيس إبليس » لابن الجوزي (ص١٢٩) .

نور الدين محمود زنكي مثل يُحتذى به في التزام حدود الشرع وعدم تعدّيها :

« كان نور الدين لما صارت له الموصل ، قد أمر كمشتكين شحنة[1] الموصل أن لا يعمل شيئًا إلا بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئًا إلا بأمر الشيخ عمر الملاّء .

فكان لا يعُمل بالسياسة وبطُلت الشحنكية ، فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين : قد كثر الزعار وارتاب الفساد ، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب ، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك فقال لهم : أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر الملاّء يكتب إليه فحضروا عنده وذكروا له ذلك فكتب إلى نور الدين وقال له : إن الزعار والمفسدين وقطّاع الطريق قد كثروا ونحتاج إلى نوع سياسة ، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرْب وإذا أخذ أموال الإنسان بالبرّية ، من يجيء يشهد له ؟ فقلب نور الدين - رحمه اللَّه - كتابه وكتب على ظهره : إن اللَّه تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم ، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن المصلحة في زيادة الشريعة لشرعه فما حاجة إلى زيادة على ما شرعه اللَّه ؟ فجمع الشيخ عمر الملاّء أهل الموصل وقال : انظروا كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد»[2] .

حالت لفقدكم أيامنا فغـــدت ... ســـودا وكانت بكم بيضا ليالينا

ليسُق عهدكم عهد الســـرور ... فما كنتم لأرواحنـــا إلا رياحينـــا

---

(١) رئيس الشرطة .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير ، و« عيون الروضتين في أخبار الدولتين » .

الإمام العادل يتفقد أحوال رعيته وخواصه :

اعلم أن رعية الإمام علىٰ نوعين : خواص وعوام ، فينبغي أن يكون التفقد لأحوال الخواص أكثر لأنهم كالأدوات والآلات فمثلهم كمثل الأعضاء والسلطان كالقلب ، وإنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه ومتىٰ نزلت آفة بعضو لم يأمن تعدّيها إلىٰ القلب ومتىٰ علم ولاة السلطان أنه يقصد شيئًا فإنه كالسوق مهما نفق فيه جلب إليه فإن رأوه يحب العدل عدلوا .

عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : رأيت أبا بكر عمرو بن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر بن عبد العزيز إياه .

وكان الجراح بن عبد اللَّه عامل عمر بن عبد العزيز علىٰ خراسان كلها ، فكتب إليه عمر : « بلغني أنك استعملت عمارة ، ولا حاجة لي بعمارة ، ولا بضرب عمارة ولابرجل قد صبغ يده في دماء المسلمين فاعزله » .

وكتب إليه عدي بن أرطاة : « من عدي بن أرطاة : أما بعد أصلح اللَّه أمير المؤمنين ، فإن قبلي أناسًا من العمال قد اقتطعوا من مال اللَّه عز وجل مالاً عظيمًا ، ليست أرجو استخراجه من أيديهم ، إلا أن أمسهم بشيء من العذاب ، فإنْ رأىٰ أمير المؤمنين ـ أصلحه اللَّه ـ أن يأذن لي في ذلك ، أفعل .

فأجابه : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر ، كأني لك جُنة من عذاب اللَّه ، وكأن رضائي عنك يُنجيك من سخط اللَّه عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول ، فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقرّ لك بشيء فخذه بما أقرّ به ، ومنْ أنكر فاستحلفه باللَّه العظيم وخلّ سبيله ، وايم اللَّه ، لأنْ يلقوا اللَّه عز وجل بخياناتهم ، أحب إليّ من أن ألقىٰ اللَّه بدمائهم والسلام .

الإمام العادل يُسهّل الإذن للعوام :

فإن علم النواب بذلك يكفّهم عن ظلم العوام ، وشدة الحجاب توجب انبساط النواب في الرعية كما قال المأمون : ما انفتق عليّ فتق إلا رأيت سببه من العمّال .

انظروا إلىٰ نور الدين محمود زنكي ، فقد بنىٰ هذا السلطان العادل داراً للعدل ، وكان سبب بنائها أن أمراءه وقوّاد جيوشه تعدّوْا علىٰ من يجاورهم، فكثرت الشكاوىٰ إلىٰ القاضي كمال الدين فأنصف بعضهم ، ولم يتجرأ علىٰ القائد أسد الدين شيركوه ، فلما سمع نور الدين بذلك ، بنىٰ هذه الدار ، وأحسن نور الدين بهذا ، فقال لنُوّابه : واللَّه لئن أُحضرْتُ إلىٰ دار العدل بسبب أحدكم ، لأصلبنه ، فامضوا إلىٰ كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال[1] معه ، فقالوا : إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب ، فقال : خروج أملاكي عن يدي أسهل علّي من أن يراني نور الدين بعين أبيٍّ ظالم .

وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع ، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد للَّه شكرًا ، و قال الحمد للَّه الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[2] .

قال الفضيل : « لو كانت عندي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في الإمام، فإنه إذا صلح الإمام صلحت البلاد وأمن العباد ، فقام ابن المبارك فقبّل رأسه، وقال : أحسنت يا معلم الخير »[3] .

---

(١) أي انهوا المشكلة بأي طريقة .

(٢) « عيون الروضتين في أخبار الدولتين » (١ / ٨) .

(٣) «الحكمة الخالدة » لابن مسكويه .

فانظر إلىٰ هذه المعدلة ما أحسنها ، وإلىٰ هذه الهيبة ما أعظمها ! ! .

الإمام العادل يضع كل شيء في موضعه اللائق به :

قال الغزالي : « ربما ظن الناس أن الظلم هو الإيذاء ، والعدل هو إيصال النفع إلىٰ الناس وليس كذلك ، بل لو فتح الملك خزائنه المشتملة علىٰ الأسلحة والكتب وصنوف الأموال ولكنه فرق الأموال علىٰ الأغنياء ، ووهب الأسلحة علىٰ أهل العلم ، وسلّم إليهم القلاع ، ووهب الكتب للأجناد وأهل القتال ، وسلّم إليهم المساجد والمدارس ، فقد نفع ، ولكنه ظلم إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق به »[1] .

لله در شوقي حين يقول :

خلائف اللّه جلُّوا عن موازنــــة ... فلا تقيسـنَّ أمـلاك الـــورى بهـمِ

مَن في البرية كالفاروق مَعْدَلــةً ... وكابــن عبـد العزيز الخاشع الحشم

وما بـــلاء أبي بــكر بمتَّهـــم ... بعد الجلائــل في الأفعــال والخـدم

بالحزم والعزم حاط الذين في محن ... أضلـت الحِلمْ من كهــل ومُحْتلَـمِ

* * *

الصديق الأكبر القريب والبعيد عنده سواء : (حالب شياه اليتامى)

كان ـ رضي اللّه عنه ـ يقول : « إن أقواكم عندي الضعيف حتىٰ آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتىٰ آخذ منه الحق »[2] .

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ وهو يعدّد مناقب الصديق بعد وفاته : « لم يكن لأحد فيك مهمز ولا لقائل فيك مغمز ، ولا فيك

---

(١) « له الأسماء الحسنىٰ » (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤) ، للدكتور أحمد الشرباصي ـ دار الجيل بيروت .
(٢) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » (ص٨٠) ، و« صفة الصفوة » (١/ ٢٦٠) .

طمع ، ولا عندك هوادة لأحد ، الضعيف الذليل عندك قوي حتى تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ذليل حتى يؤخذ منه الحق ، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء »[١] .

• لو لم يكن للصديق إلا ثباته وحمايته لدين اللَّه في أيام الردة لكفاه منقبة تنقطع دونها أعناق البشر جميعًا .

• ومن في الناس كأبي بكر وعمر اللذين قال فيهم رسول اللَّه ﷺ : «**هذان السمع والبصر**» يعني أبا بكر وعمر[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا عليّ** » يعني أبا بكر وعمر[٣] .

فهما مبرّزان في العدالة ، وكذا ذي النورين وأمير المؤمنين علي - رضي اللَّه عنهم جميعًا .

• ومن عدل الصديق : أنه سوّىٰ بين رعيته في العطاء وقسمة المال ، واعتبر أن سابقة بعضهم في الخيرات إنما يثاب عليها في الدار الآخرة .

عن عائشة - رضي اللَّه عنها - : « قسم أبي أول عام الفيْء ، فأعطى الحُرّ عشرة ، وأعطى المملوك عشرة ، والمرأة عشرة ، وأمَتها عشرة ، ثم قسّم في العام الثاني ، فأعطاهم عشرين عشرين »[٤] .

---

(١) « مجمع الزوائد » (٩/ ٤٨) للهيثمي .

(٢) صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم في « المستدرك » عن عبد اللَّه بن حنطب ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٠٠٤) ، و« الصحيحة » رقم (٨١٤) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٠٠٥)، و« الصحيحة » رقم (٨٢٢) .

(٤) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٣) .

وقال سهل بن أبي حثمة ـ رضي اللّه عنه ـ : قدم مال في خلافة الصديق، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقرًا نُقر ؛ فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا ، وكان يسوّي بين الناس في القسم ، الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير فيه سواء »[١] .

للّه در أبي بكر من إمام عظيم متفوّق لم تفلت منه مَزيّة ، ولم تغب عنه فضيلة ، يقول هذه الكلمات المعجزات في مستهل حكمه ، ينطق كل حرف منها بالحكمة والقسطاس .

للّه دره كم كان ولاؤه لتطبيق هدي نبيه ﷺ حرفيًا حتى في الظروف التي تجيش فيها العواطف وهو أرق الناس أفئدة .

لقد كُتب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امتحن فيها ولاؤه للعدل وهدي نبيه امتحانًا عظيمًا ، حين ذهبت إليه فاطمة عليها السلام بنت رسول اللّه ﷺ تسأله قطعة أرض باعتبارها ميراث أبيها ﷺ ، فقال لها أبو بكر : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة**»[٢] ، إني واللّه لا أدع أمرًا رأيت رسول اللّه ﷺ يصنعه إلا صنعته ، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ ، وهو يعلم أن أولى الناس بالرعاية بنت حبه ورسوله ﷺ . . فللّه دره وهو يحمل إيمان العباقرة لا تثنيه عن عدله أرق الوشائج .

* * *

(١) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد .
(٢) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد (٨/ ٣٦٤) ، وابن الأثير في « أُسد الغابة » (٣/ ٣٢٨) .

حالب شياه الجواري ... وهوخليفة !!! أمر فريد في التاريخ :

عن أنيسة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين ، سنتين قبل أن يُستخلف ، وسنة بعدما استُخلِف ، فكان جواري الحي يأتينه بغنمهنّ ، فيحلبهن لهنّ .

وفي رواية لابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ : كان يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة ، قالت جارية من الحيّ : الآن لا يحلب لنا منائحنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى ، لعمري لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلتُ فيه عن خُلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم ، فربما قال للجارية : أتحبين أن أُرغي لك ، أو أن أصرِّح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرّح ، فأيّ ذلك قالت ، فعل[1] .

« أنت هو لعمري » ... السباق دائماً :

عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزًا فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ، فأصلح ما أرادتْ ، فجاءها غير مرّة كيْلا يُسبق إليها ، فرصده عمر ، فإذا هو أبو بكر الذي يجيئها ، وهو يومئذ خليفة ، فقال عمر : « أنت هو لعمري » ويرحم اللَّه عبد الحليم المصري حيث يقول في بكريته الرائعة :

رأى عمرُ يومًا عجــوزًا بــدارها ... غدا المـوت منها للبقيــة حـاسيا
فقال : أُواسيهـا وأقضي أمــورها ... فقد عَدمت في المسلمــين مُواسيا
مضى غاشيًا في نَهْرة الصبح دَارها ... فألفى لها في نَهْرَة الفـجـر غاشيا
فقال لهَا :مَنْ كان في الحي سابقي ... ومن ذا الذي يبــدو له ما بَدَاليَا ؟

(١) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٨٦) .

فقالت : كريم يعتري الدار سحْرة ... فيجمع أشـــتاتي ويرحـــمُ ما بيـــا

فقال : سأحيي الليل أرعى طُرُوقَه ... وأرصدُ سبّاقًا إلى الخير ساعيـــا

فشقّ رواقُ الليل عن رونق الضحى ... ولكنه الصدّيق من كان باديـــاَ

فألقى الكُلى[(١)] عن عاهل عزّ قبلها ... وما حملتـــــه النَفس إلا المعاليـــا

وألقى العصا في جانب من خنائها ... وهيّأ فيه للقدور الأثافيـــــا

فصاح به الفاروق : ما كان سابقي ... سواك أبا بكر ولا كنتُ راضيـــا

أفي كلّ دارٍ من أبي بكـــر امـــرؤ ... إذا أهلها نَادَوا أجابَ المناديَـــا

ألا عائــــلٌ إلا تمثّلتَ كافــــلاً ... ولا مُشْتَكٍ إلا تمثّلْتَ آسيَـــا

أبو بكر الورع عن مال المسلمين :

عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ : لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه قال : « انظروا ما زاد في مالي منذ دخلتُ الإمارة ، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي ، فإني قد كنت أستحلّه .

وفي رواية : أستصلحه جهدي ، وكنت أصيب من الودك[(٢)] نحواً مما كنت أصيب في التجارة ، قالت عائشة : فلما مات نظرنا : فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه ، وإذا ناضح كان يسقي بستانًا له ، فبعثنا بهما إلى عمر ، فأخبرني جدي أن عمر بكى ، وقال : ـ رحمة اللَّه ـ على أبي بكر لقد أتعب مَنْ بعده تعبًا شديدًا[(٣)] .

---

(١) جمع كلية وهي ما يحمل فيها الماء .

(٢) الودك : دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٩٢) .

وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : إن أبا بكر حين حضره الموت قال : إني لأعلم عند أبي بكر من هذا المال شيئًا غير هذه اللقحة ، وغير هذا الغلام الصيقل ، كان يعمل سيوف المسلمين ، ويخدمنا ، فإذا متّ فادفعيه إلى عمر ، فلما دفعته إلى عمر قال : رحم اللَّه أبا بكر ، لقد أتعب مَنْ بعده[١] .

وفي رواية أن الصديق قال لعائشة : « أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ، ولا درهما ولكنا قد أكلنا من جريش[٢] طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فِيء المسلمين قليل ، ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجَرْدَ هذه القطيفة ، فإذا متّ فابعثي بهن إلى عمر ، وابرئي منهن ، ففعلتُ .

فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض ، ويقول : رحم اللَّه أبا بكر ، لقد أتعب من بعده ، رحم اللَّه أبا بكر لقد أتعب من بعده »[٣] .

وللَّه در الشيخ عبد الحليم المصري وهو يقول في قصيدته « البكرية » :

وقال : وقد حان الفراقُ لأهله ... إذا متُ رُدُّوا عبدهم وردائيا
وردوا عليهم حائطي في دارهم ... تقاضيتها منهم وردّوا صحافيا
فذكرك في الأحياء سال مدائحًا ... وذكرك في الأموات حال مراثيا
فمن لي بدمع المسلمين إذا جرى ... وما سوف يغدو للأجنة جاريا

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٩٢) .
(٢) الجريش : غليظ الطعام .
(٣) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٦) وفيه انقطاع ، لكن له متابعات كثيرة .

سنبذل من تلك العيون كرائما ونُرخِصُ من تلك الدموع غواليا
وفاءً وتَحْنَانا إلى الزمن الذي تضوّع عن عطر الخلافة ذاكيا
ليالي كان الناس لا المالُ مالهم وما هو إلا مالُ مَن جاء عافيا
وما فضل مولود على مال والدٍ وما ذنب مولود من المال خاليا
ولا فرق فهم بين مولى وعبده إذا جاءهم عبد لمولاه شاكيا
وما الحق إلا حائط بين قوة وضعف وليس العدل إلا تقاضيا
أربٌ أبي بكر سيخلقٌ مثله فيدرك من بُنيانه متراميا
بقيةُ إيمان وآثارٌ أمة توارث عن الأبصار إلاّ بواقيا
ذكرتُ أبا بكر لقومي وليتني بلغت به ما كنت فى القول راجيا
لعلّ سراة الدهر تبلغ فجره فأنّى أرى الأصباح تتلو الدياجيا

بذكر عمر وعدله تطيب المجالس :

للّه در عمر بن الخطاب من إمام « ناصح اللّه فنصحه اللّه تعالى »[١] كما قال علي بن أبي طالب ، لقد كانت مواقف عدله مترعة بإجلال منقطع النظير . . في كل موقف عظائم تتفوق على نفسها ، ويزحم بعضها بعضًا . . إمام يحمل مسئولياته على نمط فذّ ، ويعطي البشر جميعًا إلى آخر لحظة في الأبد ، درسًا في الأمانة ، أي درس ، وقدوة في الذمة والقسطاس - أي قدوة . . . !!

موقفه من نفسه . . . موقفه من أهله . . . موقفه من الضعيف ومن

(١) « تاريخ دمشق » لابن عساكر - ترجمة عمر بن الخطاب (ص٣١٠) ، تحقيق سكينة الشهابي - مؤسسة الرسالة .

القوي في قومه وأمته . . . موقفه من ولاته . . . موقفه من أموال الأمة .

للَّه در إمام منفعل بمسئوليته ، ويتبتّل لها ، ويقبل عليها في مثل عزم المرسلين . . . إن بين جوانحه ، وملء نفسه تفانيًا رهبانيا ، لا يسأل عن العواقب ولا يُجري بين يديها أيّ تقدير أو حساب . . . !!

عن عامر الشعبي قال : « قال عمر رضوان اللَّه عليه : واللَّه قد لان قلبي حتىٰ هو ألين من الزبد ، ولقد اشتد قلبي حتىٰ هو أشد من الحجر » .

وكان رضوان اللَّه عليه ، إذا أتاه الخصمان برك علىٰ ركبته وقال : «اللَّهم أعني عليهما ، فإن كل واحد منهما يردني عن ديني »[١] .

وكان من خطبته ـ رضي اللَّه عنه ـ : « ألا وإني واللَّه ما أُرسل عمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسنّتكم ، فمن فُعل به سوىٰ ذلك فليرفعه إليَّ فوالذي نفسي بيده لأقصنه منه » . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أفرأيت إن كان رجل من المسلمين علىٰ رعية فأدَّب بعض رعيته ، إنك لتقصنه منه ؟ قال : « إي والذي نفس عمر بيده إذًا لأقصنه منه ، ألا أقص منه وقد رأيت رسول اللَّه ﷺ ، يقصّ من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيِّعوهم »[٢] .

● عن عبد الرحمن بن غنم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : ويل

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » لابن الجوزي ، تحقيق دكتوره زينب القاروط (ص٩٤). دار الكتب العلمية .

(٢) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » لابن الجوزي (ص٩٤ ـ ٩٥) .

لديّان الأرض من ديّان السماء يوم يلقونه ، إلا من أمر بالعدل ، فقضىٰ بالحق ، ولم يقض علىٰ هوىٰ ، ولا علىٰ قرابة ، ولا علىٰ رغبة ولا رهب ، وجعل كتاب اللَّه مرآة بين عينيه »(١) .

عمر وأبو موسى الأشعري :

عن جرير بن عبد اللَّه البجلي ، أن رجلاً كان مع أبي موسىٰ الأشعري وكان ذا صوت ونكاية في العدو ، فغنموا مغنمًا فأعطاه أبو موسىٰ بعض سهمه ، فأبىٰ أن يقبله إلا جميعًا ، فجلده أبو موسىٰ عشرين صوتًا وحلقه، فجمع الرجل شعره ، ثم ترحل إلىٰ عمر بن الخطاب ، حتىٰ قدم عليه ، فدخل علىٰ عمر بن الخطاب ، قال جرير : وأنا أقرب من عمر بن الخطاب، ثم قال : أما واللَّه لولا النار ، فقال عمر : صدق واللَّه لولا النار، فقال : يا أمير المؤمنين إني كنت ذا صوت ونكاية ، فأخبره أمره ، قال : ضربني أبو موسىٰ عشرين سوطًا ، وحلق رأسي وهو يرىٰ أنه لا يُقتص منه ، فقال عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ : لأن يكون الناس كلهم علىٰ صرامة هذا ، أحب إلي من جميع ما أفاء اللَّه علينا ، فكتب عمر إلىٰ أبي موسىٰ : سلام عليك أما بعد ، فإن فلانًا أخبرني بكذا وكذا ، فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس، حتىٰ يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس ، فاقعد له في خلاء من الناس حتىٰ يقتص منك ، فقدم الرجل فقال له الناس: اعف عنه فقال : لا واللَّه لا أدعه لأحد من الناس ، فلما قعد أبو موسىٰ ليقتص منه ، رفع الرجل رأسه إلىٰ السماء ، ثم قال :

---

(١) إسناده صحيح : رواه سمويه في « فوائده » (٣٨) ، وأخرجه الدارمي مختصراً (ص١٠٤) قال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٣) : وإسنادهما صحيح .

اللَّهم إني قد عفوت عنه[١] .

الفاروق وعمرو بن العاص :

عن عمر بن شيبة قال : قال عمرو بن العاص لرجل من تُجَيب[٢] : «يا منافق» ، فقال التجيبي : يا أمير المؤمنين : إن عَمْرًا نفّقني ، ولا واللَّه ما نافقتُ منذ أسلمت ، فكتب عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ إلىٰ عمرو ، وكان إذا غضب كتب : إلىٰ العاصي بن العاصي : أما بعد ، فإن فلانًا التجيبي ذكر أنك نفقته ، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين ، أن يضربك أربعين أو قال سبعين ، فقام فقال : أنشد اللَّه رجلاً سمع عَمْرًا نفّقني إلا قام فشهد ، فقام عامة من في المسجد ، فقال له حنتمة : « أتريد أن تضرب الأمير ؟ » وعرض عليه الأرش[٣] ، فقال : لو ملأت لي هذه الكنيسة ما قبلت ، فقال له حنتمة : أتريد أن تضربه ؟ قال : « ما أرىٰ لعمر ههنا طاعة ، فلما ولّىٰ قال عمرو : ردوه ، فأمكنه من السوط ، وجلس بين يديه ، فقال : « أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك ؟ قال : لا ، فامض لما أُمِرتَ به ، قال : فإني قد عفوت عنك »[٤] .

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا ؟! :

عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « كنا عند عمر بن الخطاب ـ رضوان اللَّه عليه ـ إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، قال : ومالك ؟ قال : أجرىٰ عمرو بن العاص بمصر

---

(١) المصدر السابق (ص٩٥) . [مناقب أمير المؤمنين] .
(٢) قال في « القاموس » : تُجَيب بالضم وفتح بطن من كندة .
(٣) دية الجرح .
(٤) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (ص٩٥ ـ ٩٦) .

الخيل، فأقبلت فرسي فلما رآها الناس، قام محمد بن عمرو فقال: فرسي ورب الكعبة، فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام إلي يضربني بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين. قال: فوالله ما زاده عمر على أن قال له: اجلس، ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ومعك ابنك محمد، قال: فدعا عمرو ابنه فقال: أأحدثت حدثًا؟ أجَنَيْت جناية؟ قال: لا، قال: فما بال عمر يكتب فيك؟ قال: فقدم على عمر، قال أنس: فوالله أنا عند عمر، إذا نحن بعمرو قد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟ فقال: ها أنذا، قال: دونك الدِرة فاضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين، قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال أجِلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه، أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا؟!، ثم التفت إلى المصري فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ»[1].

عمر وأبو سفيان:

عن عبد الرحمن بن حاطب، عن أبيه قال: قدمنا مكة مع عمر - رضوان الله عليه - فأقبل أهل مكة يسعون: يا أمير المؤمنين، أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدرة، فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال له: ارفع هذا، فرفعه، ثم قال: وهذا وهذا، حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: «الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه»[2]،

(١) «مناقب أمير المؤمنين عمر» (ص٩٨ - ٩٩).

(٢) المصدر السابق (ص٩٧).

وفي رواية « الحمد اللَّه الذي أذلّ أبا سفيان بأبطح مكة »[١] .

إني خائف أن أُسأل عنك :

« عن سالم بن عبد اللَّه أن عمر بن الخطاب - رضوان اللَّه عليه - كان يدخل يده في دبر البعير ويقول : إني خائف أن أُسأل عنك .

وعن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب - رضوان اللَّه عليه - يضرب رجلاً ويقول : حمّلت جملك ما لا يطيق »[٢] .

ماذا تقول لربك غداً إذا أتيته ؟

عن الأحنف بن قيس قال : وفدنا إلى عمر - رضوان اللَّه عليه - بفتح عظيم ، فقال أين نزلتم ؟ فقال : في مكان كذا ، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا ، فجعل يتخللها ببصره ويقول : ألا اتقيتم اللَّه في ركابكم هذه ؟ أما علمتم أن لها عليكم حقًا ؟ ألا خلّيتم عنها ؟ .

فقلنا : أحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرّهم ، ثم انصرف راجعًا ونحن معه ، فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فإنه ظلمني ، قال : فرفع الدرة فخفق بها رأسه وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، حتى إذا اشتغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني ؟! فانصرف الرجل وهو يتذمّر ، فقال عمر : عليّ بالرجل فألقى المخفقة إليه فقال : امسك واضربني ، قال : لا ولكن أدعها للَّه ولك ، قال : ليس كذلك ، إما تدعها للَّه وإرادة ما عنده ، أو تدعها لي فأعلم ذلك قال : أدعها للَّه ، قال : انصرف ، ثم جاء يمشي حتى دخل منزله، ونحن معه فافتتح الصلاة فصلى ركعتين ، ثم جلس فقال : يا ابن الخطاب، كنت وضيعًا فرفعك اللَّه ، وكنت ضالاً فهداك اللَّه ، وكنت ذليلاً

---

(١) المصدر السابق (ص٩٧) .

(٢) المصدر السابق (ص٩٧) .

فأعزك اللَّه ، ثم حملك على رقاب المسلمين ، فجاءك رجل يستعديك فضربته ، ما تقول لربك غدًا إذا أتيته ؟ فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننت أنه من خير أهل الأرض .

واللَّه ما نسيتها :

وعن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مرّ عمر بن الخطاب ـ رضوان اللَّه عليه ـ وأنا في السوق وهو مارّ في حاجة له ، ومعه الدرة قال : هكذا أمِط عن الطريق يا سلمة ، قال : ثم خفقني بها خفقة ، فما أصاب إلا طرف ثوبي ، فأمطت عن الطريق ، فسكت عني ، حتى كان في العام المقبل ، فلقيني في السوق فقال : يا سلمة أردت الحج العام ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيدي ، فما فارقت يدي يده حتى دخل بي بيته ، فأخرج كيسًا فيه ستمائة درهم فقال : يا سلمة استعن بهذه ، واعلم أنها من الخفقة التي خفقتك عام أول ، قلت : واللَّه يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها! قال : وأنا واللَّه ما نسيتها بعد .

فعله في بيت المال وعدله في القسمة :

عن مالك بن أوس قال: كان عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ يحلف على أيمان ثلاث يقول : « واللَّه ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، وواللَّه ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدًا مملوكًا ، ولكنا على منازلنا من كتاب اللَّه تعالى ، وقسمنا من رسول اللَّه ﷺ ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، واللَّه لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » (١) .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ـ٢٩٩) .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يستنفق كل يوم درهمين له ولعياله ، وأنفق في حجته ثمانين ومائة درهم .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : أنا أخبركم بما أستحل منه : حلتنا ، حلة في الشتاء وحلة في الصيف ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم .

وعن قتادة قال : كان معيقيب على بيت مال عمر ، فكسح بيت المال يومًا فوجد فيه درهما ، فدفعه إلى ابن لعمر ، قال معيقيب : ثم انصرفت إلى بيتي ، فإذا رسول عمر ، قد جاء يدعوني ، فجئت فإذا الدرهم في يده ، فقال : « ويحك يا معيقيب : أوجدت علي في نفسك سببًا ؟ أو مالي ولك ؟ فقلت : ماذاك ؟ قال : أردت أن تخاصمني أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة »[1] .

يقول هذا الإمام الجهبذ العادل : « كيف يعنيني شأن الناس ، إذا لم يصبني ما يصيبهم » !! ويدمن ـ رضي اللَّه عنه ـ أكل الزيت في عام الرمادة حتى تئن أمعاؤه وتقرقر ، فيضع كفه على بطنه ، ويقول : « أيها البطن لَتُمَرَّنَنَّ على الزيت ، ما دام السمن يُباع بالأواقي »!! .

وفي عام الرمادة أمر يومًا بنحر جزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة ، وعند الغداء ، وجد عمر أمامه سنام الجزور وكبده ، وهما أطيب ما فيه . . ! فقال : من أين هذا ؟ قيل : من الجزور الذي ذُبح اليوم ، قال : «بخ بخ» بئس الوالي أنا أن طعمت طيبها ، وتركت للناس كراديسها » ،

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (ص٦ ـ ١٠) .

يعني عظامها ، ثم نادىٰ خادمه أسلم ، وقال له : يا أسلم ، ارفع هذه الجفنة وائتني بخبز وزيت .

للَّه درك من إمام وعاهل منقطع النظير ، وصاحب العدل في ذراه العالية التي تتقطع الأنفاس دون بلوغها .

أَكُلُّ المسلمين يأكل هذا ؟

وذات يوم يتلقىٰ الفاروق هدية من الحلوىٰ ، ولا تكاد توضع بين يديه حتىٰ يسأل الرسول الذي جاء يحملها : ما هذا ؟

قال : حلوىٰ يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلني بها إليك عتبة بن فرقد ـ وكان واليًا علىٰ أذربيجان ـ فذاقها عمر ، فوجد لها مذاقًا شهيًا ، فعاد يسأل الرسول : أكل المسلمين هناك يطعمون هذا ؟

قال الرجل : لا . . . وإنما هو طعام الخاصة .

فقال عمر للرجل : أين بعيرك ؟ خذ جملك هذا ، وارجع به لعتبة ، وقل له : عمر يقول لك ، اتق اللَّه ، وأشبع المسلمين مما تشبع منه . . !!

ملاحظته لعماله ووصيته لهم بالعدل :

قال ـ رضي اللَّه عنه ـ : « لئن سلَّمَني اللَّه لأدعنَّ أرامل العراق لا يحتجن إلىٰ رجل بعدي أبدًا » ، فما أتت عليه رابعة حتىٰ أصيب[1] .

وقال ـ رضي اللَّه عنه ـ : « لئن عشت إن شاء اللَّه لأسيرنّ في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا يصلون إلي ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ ، فأسير إلىٰ الشام ، فأقيم بها شهرين ، ثم

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين » (ص ١١٤) .

أسير إلىٰ مصر ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ البصرة فأقيم بها شهرين »[١] .

فمن يجاري أبا حفص وسيرته أو مَنْ يحاول للفاروق تشبيهـا

وعن ابن المسيب ـ رحمه اللَّه ـ عن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : أيما عامل لي ظلم أحداً ، وبلغتني مظلمته ، ولم أغيرها فأنا ظلمته[٢] .

وعن عمار بن خزيمة بن ثابت ـ رحمه اللَّه ـ قال : كان عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ، إذا استعمل عاملاً وكتب عليه كتابًا ، وأشهد عليه رهطًا من الأنصار ، أن لا يركب برذونا ، ولا يأكل نقيًا ، ولا يلبس رقيقًا ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللَّهم اشهد[٣] .

وكان ـ رضي اللَّه عنه ـ قد استعمل علىٰ مصر عاملاً فترك ما أمره به عمر ، فأرسل إليه رجلين فقال : « سلا عنه ، فإن كان كذب عليّ فأعلماني ، وإن كان صدق ، فلا تملكاه من أمره شيئًا حتىٰ تأتياني به ، فسألا عنه ، فوجداه قد صدقا عليه ، فاستأذنا ببابه فقال : إنه ليس عليه إذن فقالا : ليخرجن إلينا أو لنحرقن بابه ، وجاء أحدهما بشعلة من نار ، فلما رأىٰ ذلك آذنه فأخبره ، فخرج إليهما ، وقالا : إنا رسولا عمر لتأتيه ، قال : إن لي حاجة بتزود ، قالا : ما أنت بالذي تأتي أهلك ، فاحتملاه فأتيا به عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ فسلم عليه ، فقال : استعملتك وشرطت

---

(١) المصدر السابق (ص١٤١) .
(٢) المصدر السابق (ص١١٦) .
(٣) المصدر السابق (ص١١٤) .

عليك شروطًا فتركت ما أمرتك به ، وانتهكت ما نهيتك عنه ، أما واللّه لأعاقبنك عقوبة أبلغ إليك فيها ، ايتوني بدرّاعة من كساء ، وعصا ، وثلاثمائة شاة من شاء الصدقة .

قال : البس هذه الدراعة ، وقد رأيت أباه ، وهذه خير من دراعته ، وهذه خير من عصاه ، اذهب بهذه الشاء ، فارعها في مكان كذا وكذا وذلك في يوم صائف ، ولا تمنع السائل من ألبانها شيئًا ، واعلم أنا آل عمر لم نُصب من شاء الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئًا ، فلما أمعن ، رده ، قال : أفهمت ما قلته لك ؟ وردد عليه الكلام ثلاثًا ، فلما كان في الثالثة ، ضرب بنفسه الأرض بين يديه ، وقال : ما أستطيع ذلك ، فإن شئت فاضرب عنقي ، قال : فإن رددتك فأي رجل تكون ؟ قال : لا ترىٰ إلا ما تحب فرده فكان خير عامل »[1] .

للّه در عمر ورجال عمر :

لما استعمل عمر بن الخطاب سعيد بن عامر علىٰ رأس جيش مددًا لجبهة الشام قال له : يا سعيد بن عامر ، إني قد وليتك علىٰ هذا الجيش ولست بخير من رجل منهم إلا أن تكون أتقىٰ للّه منه ، فلا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم ، ولا تحقر ضعيفهم ، ولا تؤثر قويهم ، وكن للحق تابعًا ولا تتبع هوىٰ شاذًا ! ! .

قال سعيد : يا أمير المؤمنين إنك قد أوصيتني فاستمعت منك ، فاستمع مني أوصيك ، قال : هات ، قال : يا أمير المؤمنين خف اللّه في الناس ولا تخف الناس في اللّه ، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك

(١) المصدر السابق (ص١١٩ ـ ١٢٠) .

وأهل بيتك ، واكره لقريب المسلمين وبعيدهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك ، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته ، ولا تأخذك في اللَّه لومة لائم ، فأكب عمر طويلاً وفي يده عصا له وهو واضع جبهته عليها ، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على خديه .

فقال : للَّه أبوك يا سعيد ، ومن يستطيع هذا العمل الذي تذكر ؟

قال : من قطع للَّه في عنقه مثل الذي قطع في عنقك فهو جدير عليك ألا تفعل ، إنما عليك أن تأمر فيطاع أو يعصى ، فتبوء بالحجة ويبوء القوم بالمعصية[1] .

هذا رجل من رجالات عمر ، وهذي تربية عمر لعماله .

لا رخصة في العدل :

وللَّه در عمر ـ الذي أوحدت به أمّه ـ يكتب إلى سعد بعد نصر القادسية « أما العدل ، فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا شدة ولا رخاء ، والعدل إن رُؤيَ لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رُؤيَ شديدًا فهو أنكش للكفر »[2] .

يا خالق عمر سبحانك :

عن عبد اللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : « اشتريت إبلاً ، وارتجعتها إلى الحمى فلما سمنت قدمت بها ، قال : فدخل عمر بن الخطاب السوق فرأى إبلاً سمانًا ، فقال : لمن هذه ؟ قيل : لعبد اللَّه بن عمر ، قال : فجعل يقول : يا عبد اللَّه بن عمر ، بخ بخ ! ابن أمير المؤمنين ،

---

(١) « الطريق إلى دمشق » لأحمد عادل كمال (ص٤١٤ ـ ٤١٥) ـ دار النفائس .

(٢) « تاريخ الطبري » (٣/ ٥٨٤) ، و« القادسية » لأحمد عادل كمال (ص٢١٤) ـ دار النفائس .

قال : فجئته أسعىٰ ، فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما هذه الإبل ؟ قلت : إبل أنضاء[1] اشتريتها وبعثت بها إلىٰ الحمىٰ أبتغي ما يبتغي المسلمون ، قال : فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ! يا عبد اللَّه بن عمر ، اغد علىٰ رأس مالك ، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين .

حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر :

عن أنس بن مالك أن الهرمزان رأىٰ عمر بن الخطاب نائمًا في مسجد المدينة فقال : هذا واللَّه هو المِلك الهنيء[2] .

وللَّه در حافظ إبراهيم حيث يقول :

قد راع صاحب كسرى أن رأى عمرًا ... بين الرعيــة عُطْلا وهْو راعيــها

وعهدهُ بملوك الفــرس أن لها ... سورًا من الجند والأحراس يحميــها

رآه مستغـرقًا في نومـــه فرأى ... فيه الجـلالة في أسـمى معانيــها

فوق الثرى تحت ظل الدّوح مشتمــلاً ... ببرُدة كاد طول العهــد يُبليــها

فهان في عينــه ما كان يكبـــره ... من الأكاســر والدنيــا بأيديــها

وقال قــولة حقٍّ أصبحــت مثــلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيــل يرويــها

أمِــنت لما أقمت العــدل بينــهم ... فنمت نوم قرير العيــن هانيــها

قد جاء في « التبر المسبوك » (١٧) أن قيصر روما أرسل رسولاً إلىٰ عمر ابن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقــال :

---

(١) مفردها نضو وهو المهزول من الحيوان ، والأنثىٰ : نضوة .

(٢) « تاريخ دمشق » لابن عساكر ترجمة عمربن الخطاب (ص٢٧٢) .

أين ملككم ؟ فقالوا : ما لنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فخرج الرسول في طلبه ، فرآه نائمًا في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع جبته كالوسادة والعرق يسقط من جبينه وقد بلّ الأرض ، فلما رآه على هذه الحال وقع الخشوع في قلبه وقال : رجل لا يقرّ للملوك قرار من هيبته وتكون هذه حاله ! ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت ، وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهرًا خائفًا ، أشهد أن دينك الدين الحق ولولا أنني أتيت رسولاً لأسلمت ، ولكني أعود وأسلم »[١] .

عمر وعفته عن مال المسلمين :

قال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إني أنزلت مال اللَّه مني بمنزلة مال اليتيم ، من كان غنيًا فليستعفف ، ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف »[٢] .

وفي رواية أخرى : « إني مُمسِك بحلاقيم قريش ، إني أنزلت مال المسلمين مني بمنزلة مال اليتيم »[٣] .

عن عبد اللَّه بن الأرقم ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « أُتي عمر بابن له يُحمَل ، يقال له : عبد الرحمن ، فقال : يا أبتاه ، هب لي خاتمًا ، فقال : اذهب إلى أمك تسقيك سويقًا ، وما أعطاه شيئًا[٣] .

• وقال معيقيب ـ رحمه اللَّه ـ : أرسل إليّ عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصمًا فقال : أتدري ما صنع هذا ؟ إنه انطلق إلى

(١) « الفاروق في شعر حافظ إبراهيم » لسليمان محمد سليمان (ص٧٩ ـ ٨٠) دار الأرقم .
(٢) خبر صحيح أخرجه ابن شبة (٢/ ٧١٠) وابن سعد (٣/ ٢٧٦) .
(٣) صحيح : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الإشراف » (١٩٦) ، وابن عساكر وابن شبة .

العراق : فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين ، فانتفقهم فأعطوه آنية وفضة ، ومتاعًا ، وسيفًا مُحَلّىٰ .

فقال عاصم : ما فعلتُ ، إنما قدمت علىٰ أناس من قومي فأعطوني هذا .

فقال عمر : خذه يا معيقيب ، فاجعله في بيت المال ، فجعلته ، فلمّا كان العشي حدّث القوم شأنه ، وانطلق عاصم فتكلم إلىٰ ناس في السيف ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أما السيف له ، فإنه ليس له سيف ، يعني الآن .

قال عمر : يا معيقيب ، انزع حليته وأعطه النصل .

قال : فما أصنع به ؟!

قال : ما شئت ، فأخذ النصل[1] .

● قال ابن نجيح : نزلت علىٰ عمر - رضي اللَّه عنه - فكانت له ناقة يحلبها ، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنًا أنكره ، فقال : ويحك من أين هذا اللبن لك؟

قال : يا أمير المؤمنين ، إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها ، فحلبت لك ناقة من مال اللَّه .

فقال : ويحك تسقيني نارًا ، ادع لي علىٰ بن أبي طالب .

قال : فدعاه ، فقال : إن هذا عمد إلىٰ ناقة من مال اللَّه فسقاني بعضها ، أفتحله لي ؟

قال : نعم ، هولك حلال يا أمير المؤمنين[2] .

اللَّه بيننا وبين عمر ، يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟!

● قال أسلم مولىٰ الفاروق عمر : خرجنا مع عمر بن الخطاب إلىٰ حرّة

---

(١) صحيح : أخرجه ابن شبة (٢/ ٧٠٠) في « تاريخ المدينة » .

(٢) إسناده صحيح : ابن شبة (٢/ ٧٠٣) ، وابن الجوزي في « المناقب » (ص١٣٩) .

واقم[١] حتىٰ إذا كان بصرار[٢] إذا نار ، فقال : يا أسلم ، إني لأرىٰ ها هنا ركْبا قصّر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتىٰ دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان ، وقدر منصوبة علىٰ نار ، وصبيانها يتضاغون[٣] .

فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار .

فقالت : وعليك السلام ، فقال : أدنو ؟ فقالت : ادن بخير أو دع .

قال : فدنا ، وقال : ما لكم ؟

قالت : قصّر بنا الليل والبرد .

قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع .

قال : فأي شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء ، أُسكتهم به حتىٰ يناموا والله بيننا وبين عمر .

قال : إي - رحمك الله - وما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولىٰ أمرنا ثم يغفل عنا ؟!

قال : فأقبل عليّ ، فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتىٰ أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق ، وكبّة شحم ، فقال : احمله عليّ .

فقلت : أنا أحمله عنك . فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة - لا أمَّ لك - فحملته عليه ، فانطلق وانطلقتُ معه إليها نهرول ، فألقىٰ ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئًا ، فجعل يقول لها : ذُرِّي[٤] عليّ وأنا

---

(١) إحدىٰ حرتيّ المدينة ، وهي أرض ذات حجارة سود .

(٢) اسم موضع .

(٣) يبكون .

(٤) ذرىٰ : ذر الشيء يذره : أخذه بأطراف أصابعه ، ثم نثره علىٰ الشيء .

أُحرَّ[١] لك ، وجعل ينفخ تحت القِدر ، ثم أنزلها ، فقال : ابغني شيئًا ، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم ، فلم يزل حتىٰ شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك اللَّه خيرًا ، كنت أولىٰ بهذا الأمر من أمير المومنين .

فيقول : قولي خيرًا ، إذا جئتِ أمير المؤمنين ، وجدتني هناك ـ إن شاء اللَّه ـ ثم تنحىٰ عنها ناحية ، ثم استقبلها فربض مربضًا .

فقلت : إن لك شأنًا غير هذا ، فلا يكلمني ، حتىٰ رأيت الصبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتىٰ أرىٰ ما رأيت[٢] .

وفي رواية أخرىٰ : يا أسلم ، أتدري لم ربضت حذاءهم ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : رأيتهم يبكون ، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتىٰ أراهم يضحكون ، فلما ضحكوا طابت نفسي[٣] .

وللَّه در حافظ إبراهيم حين يقول في عمريته :

ومن رآه أمام القدر منبطحًا ... والنار تأخذ منه وهو يُذكيها
وقد تخلل فى أثناء لحيته ... منها الدخان وفُوهُ غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على ... حال تروع لعمرُ اللَّه رائيها
يستقبل النار خوف النار في غده ... والعينُ من خشية سالت مآقيها

(١) أحُرّ لك : أي ذري الدقيق في القدر لأعمل لك حريرة .
(٢ ، ٣) خبر صحيح بطرقه : أخرجه عبد اللَّه بن أحمد في « الفضائل » ، وابن عساكر .

عمر بن الخطاب الوقافُ عند كتاب اللَّه :

قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ : قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحرّ بن قيس ـ وكان من النفر الذين يدينهم عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ ومشاوريه ـ كهولاً كانوا أو شبّانًا ـ فقال عيينة لابن أخيه الحرّ بن قيس : هل لك وجهٌ عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه ؟ قال : سأستأذن لك عليه .

قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ فاستأذن الحرّ لعُيينة ، فلما دخل عليه قال : يا ابن الخطاب ، واللَّه ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل .

قال : فغضب عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ حتى همّ أن يقع به ، فقال الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إن اللَّه تعالى قال لنبيه : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[1] قال : فواللَّه ما جاوزها عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ حتى تلاها ، وكان وقّافًا عند كتاب اللَّه [2] .

عمر مع ولاته وعمّاله :

قال الأسود بن يزيد : كان الوفد إذا قدموا على عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ سألهم عن أميرهم ، فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون : نعم .

فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فإن قالوا لخصلة منها : لا ، عزله[3] .

● وعن زيد بن وهب ـ رحمه اللَّه ـ قال : خرج جيش في زمن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ نحو الجبل ، فانتهوا إلى نهر ليس عليه جسر ، فقال أمير

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٩٩) .
(٢) رواه البخاري ، وابن شبة ، وابن عساكر ، وابن عبد البر ، وابن منده ، وأبو نعيم .
(٣) صحيح : أخرجه الطبري في « تاريخه » (٤/ ٢٢٦) .

ذلك الجيش لرجل من أصحابه : انزل ، فابغنا مخاضة نجوز فيها ، وذلك في يوم بارد شديد البرد ، فقال الرجل : إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت ، فأكرهه ، فقال : يا عمراه . يا عمراه ، ثم لم يلبث أن هلك ، فبلغ ذلك عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ وهو في سوق المدينة ، فقال : يا لبيكاه ، يالبيكاه ، وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه وقال له : لولا أن تكون سنة لأقدت منك لا تعمل لي على عمل أبداً[1] ، وفي رواية : لولا أن تكون سنة لضربت عنقك ، اذهب فأعط أهله ديته .

● وعن إسماعيل بن محمد الوقاصي ـ رحمه اللَّه ـ : قدم على عمر مسك وعنبر من البحرين ، فقال عمر : واللَّه لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب ، حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد : أنا جيدة الوزن ، فهلّم أزن لك ، قال : لا ، قالت : لم ؟ قال : إني أخشى أن تأخذيه فتجعلينه هكذا : وأدخل أصابعه في صدغيه ، وتمسحين به عنقك ، فأصيب فضلاً على المسلمين[2] .

● وقدم بريد ملك الروم على عمر بن الخطاب ، فاستقرضت امرأة عمر ابن الخطاب ديناراً فاشترت به عطراً ، وجعلته في قوارير ، وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم ، فلما أتاها فرّغتهن وملأتهن جواهر ، وقالت : اذهب به إلى امرأة عمر بن الخطاب ، فلما أتاها فرغتهن على البساط ، فدخل عمر بن الخطاب ، فقال : ما هذا ؟ فأخبرته الخبر ، فأخذ عمر الجواهر ، فباعه ، ودفع إلى امرأته ديناراً ، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين[3] .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن شبة (٣/ ٨١٣) وابن الجوزي(ص١٨٥) في « المناقب » .
(٢) حسن لغيره : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الورع » ، وأحمد في « الزهد » ، وفي « الورع » .
(٣) صحيح : أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (٥٢/ ٢٧٧ ، ٢٧٨) .

ومن عدل عمر :

روىٰ أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ أن الطعام غلا بالمدينة علىٰ عهد عمر فجعل يأكل الشعير ، فاستنكره بطنه ، فأهوىٰ بيده إلىٰ بطنه ، وقال : واللَّه ما هوإلا ما ترىٰ حتىٰ يوسع اللَّه علىٰ المسلمين[١] .

• واختصم إلىٰ عمر يهوديٌّ ومسلم ، فرأىٰ الحق لليهودي ، فقضىٰ له عليه ، فقال اليهودي : واللَّه ، إن الملكيْن : جبريل ، وميكائيل لمعك ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، وإنهما ليتكلمان بلسانك ، فعلاه بالدرّة .

قال : ما يُدريك ؟ لا أمّ لك !

قال : لأنهما مع كل قاضٍ يقضىٰ بالحق ، فإذا ترك الحق عرجا ، ووكلاه إلىٰ شيطان الإنس والجن .

فقال عمر : إني لأحسبه كما قال[٢] .

قال المسور بن مخرمة : سمعت عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ يقول : يا معشر المسلمين . . إني لا أخاف الناس عليكم ، إنما أخافكم علىٰ الناس إني قد تركت فيكم اثنتين لن تبرحوا بخير ما لزمتموهما : العدل في الحكم ، والعدل في القسم »[٣] .

ويقول ـ رضي اللَّه عنه ـ : لا تضعوا الجزية إلا علىٰ مَنْ جرت عليه المواسىٰ ، ولا تضعوا الجزية علىٰ النساء ، ولا علىٰ الصبيان .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٥٣) .
(٢) حسن : أخرجه وكيع في « أخبار القضاة » (١/ ٤٥) .
(٣) صحيح : أخرجه البيهقي في « سننه الكبرىٰ » (١٠/ ١٣٤) .

• رجل لا تأخذه في اللّه لومة لائم :

قال عبد اللّه بن عمر : شرب أخي عبد الرحمن بن عمر ، وشرب معه أبو سروعة عقبة بن الحارث ، ونحن بمصر في خلافة عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - فسكرا .

فلما صحا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير بمصر فقالا : طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه ، فقال عبد اللّه بن عمر : فلم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص ، قال : فذكر لي أخي أنه قد سكر ، فقلت له : ادخل الدار أطهرك ، قال : إنه قد حدّث الأمير .

قال عبد اللّه ، فقلت : واللّه لا تُحلق اليوم على رءوس الناس ، ادخل أحلقك ، وكانوا إذ ذاك يُحلقون مع الحد ، فدخل معي الدار .

قال عبد اللّه : فحلقت أخي بيدي ، ثم جلدهما عمرو بن العاص ، فسمع عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - بذلك فكتب إلى عمرو : أن ابعث إليّ عبد الرحمن بن عمر على قتب ، ففعل ذلك عمرو ، فلما قدم عبد الرحمن على عمر - رضي اللّه عنه - جلده ، وعاقبه من أجل مكانه منه ، ثم أرسله ، فلبث أشهراً صحيحًا ، ثم أصابه قدره ، فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر ، ولم يمت من جلده »[1] .

• وعن السائب بن يزيد قال : صلى عمر - رضي اللّه عنه - على جنازة ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فقال : إني وجدت من عُبيد اللّه بن عمر وأصحابه ريح شراب ، وأنا سائل عما شربوا ، فإن كان مسكرًا حددتهم .

---

(١) صحيح : رواه البيهقي في « سننه» (٨/ ٣١٣) ، وابن شبة في « تاريخه » (٣/ ٨٤١) ، وابن عساكر ، قال ابن الجوزي : « لا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر وإنما شرب النبيذ متأولاً وظن أن ماشرب منه لا يسكر ، وكذلك أبو سروعة ، وأبو سروعة من أهل بدر ، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد ، وقد كان يكفيهما مجرد الندم على التفريط ، وأما كون عمر أعاد الضرب على ولده فليس ذلك حداً ، وإنما ضربه غضبًا وتأديبًا .

قال السائب : فأنا شهدته يحدهم [١] .

للَّه در عمر بن الخطاب وخلقه :

فذاك خُلْق من الفـــردوس طينتــه اللَّه أودع فيهـــا ما يُنَقّيهـــا
لا الكِبْرُ يسكنها ، لا الظلم يصحبها لا الحقد يعرفها ، لا الحرص يُغْويها
فلا الحسابـــة فى حق يجاملهـــا ولا القرابةُ فى بُطْل يحابيهـــا
وتلك قـــوة نفس لو أراد بهـــا شم الجبال لما قرّتْ رواسيهـــا

وللَّه در حافظ إبراهيم حين يتكلم عن عمر وجبلة بن الأيهم :

كم خفت فى اللَّه مضعوفا دعــاك به وكــم أخفت قويّـــا ينثنـي تيهـا
وفى حديث فــتى غسّان موعظــة لكـل ذى نعــرة يأبى تناسيهـا
فما القوى قويّـــا رغــم عزّتـــه عند الخصومة والفاروق قاضيهـــا
وما الضعيــف ضعيـفا بعـــد حجته وإن تخاصــم واليهـــا وراعيهـــا

عدله وإنصافه لزوجته :

حين أتاه رجل ليشتكي زوجته عنده ، فسمع صوت امرأة عمر من داخل البيت تخاصم عمر ويصغي إليها ولا يعاقبها ، فيرجع الرجل قبل أن يصل إلى عمر ، فيراه عمر فيطلبه ، ويسأله حاجته فيخبره بأمره وأنه رضي عن زوجته لما رأى من زوجة عمر مع عمر ، فيقول له : وما لي لا أصبر عليها وهي أم أولادي وغاسلة ثيابي وطاهية طعامي .

● وقد حدث أن بعض الناس حاول أن يهدي إليه ، فلم يقبل منه ، لما

(١) صحيح : أخرجه ابن شبة (٣/ ٨٤٢) .

يعرفه من ذاك الرجل ، فاحتال الرجل وقدّم الهدية إلىٰ أهل بيت عمر وهي قطيفة فلما رآها عمر في بيته سأل عنها من أين أتتهم فأخبروه ، فقال : عجز عن طريقي فجاءني عن طريق أهلي ، لا واللَّه وكانوا قد عملوها طرّاحة وحشوها صوفا فأخذها عمر ليردها إليه فلحقته الجارية تقول : الحشو الذي فيها لنا أعطنا حقنا(١) .

ومع ولده :

كان ولداه عبد اللَّه وعبيد اللَّه بالشام فأرادا العودة إلىٰ المدينة وكانا في الجيش ، وكان أبو موسىٰ عاملاً علىٰ الشام ، فأراد أن ينفع ولديْ عمر ويضمن مال المسلمين ، فقال لهما : عندي مال بيت المسلمين أقرضكماه فتشتريان به تجارة من الشام وتبيعانها بالمدينة فتربحا وتؤديا رأس المال لعمر ، ففعلا وربحا ، فلما قدما علىٰ عمر برأس المال قال لهما : أكُلّ الجيش فعل معهم هكذا ؟ قالا : لا ، فقال : ابنا أمير المؤمنين وخصّكما بذلك ، لا ، أدّيا الربح ورأس المال . فسكت عبد اللَّه وتكلم عُبيد اللَّه فقال : أليس إذا هلك المال كنا ضامنين له ؟ قال: بلىٰ . فقال : إذاً يكون ربحه لنا ، فلم يقبل منه عمر ذلك ، وقال : إنما ربحتما بمال المسلمين ، فقال أحد الحاضرين : يا أمير المؤمنين : اعتبره مضاربة واقتسم الربح معهما لبيت مال المسلمين فرضىٰ بذلك » .

مثل رائع في شخصه هو ومع نفسه :

اختصم معه أبيّ بن كعب ـ رضي اللَّه عنه ـ في نخيل ادّعاه علىٰ عمر ونفاه عمر ، وقال : اختر من شئت نحتكم إليه ، فقال أبيّ : نحتكم إلىٰ زيد بن ثابت ، فذهب معه عمر إلىٰ بيت زيد وقالا له : أتيناك محتكمين

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٨٩) .

إليك، فقال زيد وعلى البداهة : مرحبًا ها هنا يا أمير المؤمنين وأشار إلى صدر المجلس ، فصاح به عمر : جُرت من أول أمرك ، فقال له زيد : وفيم جرُت ؟ قال له : تناديني بأمير المؤمنين ونحن جئنا إليك في محاكمة ، وتشير إلى صدر المجلس ، يجب أن أجلس حيث يجلس خصمي ، فأجلسهما معًا ، وسأل أبيًا عن بيّنته فلم يجد عنده بيّنة ، وقال : أطلب تحليف عمر اليمين، فقال زيد : أَوَ تعفي أمير المؤمنين من اليمين ؟ فصاح به عمر مرة ثانية : جُرْتَ يا يزيد ، فقال : وفيم الجور ؟

فقال : أكُلّ الخصوم تشفع لهم في ترك اليمين ؟ فقال له : أتحلف ؟

فقال عمر : ومالي لا أحلف مادمت صادقًا ؟ فأحلفه اليمين ، فقضى لعمر لعجز أبيّ عن البينة وحلف عمر ، فلما خرجا من مجلس المحاكمة قال عمر لأبيّ : النخل مني هدية لك . فقيل لعمر : ولماذا لم يكن ذلك قبل حلف اليمين ؟ قال : لكراهيتي أن يتخذها الناس سنة » .

مع خادمه في السفر :

وفي مسيره إلى الشام لتسلّم بيت المقدس اقتسم الطريق مع خادمه في الركوب على راحلتهما ، فكان عمر يمشي مرحلة ويركب الخادم ، ثم يركب عمر والخادم يمشي ، حتى اقتربا من الشام والقوم في استقباله ، فكانت النوْبة في الركوب للخادم ، فعرض على عمر أن يركب ليقدم على القوم راكبًا فأبى إلا أن يوفيه حقه فيقدمان على القوم والخادم راكب وعمر يمشي .

قال طارق بن شهاب ـ رحمه اللّه ـ :

لما قدم عمر الشام أتته الجنود ، وعليه إزار وخفان وعمامة ، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، تلقاك الجنود

وبطارقة الشام ، وأنت على هذا الحال ؟!!

فقال عمر : **إنا قوم أعزنا اللّه بالإسلام ، فلن نلتمس العزّ بغيره**[1] .

وفي رواية : ليس الأمر ها هنا ، إنما الأمر ها هنا وأشار إلى السماء .

فمن يُباري أبا حفـــص وسيرتـــه ... أوْ من يحاول للفاروق تشبيهـــا

هذى مناقبه فى عهـــد دولتـــه ... للشاهدين وللأعقـاب أحكيهـــا

فى كل واحدة منهـــن نابلـــة ... من الطبائع تغزو نفس راعيهـــا

لعلّ في أمة الإســـلام نابتـــة ... تجلو لحاضرها مـــرآة ماضيهـــا

حتى ترى بعض ما شـادت أوائلهـــا ... من الصروح وما عاناهُ بانيهـــا

وحسبُهـــا أن ترى ما كان من عمـــرٍ ... حتى يُنَبَّه منها عيـــن غافيهـــا

* * *

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٤٦) بسند صحيح .

• • ذو النورين عثمان الرحيم العادل :

عثمان الرحيم الذي تشع الرحمة في حياته ، وتكون نبراسًا لكل تصرفاته ، يغضب على خادمٍ له يومًا ، فيعرك أذنه حتى يوجعه . . . ثم سرعان ما يدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيعرك أذنه . . . ويأبى الخادم ، ويأمره في حزم فيطيع : « اشدد يا غلام ، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » .

وقفات للذبّ عن ذي النورين ـ رضي اللّه عنه ـ :

ما نقموا على عثمان ؟ وهو الجواد الرحيم العدل العادل :

ما الذي عابوه على عثمان وهو من هو . . . جوده . . . عدله . . . رحمته . . . .

قال الحسن البصري ـ رحمه اللّه ـ :

« أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلّما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، فيُقال لهم : يا معشر المسلمين ، اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يُقال لهم : اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة ، ثم يُقال لهم : اغدوا على السمن والعسل .

الأعطيات جارية ، والأرزاق دائرة ، والعدو منفي ، وذات البيْن حسن ، والخير كثير ، وما مؤمن يخاف مؤمنا ، من لقيه فهو أخوه مَنْ كان ، ألفَتُه ، ونصيحته ، ومودته ، قد عُهد إليهم أنها ستكون أثرة ، فإذا كانت أن تصبروا .

ولو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، قالوا : لا واللّه ما نصابرها ، فواللّه ما رُدّوا ولا سَلموا ، والأخرى كان السيفَ مغمداً على أهل الإسلام ، ما على الأرض مؤمن

يخاف أن يسل مؤمن عليه سيفًا حتى سلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم الناس هذا .

وأيم الله إني لأراه سيفًا مسلولاً إلى يوم القيامة »[١] .

● يقول عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ : « أدركت زمن عثمان ـ رضي الله عنه ـ وما من نفس مسلمة إلا ولها في مال الله حق »[٢] .

● **لين جانبه ورحمته بالرعية :**

من شمائل عثمان ـ رضي الله عنه ـ : لين جانبه ، ورأفة قلبه ، وإحسانه إلى الرعية ، ولينه معهم ، وخروج أهل الزور والبهتان عليه ، وقتله مظلومًا .

قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : « لقد عبتم على عثمان أشياء ، لو أن عمر فعلها ما عبتموها »[٣] .

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : « عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتي عشرة سنة لا ينكرون من إمارته شيئًا ، حتى جاء فَسَقَة فداهن والله في أمره أهل المدينة »[٤] .

● ومن المواقف التي تبدو فيها شفقته بالرعيّة جليّا ، ما رواه موسى بن طلحة يقول : سمعت عثمان بن عفان ، وهو على المنبر ، والمؤذن يقيم الصلاة ، وهو يستخبر الناس عن أخبارهم وأسعارهم ، وعن مرضاهم»[٥] .

هذا عثمان فأين مثل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ؟!

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن عساكر ، والطبراني في « الكبير » ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٩٤) : إسناده حسن ، وأخرجه ابن شبة في « تاريخ المدينة » .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن شبة .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » .

(٤) إسناده صحيح : أخرجه البخاري في « التاريخ الصغير » ، وابن عساكر في « تاريخه » .

(٥) إسناده صحيح : أخرجه أحمد في « مسنده » ، وابن سعد في « طبقاته » .

عُبـاب البحر تنقص منـه قـدراً إذا شبهتـه قلبـاً ذمامـا[1]

ولله در القائل :

ألم تر أن السيف ينقـص قـدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

* * *

إقامة عثمان ـ رضي الله عنه ـ الحدود على القريب والبعيد :

من عظام الأعمال وكبارها في خلافته ظهور حدود الله تعالى .

فهذا الوليد بن عقبة من أقرب الناس إليه ، إنه أخوه لأمه ، ومع ذلك لم تأخذه شفقة عليه ولا رحمة .

قال الحافظ في « الفتح » (٧/ ٥٦) : « إنما أخّر إقامة الحدّ عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك ، فلما وضح له الأمر أمر بإقامة الحدّ عليه » .

قال حنين بن المنذر : شهدت عثمان بن عفان ، وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ، ثم قال : أزيدكم ؟

فشهد عليه رجلان ؟ أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيّأ ، فقال عثمان : إنه لم يتقيّأْ حتى شربها ، فقال : يا عليّ قم فاجلده، فقال علي : قم يا حسن فاجلده ، فقال الحسن : ولِّ حارَّها من تولىَّ قارَّها[2] ـ فكأنه وجد عليه ـ فقال : يا عبد الله بن جعفر ، قم فاجلده، فجلده ـ وعليّ يعدّ ـ حتى بلغ أربعين ، فقال : أمسكْ ، ثم قال : جلد النبي ﷺ أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وهذا أحبّ إليّ »[3] .

---

(١) القلب الذمام : الآبار الصغيرة .

(٢) ولِّ حارها من تولى قارها : قال الأصمعي : ولِّ شديدها من تولى هيِّنها ، والقارد البارد أي ولِّ العقوبة والضرب من توليه العمل والنفع .

(٣) أخرجه مسلم ، وأحمد في « مسنده » ، وابن شبة في « تاريخ المدينة » (٣/ ١٩٧٣) وابن الأثير في « أسد الغابة » (٥/ ٤٥٣) .

وفي رواية : وكلٌّ سنّة .

قال ابن عبد البرّ في « الاستيعاب » (٤/ ١٥٥٤) : « لما شهدوا على الوليد بن عقبة بشرب الخمر ، أمرعثمان به فجُلد ، وعزُل عن الكوفة ، واستعمل عثمان بعد عليها سعيد بن العاص » .

قالوا : لم يقتل عبيد اللّه بن عمر بالهرمزان ، مع ظهور القصاص ووجوبه :

ولقد ردّ ابن العربي ردًا شافيًا وكافيًا في « العواصم من القواصم » (ص٧٧ ، ١١٦) فليرجع إليه .

أما تلك القصة سندًا ومتنًا ففيها اضطراب ، يقول ابن عبد البر : « قصته في قتل الهرمزان وجفينة ، وبنت أبي لؤلؤة ، ففيها اضطراب ، وفي الرواية الصحيحة أن عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ تشاور مع المهاجرين والأنصار ، ولم يقتل مسلمًا بكافر ، وأعطى الديه بدلاً من ذلك فأي مخالفة في ذلك ؟ .

قال المفترون عنه أنه ولىّ أقاربه :

مّما قاله المفترون في هذا الشأن عن عثمان : ولّى أقاربه : معاوية ، وعبد اللّه بن عامر بن كريز ، ومروان ، والوليد بن عقبة ، وأعطى مروان خمس إفريقية .

قال ابن العربي ـ رحمه اللّه ـ :

هذا كله باطل سندًا ومتنًا ، فأما معاوية : فعمر ولاّه ، وجمع له الشام كلها ، وأقرّه عثمان ، وأما عبد اللّه بن كريز ، فولاه كما قال : لأنه كريم العمّات والخالات .

• وأما تولية الوليد بن عقبة فقد قال عثمان : ما وليّته لأنه أخي ، وإنما وليّته لأنه ابن أم حكيم عمّة النبي ﷺ وتوأمة أبيه .

والولاية اجتهاد ، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص ، وقدّم أقل منه درجة .

• ومروان رجل عدل من كبار الأئمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، والفقهاء على تعظيمه ، والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته ، أما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم .

• وأما الوليد وحدّه في الخمر ، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون على الخمر ، وهو أمير وعزله ، وليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منه التوبة .

وأما إعطاؤه خُمس إفريقية لواحد فلم يصح .

إعطاء العطاء من مال الصدقة :

ومن تلك المطاعن الواهية : أنه أمر بالعطاء من مال الصدقة وأن الناس أنكروه .

وللرد على ذلك يقول أبو نعيم الأصبهاني - رحمه اللَّه - :

« عثمان - رضي اللَّه عنه - أعلم ممن أنكر عليه ، وللأئمة إذا رأوا المصلحة للرعية في شيء أن يفعلوه ولا تجعل إنكار من جهل المصلحة حجة على من عرفها ، ولا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون .

ولا يلزم عثمان فيما أمر به إنكار من أنكر لما رأى من المصلحة ، فقد فرّق رسول اللَّه ﷺ غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة ، وترك الأنصار لما رأى من المصلحة حتى قال قائلهم : تقسم غنائمنا في الناس

وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟!

فكان الذي دعاهم إلىٰ الإنكار علىٰ ما فعل رسول اللَّه ﷺ قلة معرفتهم بما رأىٰ من المصلحة فيما قسم ، وكان أعظم من إنكار مَنْ أنكر علىٰ عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ لأن مال المؤلفة من الغنيمة ، فلا يلزم عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ من إنكار من أنكر عليه شيئًا إلا ما لزم رسول اللَّه ﷺ حين رأىٰ المصلحة فيما فعل اقتداء بنبيه ﷺ »[1] .

الطعن بأنه أخرج أبا ذر إلى الربذة :

وهذا ظلم عظيم ، ومنكر أثيم . . . فعثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ أعدل وأفضل من أن يفعل بالأفاضل من الصحابة ما لا يستحقون ، أوينالهم بمكروه ؛ وإنما كان هذا من عثمان تخييراً لأبي ذر والدليل علىٰ ذلك ما رواه زيد بن وهب قال :

« مررتُ بالربذة ، فقلت : لأبي ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ : ما أنزلك هذا المنزل ؟ فقال : أُخبرك ، إني كنت بالشام فتذاكرت أنا ومعاوية هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[2] .

فقال معاوية : هذه نزلت في أهل الكتاب ، وقلت أنا : هي فيهم وفينا ، فكتب معاوية إلىٰ عثمان في ذلك فكتب إليّ : أن أقدم عليّ ، فقدمتُ عليه فانثال عليّ الناس كأنهم لم يعرفوني فشكوت ذلك إلىٰ عثمان ، فخيّرني فقال : انزل حيث شئت »[3] .

---

(١) « تثبيت الإمامة » لأبي نعيم (ص١٤٩) نقلاً عن سيرة وحياة ذي النورين عثمان بن عفان تأليف مجدي فتحي السيد (ص٩٤) ـ دار الصحابة بطنطا .

(٢) سورة التوبة الآية (٣٤) .

(٣) حديث صحيح : أخرجه أبو نعيم (١٣٩) في « تثبيت الإمامة » .

• وقال عبد اللَّه بن الصامت : « دخلت مع أبي ذر في رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب الذي لا يُدخل عليه منه ، قال : وتخوفنا عثمان عليه ، فانتهى إليه فسلّم عليه ، قال : ثم ما بدأه بشيء إلاّ أن قال : أحَسبتني منهم يا أمير المؤمنين ؟! واللَّه ما أنا منهم - يعني الخوارج - ولا أدركهم ، ولو أمرتني أن أعضّ على عرقوبي قتب لعضضت عليهما حتى يأتيني الموت وأنا عاض عليهما .

قال : صدقت يا أبا ذر ، إنا إنما أرسلنا إليك لخير ؛ لتجاورنا بالمدينة .

قال : لا حاجة لي في ذلك ، ثم استأذنه في الربذة ، فقال : ائذن لي في الربذة .

قال : نعم نأذن لك ، ونأمر لك بنَعَم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح فتصيب من رسْلها[١] .

قال : لا حاجة لنا في ذلك ، يكفي أبا ذر صِرْمته[٢] ، ثم خرج فنادى : دونكم معاشر قريش ، دنياكم فاعْذَمُوها لا حاجة لنا فيها ، ودعونا وديننا[٣] .

قال غالب القطّان : قلت للحسن البصري : أعثمان أخرج أبا ذر ؟

قال : لا ، معاذ اللَّه[٤] .

وكان محمد بن سيرين - رحمه اللَّه - إذا ذُكر له أن عثمان بن عفان سيَّره

(١) اللبن .

(٢) الصرمة : القطعة من الإبل .

(٣) صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٤/ ٢٣٢) ، وابن شبة في « تاريخ المدينة » (٣/ ١٠٣٦ ، ١٠٤١) وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٠) .

(٤) إسناده حسن : أورده الذهبي في « تاريخ الإسلام » وابن شبة (٣/ ١٠٣٧) .

أخذه أمر عظيم ، ويقول : هو خرج من قِبَلِ نفسه ، ولم يُسيِّره عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ[١] .

الطعن عليه بأنه ضرب عمار بن ياسر وابن مسعود وكله كذب :

أما الطعن عليه بأنه ضرب عماراً حتىٰ فتق أمعاءه !! فقال أبو نعيم في «تثبيت الإمامة» (ص١٥١ ، ١٥٢) : هذا غير ثابت عنه ، وقال ابن العربي : وأمّا ضربه عماراً فزور ، وإفك .

ودعوىٰ ضربه ابن مسعود ، وكسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه سنتين !! كل هذا باطل وزور ، ولا أصل له .

● ولمّا قالوا : إنه حمىٰ الحمىٰ . قال عثمان : وأما الحمىٰ فما حميته لإبلي ، ولاغنمي ، إنما حميته لإبل الصدقة لتسمن ، وتصلح ، وتكون أكثر ثمنا للمساكين .

قال عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ : « أما قولهم تناول أصحاب النبي ﷺ ، إنما أنا بشر ، أغضب وأرضىٰ ، فمن ادعىٰ قبلي حقًا ، أو مظلمة ، فهذا أنا ، فإن شاء قودٌ ، وإن شاء عفوٌ ، وإن شاء أرضِيَ »[٢] .

* * *

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن شبة (٣/ ١٠٣٧) .

(٢) حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في « المصاحف » (ص٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخه » (ص٢٤٢) .

قضية ولا أبا الحسن لها :

• علي بن أبي طالب ما زانته الخلافة بل زانها بعدله :

رضي اللَّه عن أبي الحسن : « يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، كانت حظوظه مع نفسه في طهرها وعدلها وتقاها رابية ووافية ، وكان عدله سامقًا يبقىٰ علىٰ مر الزمان مناراً لذوي الرشد والنهىٰ ، وكان ولاؤه للعدل ولاء مطبوعًا ، ولاء فطرة وولاء يقين .

يقول ـ رضي اللَّه عنه ـ : « أأقنع من نفسي أن يقال : أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان ؟ واللَّه لو شئت لكان لي من صفو هذا العسل ، ولُباب هذا البُّر ، ومناعم هذه الثياب ولكن ، هيهات أن يغلبني الهوىٰ ، فأبيت مبطانًا وحولي بطون غرثىٰ وأكباد حرّىٰ » .

قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٢/ ٢٨٤) : « قال علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ علىٰ المنبر في يوم الجمعة : « أيها الرعاء ، إن لرعيتكم حقوقًا : الحكم بالعدل ، والقسم بالسويّة ، وما من حسنة أحبّ إلىٰ اللَّه من حكم إمام عادل » .

• عن العلاء بن عمار أن عليًا ـ رضي اللَّه عنه ـ خطب الناس فقال : أيها الناس . . . والذي لا إله إلا هو ما رزأت[1] من مالكم قليلاً ولا كثيراً إلا هذه ـ وأخرج قارورة من كمّ قميصه فيها طِيب ـ فقال : أهداها إليّ الدِّهقان[2] ، ثم أتىٰ بيت المال فقال : خذوا ، ثم أنشأ يقول :

أفلح من كانت له قوصـــرة[3] يأكل منها كل يـــوم مرة[4]

---

(١) ما رزأت : أي ما أصبت ولا أخذت .

(٢) زعيم فلاحي العجم ، ورئيس إقليمهم .

(٣) القوصرة : وعاء التمر .

(٤) لا بأس به : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، وابن كثير في « البدية » (٨/ ٣) ، والذهبي في =

وفي رواية : طوبى لمن كانت له قوصرة .

● وعن عبد اللَّه بن زُرير ـ رحمه اللَّه ـ قال : دخلت مع علي ـ رضي اللَّه عنه ـ يوم الأضحى ، فقرّب إلينا خزيرة[١] ، فقلنا : أصلحك اللَّه ، لو أطعمتنا من هذا البط ، فإن اللَّه قد أكثر الخير ، فقال : يا ابن زرير ، إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لا يحلّ للخليفة من مال اللَّه إلا قصعتان : قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يطعمها بين الناس** »[٢] .

هكذا التقى الورع مع العدل ، وما أروع علي وهويتورع عن الأخذ من مال الأمة شيئًا زهيدًا : قال عنترة بن عبد الرحمن الشيباني : دخلتُ على عليّ بن أبي طالب بالخورنق ، وعليه قطيفة ، وهو يرعد من البرد ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن اللَّه قد جعل لك ، ولأهل بيتك نصيبًا في هذا المال ، وأنت ترعد من البرد ؟!!

فقال : إني واللَّه لا أرزأ من مالكم شيئًا ، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي ، أو قال من المدينة[٣] .

ومن عدالته : ما رواه علي بن ربيعة الوالبي ، قال : إن علي بن أبي طالب قد جاءه ابن النباج ، فقال : يا أمير المؤمنين ، امتلأ بيت مال المسلمين

= «تاريخ الإسلام» .

(١) طعام عبارة عن لحم يقطع صغارًا ، ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق ، وقيل الحساء من سمن ودقيق .

(٢) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٧٨) وفيه ابن لهيعة ، لكن الراوي عنه في رواية حرملة عن ابن وهب ، وهو أحد العبادلة .

(٣) صحيح : أخرجه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » ، وأبو نعيم في « الحلية » ، والذهبي في «تاريخ الإسلام » ، والخورنق : موضع بالكوفة .

من صفراء ، وبيضاء . فقال : اللَّه أكبر !! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين ، فقال :

هذا جناي وخياره فيه   وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباج ، عليّ بأشياع الكوفة ، قال : فنودي في الناس ، فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين ، وهو يقول : يا صفراء . . . ويا بيضاء . . . غرّي غيري . . . ها ، وها .

حقي ما بقي منه دينار ولادرهم ، ثم أمره بنضحه ، وصلى فيه ركعتين[1] .

● وعن علي بن الأرقم ، عن أبيه قال : رأيت عليًا ، وهو يبيع سيفًا له في السوق ، ويقول : من يشتري مني هذا السيف ، فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول اللَّه ﷺ ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته[2] .

كان ـ رضي اللَّه عنه ـ يمشي في أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسنّ الكهل ، فيحمل عنه حاجته ، ولا يسكن قصر الإمارة ويقول : « قصر الخبال هذا ، لا أسكنه أبدًا » وحين نتكلم عن أمير المؤمنين ـ رضي اللَّه عنه ـ فإنا نؤرخ للعظمة الإنسانية والعدل في نموذجه الباهر . . . هو الذي علَّم الأمة فقال أهل القبلة ولله دره حين يقول لعسكره : لا تقتلوا مدبرًا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقربوا النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم ، واذكروا

---

(١) حسن : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » .
(٢) صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٣) .

اللَّه كثيراً لعلكم تفلحون » .

للَّه در أبي الأسود الدؤلي حيث يقول في عليّ :

يقيم الحقّ لا يرتـــاب فيـــه ويعـــدل في العـــدى والأقربينا[١]

وللَّه در القائل :

أبا السِّبْطـين كيف تفي المعـاني نثـــارًا في مديحك أو نظامـــا
مقـام دونـه نُجُـبُ القـوافي وإن كانت مسوَّمـة كرامـا

وللَّه دره وهو يقول :

ونفسًا لم تذق طعم الدنايا ولا لذّت من الدنيـا طعـامًا
غذاها الدين مُذْ كانت فشبّتْ على التقوى رضاعا وانفطاما
ونشأهـا على كرم وأيـدٍ وصاغ من الجلال لها قـوامًا
ذكت فسـمَتْ عن الدنيـا طلابا وأضنى حبهـا قـومًا وتـامًا[٢]
طوى عنها على الضـرّاء كشحـًا وعاف نُصـارها تبـرا وسَاما

* * *

وأكبر همّه مذ كان طفلاً حدود اللَّه يحرص أن تقامًا
يذل لعزها نفسًا ويرضى لدفع الضيم عنها أن يضامًا
إذا ما رنّ صوت الحق منه تولّى الإفك وانحطم انحطامًا[٣]

---

(١) « تاريخ الطبري » (٥/ ١٥٠ ، ١٥١) ، و« أسد الغابة » (٤/ ١٢٤) .
(٢) تامه : أي تيّمه .
(٣) « العلوية » لمحمد عبد المطلب .

ولما طُعِن ـ رضي اللَّه عنه ـ ، وهو يتهيأ للصلاة ، بعد أن مرَّ بشوارع الكوفة يوقظ أهلها لصلاة الفجر . . . قال لبنيه بعد أن علم قاتله : «أحسنوا نزله ، وأكرموا مثواه ، فإن أعش ، فأنا أولىٰ بدمه قصاصًا أو عفوًا، وإن أمت ، فألحقوه بي ، أخاصمه عند رب العالمين ، ولا تقتلوا بي سواه ، إن اللَّه لا يحب المعتدين » .

وهذا مشهد لا نجد كلمات ترتفع إلىٰ مستواه !! مسك الختام في عدل وحياة الإمام .

بروحي إذ يجود بخير نفْس ... تخاف على الحنيفة أن تضاما

بنيّ العدلَ إن شئتم قصاصًا ... كفى بكتاب ربكم إماما

كتاب اللَّه لا تغلوا فإني ... أخاف عليكمُ ألا يُقاما

إلى دار السلام قضى عليّ ... وجاور في منازلها السلاما[1]

الإمام العادل :

والإمام العادل أبعد الناس عن ظلم الناس . . . ليس سفاحًا . . . ليس حجاجًا يقول الشاعر العربي في وصفه للحاكم الظالم تحت عنون « يوميات سفاح عربي » :

أيها النـاس .... أيها النـاس

لقد أصبحت سلطانًا عليكم فاعبدونى

فاكسروا أصنامكم بعد ضلال

إننى لا أتجلى دائمًا

---

(١) « العلوية » لمحمد عبد المطلب .

فاجلسوا فوق رأس الصبـر حتى تبصرونـــي
اتركوا أطفالكم من غير خبز واتبعونــي
احمــدوا اللّــه علــى نعمتــــه
فلقــد أرسلنــي كي أكتب التاريخ
والتاريخ لا يُكــتب دوني
إنني يوســف في الحســـن
ولم يخلق شعراً ذهبياً مثل شعري
وجبينــا نبــويــا كجبــيني
وعيوني غابة من شــجر الزيتــون واللوز
فصلـــوا دائمـــا كي يحفظ اللّه عيوني
أيهـــا النـــاس ... أيهـــا النـــاس
شــــرف أن تأكلــوا حنطة جسمي
شــرف أن تقطعــــوا لوزي وتينــــي
فأنـــا حادثــة ما حدثت منذ آلاف القرون
أيهـــا النـــــاس
أنا الأول والأعدل والأجمل بين جميع الحاكمين
وأنا مخترع المشنقة الأولى وخير المرسلين
كلما فكرت أن أعتزل السلطة ينهاني ضميري
مَن تُرى يحكمُ بعدي هؤلاء الطيّبين ؟
من سيشفي بعدي الأعرج والأبرص والأعمى ؟

ومَن يُحيـــي عظام الميتــين ؟
مَن تُرى يُخرج من معطفه ضوء القمر؟
مَنْ تُــرى يرســل للنــاس المطــر ؟
مَنْ تُرى يجلــدهم تسعــين جلْــدة ؟
مَنْ تُــرى يصلبهــم فــوق الشــجر ؟
مَنْ تُرى يرغبهم أن يعيشوا كالبقر ؟ ويموتوا كالبقر ؟
كلما فكَّرت أن أتركهم فاضت دموعي كغمامة
وتوكلت على اللّه وقررت بأن أركب الشعبَ
من الآن إلى يــوم القيامــة

***

أيهــا الناس ... أيهــا الناس
أنا أملككم كما أملك خيلي وعبيدي
وأنــا أمشــي عليكم مثلمــا
أمشــي عــلى سَجّــاد قصــري
فاسجــدوا لــي فــي قيــامي
واسجــدوا لــي فــي قعــودي
أو لـــم أعثــر عليــكم ذات يــوم
بـــين أوراق جـــدودي
حاذروا أن تقرأوا أي كتاب فأنا أقرأ عنكم
حاذروا أن تكتبوا أي خطاب فأنا أكتب عنكم
حاذروا أن تسمعوا القرآن بالسر

فـإني بنوايـاكم عليـم
حـاذروا أن تنشــدوا الشــعر أمامي
فهــو شيطان رجيــم
حـاذروا أن تدخلــوا القبــر بلا إذني
فهذا عندنا إثم عظيم
والزموا الصمت إذا كلمتكم
فكلامي هو قرآن كريم

* * *

أيهــا النــاس
أنا مَهْدِيُّكم فانتظروني
ودمي ينبض في قلب الدوالي .. فاشربوني
أوقفوا كل الأناشيد التى ينشدها الأطفال
فى حب الوطن فأنا صرت الوطن
إنني الواحد والخالد ما بين جميع الكائنات
وأنا المخزون في ذاكرة التفاح والنار
وهمس الأمنيات
ارفعوا فوق الميادين تصاويري
وغطوني بغيم الكلمات
واخطبوا لي أصغر الزوجات سنًا فأنا لست أشيخ
وشجوني لا تشيخ
وجهاز القمع في مملكتي ليس يشيخ

أيهـــــا النـــــاس

أنا الحجاج إن أنزع قناعي تعرفوني

وأنا جنكيز خان جئتكم

بحرابي وكلابي وسجوني

لا تضيقوا أيها الناس ببطشي

فأنا أقتل كيلا تقتلوني

وأنا أشنق كيلا تشنقوني

وأنا أدفنكم في ذلك القبر

الجماعي ... كيلا تدفنوني

أيها الناس .. أيها الناس

اشتروا لي صحفاً تكتب عني

اشتروا لي صحفاً تكتب عني

اشتروا لي ورقاً أخضر مصقولاً

كأعشاب الربيع

ومدادا ومطابع

كل شيء يُشترى في عصرنا

حتى الأصابع

اشتروا فاكهة الفكر

وخلّوها أمامي

واطبخوا لي شاعراً

واجعلوه بين أطباق طعامي

أنا أميٌّ عنده عقدة
مما يقول الشعراء
يتغنون بحُسني
اشتروا لي كل ما لا يُشترى
في أرضنا أو في السماء
اشتروا لي غابة
من عسل النحل
ورطلاً من نساء
فأنا بالعُملة الصعبة
أشترى كيف أريد
أشترى ديوان « حسان بن ثابت »
وشفاه المتنبي
وأناشيد لبيد
فالملايين التي في بيت مال المسلمين
هي ميراث قديم لأبي
فخذوا من ذهبي
واكتبوا في أمهات الكتب
أن عصري عصر هارون الرشيد
يا جماهير بلادي
يا جماهير الشعوب العربية
إنني روح نقي

جاء كي يغسلكم
من غبار الجاهلية
سجلوا صوتي على أشرطة
إن صوتي أخضر الإيقاع
كالنافورة الأندلسية
صورّوني وأنا أقطع كالتفاح
أعناق الرعية
صوّروني وأنا أفترس
الشعر بأسناني
وأمتص دماء الأبجدية
صوّروني بوقاري وجلالي
وعصاي العسكرية
صوّروني عندما أصطاد
وعلا أو غزالاً
صوروني عندما أحملكم
فوق أكتافي الأبية
يا جماهير الشعوب العربية(١)

* * *

(١) قصيدة « يوميات سفاح عربي » ، لنزار قبّاني بتصرف ـ جريدة الشعب ، عدد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٩٦ الصفحة الثالثة .

بالعدل قامت السموات والأرض :

كان رسول اللَّه ﷺ يبعث عبد اللَّه بن رواحة إلىٰ خيبر فيخرص بينه وبين يهود ، فجمعوا حُلِيًّا من نسائهم فقالوا : هذا لك وخفِّف عنا ، قال : يا معشر يهود ! واللَّه إنكم لمن أبغض خلق اللَّه إليَّ ، وما ذاك بحاملي علىٰ أن أحيف عليكم ، والرشوة سحت ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض[1] .

وفي رواية : « واللَّه لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ ولأنتم واللَّه أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم ، علىٰ أن لا أعدل فيكم » . . . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض[2] .

وعند ابن هشام (٢/ ٣٥٤) : « كان رسول اللَّه ﷺ يبعث عبد اللَّه بن رواحة خارصًا بين المسلمين ويهود ، فإذا قالوا : تعديت علينا ، قال : إن شئتم فلكم ،وإن شئتم فلنا ، فتقول يهود : « بهذا قامت السماوات والأرض » .

معاوية بن أبي سفيان ـ رضي اللَّه عنه ـ أعدل الملوك وأحلمهم :

ترجم له الذهبي بقوله : « أمير المؤمنين ملك الإسلام معاوية بن أبي سفيان أعدل الملوك وأحلمهم » .

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقضىٰ بحق من صاحب هذا الباب ، يعني معاوية .

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١/ ٢٣٧) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٢/ ٧٧٦ ـ ٧٧٧) .

وعن قبيصة بن جابر قال : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أثقل حلمًا ، ولا أبطأ جهلاً ، ولا أبعد أناة منه .

قال معاوية ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أوزن من حلمي » .

قال فيه أبو الجهم العدوي :

ونُغضبُه لنَخْبُــــرَ حالَتَيْـــهِ فنُخبَـــرَ منهمـــا كرما ولينا

نَميـــلُ على جوانبــه كأنّـــا نَميـلُ إذا نَميـلُ على أبيـــنا

وقال عنه عبد اللَّه بن الزبير : « للَّه در ابن هند ، إنْ كنَّا لنفرقه ، وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا ، وإن كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه ، فيتخادع لنا ، واللَّه لوددت أنَّا مُتِّعنا به ما دام في هذا الجبل حجر » .

وللَّه در هذا الملك العادل حيث يقول : « إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصرا إلا اللَّه » .

وقال : « إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو جهل أكبر من حلمي ، أو أن تكون عورة لا أواريها بستري » .

وقال : « ما يسرني بذُلِّ الحلم عزّ النصر » .

وسليمان بن عبد الملك يعقد عقدا ليس للشيطان فيه نصيب :

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥/ ١١١) : « كان دينًا فصيحا مفوَّها عادلاً محبّا للغزو » .

وقال عنه السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : « كان من خيار ملوك بني أمية ، وكان مؤثرًا للعدل محبًا للغزو » .

وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » (٩/ ١٩١) : « يرجع إلىٰ دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية ـ رحمه اللَّه ـ ولله دره ما أعظم عدله حين يترك بني أبيه ويعهد بإمرة المؤمنين من عبده والخلافة لعمر بن عبد العزيز قائلاً : « واللَّه ، لأعقدنَّ لهم عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب » .

عمر بن عبد العزيز أشج بنى أمية إمام عدل :

قال سفيان الثوري : « أئمة العدل خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز » . ، وقال : « لا أوافق رأىٰ أحد أحب إلىٰ من عمر بن عبد العزيز لأنه كان إمام هدىٰ »[1] .

وقال أحمد بن حنبل : « إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ، ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً ، إن شاء اللَّه »[2] .

وقال ميمون بن مهران : « إن اللَّه عز وجل تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز »[3] .

قال عمر بن العزيز لجلسائه : « ومن صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل إلىٰ ما لا أهتدي له ، ويكون لي علىٰ الخير عونا ، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحد ، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيّ هلا به ، وإلاّ

(١) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، تحقيق نعيم زرزور ، (ص٧٣) ـ دار الكتب العلمية .
(٢) المصدر السابق (ص٧٤) .
(٣) المصدر السابق (ص٧٤) .

فهو خرج من صحبتي والدخول عليَّ »[١] .

قال سفيان بن عيينة : « لما رجع عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان ، كان أول شيء راعهم منه ، حين قدَّموا إليه مركبه ، فقال : أخروه ، فقربوا إليه بغلته ، فركبها ، فلما أن رجع إلىٰ منزله دخل ، فقال له مولاه : يا أمير المؤمنين ، كأنك مهتم ؟ فقال : لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممت ، إنه ليس من أمة محمد ، في مشرق ولا مغرب ، أحد إلاّ له قبلي حق يحق عليّ أداؤه إليه ، غير كاتب إلي فيه ، ولا طالبه مني »[٢] .

قال مالك بن دينار : « لما ولىٰ عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ قالت رعاة الشاء في ذروة الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام علىٰ الناس ؟ فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : إنا إذا قام علىٰ الناس خليفة صالح ، كفَّت الذئاب والأسد عن شأننا »[٣] .

بأبي وأمي ذلكم الإمام الرباني العادل الذي كان يستدرج الناس إلىٰ الخير والعدل فعن ميمون بن مهران، أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال : يا أبةِ ! ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فواللَّه ما كنت أبًا لي ، لوْ غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك ، قال : يا بُنَيَّ ! إنما أروض الناس رياضة الصعب ، إن لأريد أن أحيي الأمور من العدل ، فأوخز ذلك حتىٰ أخرج معه طمعًا من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : ما طاوعني الناس علىٰ ما أردت من الحق ، حتىٰ

---

(١) المصدر السابق (ص٧٩) .
(٢) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص٦٥) .
(٣) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص٨٧) .

بسطت لهم من الدنيا شيئًا »[١] .

قال عمر ـ رحمه اللَّه ـ لميمون بن مهران : كيف لي بأعوان على هذا الأمر أثق بهم وآمنهم ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا تشغل قلبك بهذا ، فإنك سوق ، وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ، فإذا عرف أن النافق عندك الصحيح ، لم يأتوك إلا بالصحيح .

ولما استخلف ـ رحمه اللَّه ـ جاءه الناس من كل مكان ، فجلس على المنبر ، وحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس ! فالحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم ها هنا وأذكركم في بلادكم ، وإني قد استعملت عليكم عمالاً ، لا أقول هم خياركم ، فمن ظلمه عامل بمظلمة ، فلا إذن له عليَّ ليأتيني ، وايم اللَّه لئن كُنتُ منعت نفسي وأهلي هذا المال ، ثم ضننت به عليكم إني إذا لضنين، واللَّه لولا أن أنعش سُنَّة ، وأسير بحق ما أحييت أن أعيش فواقًا »[٢] .

وكتب ـ رحمه اللَّه ـ في المحابس : « لا يقيد أحد بقيد يمنع من تمام الصلاة » .

كتابه إلى أهل الموسم :

كتب عمر ـ رحمه اللَّه ـ إلى أهل الموسم : « أما بعد ، فإني أُشهد اللَّه ، وأبرأ إليه في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر ، أني بريء من ظلم من ظلمكم ، عدوان من اعتدى عليكم ، أن أكون أمرت بذلك ، أو رضيت ، أو تعمدته ، إلا أن يكون وهما مني ، وأمرًا خفي عليَّ لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عني ، مغفورًا لي ، إذا عُلم مني

---

(١) المصدر السابق (ص٨٨) .

(٢) المصدر السابق (ص٨٩) .

الحرص والاجتهاد ، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني ، وأنا معول كل مظلوم ، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم ، ألا وإنه لا دولة ببرٍّ أغنيائكم ، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم ، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح اللَّه به ، خاصة و عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار على قدر ما نوى من الحسبة ، وتجشُّم من المشقة ، فرحم اللَّه امرءًا لم يتعاظمه سفر يحيي اللَّه به حقًا لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورًا من الحق أحياها اللَّه لكم ، وأمورًا من الباطل أماتها اللَّه عنكم ، فلا تحمدوا غيره ، ولو وكلني إلى نفسي كنت كغيري ، والسلام عليكم »[1] .

عدله بين الخصوم :

قال الحكم بن عمر الرعيني : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكل بخصومتك من شئت ، وإلا فجاثي القوم بين يدي ، فوكل مولى له بخصومته ، فقضى عليه بالناعورة .

للَّه دره من إمام عادل :

انظر إلى عدله الرائع الباهر وموقفه الجميل من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق ، فقد كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءًا كبيرًا من كنيسة يوحنا ليقيم عليه امتداد المسجد الأموي ، وصار هذا الجزء مسجدًا ، وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطي تعويضًا سخيًا

(١) المصدر السابق (ص٩١) .

أو أرضًا بديلة ، لكن « ابن عبد العزيز » ، يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا ، إنه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التي أقيم عليها إلى الكنيسة !! .

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره ، ولكن أمير المؤمنين أصدر أمرًا جديدًا حدد فيه اليوم بل الساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم !! .

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة في دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقًا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم ، ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق، فيحمد اللّه عليه ، ثم يقره ويرضاه !![1] .

وعن عبيدة بن حسن السنجاري أن رجلاً من أهل أذربيجان أتى عمر ابن عبد العزيز فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكر بمقامي هذا مقامًا لا يشغل اللّه عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكى بكاءً شديدًا ، ثم قال : ويحك، اردد عليّ كلامك هذا ، فجعل يردده عليه وعمر يبكي وينتحب ، ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : إن عامل أذربيجان عدا عليَّ فأخذ مني اثنا عشر ألف درهم ، فجعلها في بيت مال المسلمين ، فقال عمر : اكتبوا له الساعة ، إلى عاملها حتى يرده إليه - أو عليه[2] .

---

(١) « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد (ص٥٨٠ - ٥٨١) - طبع دار الجيل .

(٢) « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص٩٢ - ٩٣) .

وانظر إلى قول عمر ـ رحمه اللَّه ـ : « ما من طينة أهون عليَّ فتًا ، ولا من كتاب أيسر عليَّ ردًا من كتاب قضيت به ، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتنتها »[١] .

وعن غيلان بن ميسرة أن رجلاً أتى عمر بن عبد العزيز فقال : زرعت زرعًا فمر به جيش من أهل الشام فأفسده ، فعوضه منه عشرة آلاف درهم[٢] .

رفقه ـ رحمه اللَّه ـ بالحيوان :

وانظر ما بلغ عدله ورفقه :

قال أبوعثمان الثقفي : كان لعمر بن عبد العزيز غلام على بغل له يأتيه بدرهم كل يوم ، فجاءه يومًا بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ، قال : نفقت السوق ، قال : لا ، ولكنك أتعبت الخيل ، أجمه ثلاثة أيام »[٣] .

ويكتب عمر إلى واليه على مصر : « أما بعد ، فقد بلغني أن الحمَّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ماتطيق . . . فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل » .

يا لها من قصةٍ باهرةٍ تريك قلب عمر الكبير :

للَّه در عمر ، ما هتفت به حاجه فرد ولا مظلمة مظلوم في أدنى الأرض وأقصاها ، إلا ألفته وكأنه في انتظارها وحدها !! ويتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ، وصغار الأمور عنده مثل كبارها ، فانظر : « كتبت إليه

---

(١) المصدر السابق (ص٩٣) .
(٢) المصدر السابق (ص٩٧) .
(٣) المصدر السابق (ص٩٧) .

سوداء مسكينة تسمىٰ « فرتونة السوداء » من الجيزة بمصر ، أن لها حائطًا متهدمًا لدارها ، يتسوره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل .

فيكتب عمر إلىٰ واليه علىٰ مصر « أيوب بن شرحبيل » : « من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين ، إلىٰ أيوب بن شرحبيل ، سلام اللَّه عليكم .

أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إليَّ تشكو إليَّ قصر حائطها ، وأنَّ دجاجها يُسرق منها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فاركب بنفسك وحصِّنه لها » .

وكتب إلىٰ فرتونة : « من عبد اللَّه عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلىٰ فرتونة السوداء : سلام اللَّه عليك ، أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك ، حيث يُقتحم عليك ويُسرق دجاجك . . . وقد كتبت إلىٰ أيوب بن شرحبيل ، آمره أن يبني لك الحائط حتىٰ يُحصِّنه مما تخافين ، إن شاء اللَّه » ، يقول ابن عبد الحكم راوىٰ هذه القصة الباهرة : «فلما جاء الكتاب إلىٰ أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتىٰ أتىٰ الجيزة ، وظل يسأل عن فرتونة حتىٰ وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلىٰ لها حائطها » ، رحمة وإحسان وعدل وأُبُوَّة ، لا يفلت منها شاردة ولا واردة!!

ملاحظته لعماله ومكاتبته إياهم في القيام بالعدل :

رحم اللَّه أَشَجَّ بني أمية فإن موقفه من أموال الأمة لعجيب ، ثم عجيب!! انظر باللَّه عليك ثم خبرني عن وجيب قلبك ألا ينبض بحب هذا الصدِّيق العادل :

كتب إلىٰ عماله أن لا تكتُبُنَّ في طومار[1] بقلم جليل ، ولا تَمُدُنَّ

(١) صحيفة .

فيـه . وكانت كتبه شبرا أو نحو ذلك[١] .

وكتب ـ رحمه اللَّه ـ إلىٰ أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم واليه علىٰ المدينة :

« أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، الذي كتبت به إلىٰ سليمان بن عبد الملك وكنت الُمبتلىٰ بالنظر فيه دونه ، كتبت تسأله أن يقطع لك من الشمع مثل الذي كان يقطع لمن قبلك ، وتذكر أن الشمع الذي قبلك نفد .

ولعمري لقد طالما رأيتك تخرج من منزلك إلىٰ مسجد رسول اللَّه ﷺ ، في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم ، والسلام عليك .

وكتبت تسأله أن يقطع لك شيئًا من القراطيس ، مثل الذي كان يقطع قبلك ، فأدِقَّ قلمك ، وقارب بين سطورك واجمع حوائجك ، فإني أكره أن أُخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به ، والسلام »[٢] .

يا خالق عمر سبحانك !!

ما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعًا وأقلامًا وورقًا ، وإنما المسألة في وعي « الحاكم القديس » هي حرمة هذه الأموال وقداستها . . . هي درجة الولاء لمسئولية رعياتها وحفظها . . . وهكذا يُرسىٰ لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

وانظر مع هذا إلىٰ فرحه بدخول فرد واحد إلىٰ نور الإسلام وهُداه ،

---

(١) « مناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص٨٨ ، ١٠٠) .

(٢) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٠٠ ـ ١٠١) .

وأن هذا عنده خير من ملء الأرض مالاً وذهبًا .

يرسل إليه عدي بن أرطاة واليه على العراق : « إن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجًا حتى خشيت أن يقل الخراج ، فيجيبه الخليفة المقسط العظيم بكلماته الوضيئة : « إن اللّه بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا ، واللّه ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى تكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا ! » .

وكتب إلى واليه على اليمن « عروة بن محمد » :

« أما بعد فقد كتبت إليّ تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقها كالجزية يؤدونها على كل حال . . . إن أخصبوا أو أجدبوا . . . إن حيوا ، أو ماتوا ، فسبحان اللّه رب العالمين ! ! ثم سبحان اللّه رب العالمين ! ! إذ أتاك كتابي هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق . . . واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1] فقد علم اللّه أني سأكون بها مسرورًا ما دام في ذلك بقاء على الحق والعدل . . . !!! » .

ويكتب إليه عنبة بن سعيد وهوأحد المقرّبين إليه يسأله حاجة لنفسه فقال له : « يا عنبة ، إن يكن مالك الذي عندك حلالاً ، فهو كافيك ، وإن يكن حرامًا ، فلا تضيفن إليه حرامًا جديدًا . . . أخبرني يا عنبة . . . أمحتاج أنت . . . ؟ قال : لا . . . أفعليك دين ؟ لا ، إذن فكيف تطمع في أن أعمد إلى مال اللّه فأعطيكه في غير حاجة ، وأدع فقراء المسلمين؟! لو كنت غارمًا ، لأديت عنك غرمك . . . أو محتاجًا لأمرت لك بما يصلح

---

(١) الكتم : نبات يخفف به الشعر ، وصنع منه مداد الكتابة .

شأنك فليكن لك في مالك غناء . . . واتق اللَّه ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين »[١] .

وكتب إلى ولاته : « لابد لكل مسلم من مسكن يأوي إليه، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فوفروا ذلك كله، ومن كان غارمًا ، فاقضوا عنه دينه !!! » .

وراح الميمون المبارك ينشئ في طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل ، ويمد بيت المسلمين بمطابخ ، وأمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة ، ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة ، وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين فقضى عنهم ديونهم ، وافتدى أسرى المسلمين جميعًا ، وأغدق عليهم العطاء ، وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم ، وأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته وليس بعد فطامه .

وهكذا تحولت شهقات البائسين إلى بسمات متهللة وفرح غامر وللَّه دره وهو يقول : « قرة عين الملوك في استفاضة الأمن في البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائهم عليهم » .

العجب كل العجب من استئذانك إيّاي في عذاب بشر !!! :

كتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز : « من عدي بن أرطأة ، أما بعد ، أصلح اللَّه أمير المؤمنين ، فإن قبلي أناسًا من العمَّال قد اقتطعوا من مال اللَّه وعز وجل مالاً عظيمًا ، لست أرجو استخراجه من أيديهم ، إلا أن

---

(١) « خلفاء الرسول » (ص٥٧٤) .

أمسهم بشيء من العذاب ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أصلحه اللَّه أن يأذن لي في ذلك ، أفعل » .

فأجابه عمر : « أما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر ، كأني جُنَّة من عذاب اللَّه ، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط اللَّه عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول ، فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقرَّ لك بشيء فخذه بما أقرَّ به ، ومن أنكر فاستحلفه باللَّه العظيم ، وخلِّ سبيله ، وأيم اللَّه ، لأن يلقوا اللَّه عز وجل بخياناتهم أحبَّ إليَّ من أن ألقىٰ اللَّه بدمائهم ، والسلام »[1] .

وكتب إلىٰ عامله علىٰ خراسان الجراح بن عبد اللَّه : « بلغني أنك استعملت عمارة ، ولا حاجة لي بعمارة ، ولا بضرب عمارة ، ولا برجل قد صبغ يده في دماء المسلمين فاعزله » .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ ينهي عمَّاله عن صنائع الحجَّاج الثقفي فكتب إلىٰ عدي بن أرطأة : « أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتب كثيرة أرجو بذلك الخير من اللَّه تعالىٰ ، والثواب عليه ، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج بن يوسف ، وأرغب عنها وعن اقتدائك به ، فإن الحجاج كان بلاء وافق خطيئة قوم بأعمالهم ، فبلغ اللَّه عز وجل في مدته ما أحب من ذلك ، ثم انقطع ذلك ، وأقبلت عافية اللَّه عز وجل ، فلو لم يكن ذلك إلا يومًا واحدًا أو جمعة واحدة ، كان ذلك عطاء من اللَّه عز وجل » .

وقال عن الحجاج : « إن اللَّه عز وجل قد أراح منه ، وطهَّر العباد والبلاد من شره » .

---

(١) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٠٣) .

وقال عنه : «لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة ، فأخرجت كل أمة خبيثها ، ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم »[1] .

واستعمل عمر ـ رحمه اللَّه ـ عاملاً ، فبلغه أنه عمل للحجاج فعزله ، فأتاه يعتذر إليه ، فقال : لم أعمل له إلا قليلاً ، قال : « حسبك من صحبة شر يوم أو بعض يوم »[2] .

وبعث عمر ـ رحمه اللَّه ـ بآل أبي عقيل . . . أهل بيت الحجاج . . . إلى صاحب اليمن وكتب إليه : « أما بعد ، فإني قد بعثت إليكم بآل أبي عقيل ، وهم شر بيت في العرب ، ففرقهم في عملك على قدر هوانهم على اللَّه وعلينا ، وعليك السلام »[3] وإنما نفاهم .

حصّن مدينتك بالعدل :

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه : « أما بعد ، فإن مدينتنا قد خربت ، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا ما نرمّها به فعل » ، فكتب إليه عمر : « أما بعد ، فقد فهمت كتابك ، وما نكرت أن مدينتكم قد خربت ، فإذا قرأت كتابي هذا فحصِّنها بالعدل ، ونقِّ طرقها من الظلم فإنه مرمتها ، والسلام »

وكتب إليه واليه على خراسان يستأذنه في أن يرخِّص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلاً في رسالته له : « إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط » فكان رده التقي الحازم « كذبت . . . بل يصلحهم العدل

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٨) .
(٢) المصدر السابق (ص١٠٨) .
(٣) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٠٩) .

والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم أن اللّه لا يصلح عمل المفسدين » .

وكذا لما أرسل إليه صالح بن عبد الرحمن وصاحب له يعرضان له مثل ما قال واليه على خراسان فكتب إليهما « خبيثين من الخبث ، دريئين من الردئ ، تعرضان لي بدماء المسلمين ؟ ما أحد من الناس إلا ودماؤكما أهون عليَّ من دمه » .

نعم . . . الحق والعدل بهما وعليهما قام منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ستمضي خطاه . . . آخذا معه على ذات الطريق جميع الناس ، أمراءهم وعامتهم ، أغنياءهم ، وفقراءهم . . . أقوياءهم وضعفاءهم .

الخليفة الذي نراه نراه دائم البكاء ، بل النحيب كلما ذكر اللّه واليوم الآخر . . . والذي ينتفض تحت تقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد ! ! هذا الخليفة يبهرنا ونحن نطالع منهجه وأسلوبه في الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المُنثالة روح عالية تناضل في جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق . . . حيث تُطلُّ علينا كذلك بصيرة نافذة لا يُفلت من ضيائها شيء ، ورادة حازمة لا يهولها صعب ، لا يُجفلها خطر .

ولقد أحسن عمر اختيار ولاته ، وقضاته ، وأمناء بيوت المال ، وأحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في اللّه لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل وإن قطعت منهم الرقاب ، وكان أول ما أوصاهم به : « كونوا في العدل والاصلاح والإحسان بقدر ما كان من قبلكم في الظلم والفجور والعدوان ! ! » .

وراحت أضواء قداسته وعدله وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية وَسِعت الدولة كلها والأمة

جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق .

عمر بن عبد العزيز مع بني أمية :

لله در رجاء بن حيوة من رجل اختارته المقادير ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لعمر الحاكم الورع العادل الطهور ، حين أشار على سليمان بن عبد الملك بذلك .

ولله در سليمان حين يقول عبارته الباهرة : « والله لأعقدن لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » ، فأوصى لعمر الذي ليس للشيطان فيه نصيب .

ولله در عمر رجل القداسة والعدل يقف لقومه بني أمية كالقدر ، ويُحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم يدفع بهم جميعًا أمامه على طريق العدل والحق ، مصفِّيا ترفهم المنهوم .

عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : لمَّا ولي عمر بن عبد العزيز ، جعل لا يدع شيئًا مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلا ردَّها مظلمة مظلمة فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك فكتب إليه :

« إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم بغضًا لهم وشنآنا لمن بعدهم من أولادهم ، قطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدوانًا ، يا ابن عبد العزيز ! اتق الله وراقبه إن شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور ، فوالذي خصَّ محمد ﷺ ، بما خصَّه به ، لقد أزددت عن الله بعداً في ولايتك هذه إذ زعمت أنها عليك بلاء ، فاقصر بعض ميلك ، واعلم بأنك بعين جبار وفي قبضته ، ولن تترك على هذا » .

فردَّ عليه أشجَّ بني أمية رد الأسد الذي يزأر ، والجلال الذي يهاب ،

وتحوّل الإنسان الوديع ، العذب الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة . . . و يكتب إلى « فرتونة السوداء » خطابه الجميل . . . تحول إلى إعصار مُدمـــدم أمام جبروت الباطل أنَّى يكون ، وكتب العادل عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن عبد الوليد :

« ﴿ بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴾ من عبد اللَّه عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عمر بن عبد الوليد ، السلام على المرسلين والحمد للَّه رب العالمين .

أما بعد ، فإنه بلغني كتابك وسأجيبك بنحو فيه ، أما أول شأنك يا ابن الوليد كما زعم ، فأمك بنانة أمة السكون ، كات تطوف في سوق حمص وتدخل في حوانيتها، ثم اللَّه أعلم بها اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأت فكنت جبارًا عنيدًا ، تزعم أني من الظالمين لم حرمتك وأهل بيتك فيء اللَّه عز وجل ، الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم مني ، وأترك لعهد اللَّه ، من استعملك صبيًا سفيهًا على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما اكثر خصماؤكما يوم القيامة ؟ وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وإن أظلم مني ، وأترك لعهد اللَّه، من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب ، يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم مني، وأترك لعهد اللَّه ، من استعمل قرَّة بين شريك أعرابيًا جافيا على مصر ، أذن له في المعازف واللهو والشرب .

وإن أظلم مني ، وأترك لعهد اللَّه ، مَنْ جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس العرب .

فرويدًا يا ابن بنانة ، فلو التقت حلقتا البطان ، ورُدَّ الفيء إلى أهله ،

لتفرَّغت لك ولأهل بيتك ، فوضعتهم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيَّات الطريق ، وما وراء هذا من الفضل ، ما أرجو أن أكون رأيته ، بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكل فيك حقًا ، والسلام علينا ، ولا ينال سلام اللَّه الظالمين » .

وعن علي بن أبي حملة وابن شوذب ، قال : كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر ابن عبد العزيز كتابًا يغلظ له ، فكتب عمر :

« إن أظْلَمَ منِّي وأجْوَرَ ، مَنْ ولَّى عبد ثقيف العراق فحكم في دمائهم وأموالهم ، إن أظلم مني وأجور ، وأترك لعهد اللَّه من ولى قرَّة مصر جلفًا جافيًا وإن أظلم مني وأجور ، وأترك لعهد اللَّه من ولى عثمان بن حيان الحجاز ، فأنشد الأشعار على منبر رسول اللَّه ﷺ ، وإنما أمك كانت تختلف إلى حوانيت حمص ، فاشتراها ذبيان بن ذبيان ، فبعث بها إلى أبيك فحملت ، فبئس الجنين وبئس المولود ، ثم وضعتك جباراً شقيًا ، لقد هممت أن أبعث إليك من يحلق جمتك فبئس الجمة »[1] .

ومما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد :

« . . . وقسَّم أبوك لك الخمس كله ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حق اللَّه ، وحق الرسول وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة ، فكيف ينجو من كثر خصماؤه ؟ وإظهار المعازف والمزامير بدعة في الإسلام ، لقد هممت أن أبعث إليك من يجزُّ جمتك ، جمة السوء . . . » .

قال الأوزاعي : لما قطع عمر بن عبد العزيز على أهل بيته ما كان

---

(١) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٣٣ ـ ١٣٥) .

يجري عليهم من أرزاق الخاصة ، وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ، تكلم في ذلك عتبة بن سعد فقال : يا أمير المؤمنين ! إن لنا قرابة ، قال : « لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد ، فلا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه ، والله ، إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم ، لنزلت بهم بائقة من عذاب الله » .

لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم :

قال جويرية بن أسماء : « قال عمر بن عبد العزيز لآذنه : لا يدخل عليّ اليوم إلاّ مروانيّ ، فلما اجتمعوا عنده ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا بني مروان : إنكم قد أعطيتم حظًا وشرفًا وأموالاً ، إني لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم » .

فسكتوا ، فقال عمر : ألا تجيبوني ؟ فقال رجل من القوم : والله لا يكون ذلك حتى يُحال بين رءوسنا وأجسادنا ، والله لا نكفِّر آباءنا ، ولا نفقِّر أبناءنا .

فقال عمر : « والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم ، قوموا عني » .

وقال ابن وهب : حدثني مالك أن عمر بن عبد العزيز ذكر ما مضى من الجور والعدل ، وعنده هشام بن عبد الملك ، فقال هشام : إنا والله لا نعيب آباءنا ، ولا نضع شرفنا في قومنا ، فقال عمر : وأي عيب أعيب ممن عابه القرآن؟ »[1] .

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٦ ـ ١٣٧) .

لأسكرن تلك السواقي حتى أجريه مجراه الأول :

عن نوفل بن الفرات ، أن عمر بن عبد العزيز قال لعمته : « يا عمة ! إن رسول اللَّه ﷺ قُبض ، وترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر بعده رجل فلم يستخص منه بشيء ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك رجل آخر فلم يستخص منه بشيء ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك رجل آخر فكرىٰ منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي حتىٰ تركوه يابسًا ليس فيه قطرة ، وايم اللَّه ، لئن أبقاني اللَّه لأسكرن تلك السواقي حتىٰ أجريه مجراه الأول »[1] .

كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني اللَّه شره :

ولما دخلت عليه عمته أم عمر بعد أن أخذ القطائع التي كانت في أيدي بني أمية ، قالت له : « إن قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : ما منعتهم حقًا أو شيئًا كان لهم ، فقالت : إني رأيتهم يتكلمون ، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا ، قال : « كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا وقاني اللَّه شره ، ودعا بدينار وجنب ومجمرة ، فألقىٰ ذلك الدينار في النار ، وجعل ينفخ علىٰ الدينار ، حتىٰ إذا احمرَّ تناوله بشيء ، فألقاه علىٰ الجنب ، فنشَّ وقتر ، فقال : أي عمة ! أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ فقامت فخرجت علىٰ قرابته فقالت : تزوجون آل عمر ، فإذا نزعوا إلىٰ الشبه جزعتم اصبروا له »[2] .

وفي رواية : « لا تلومون إلا أنفسكم ، عمدتم إلىٰ صاحبكم

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٧) .
(٢) المصدر السابق (ص١٣٨ - ١٣٩) .

فزوجتموه بنت ابن عمر ، فجاءتكم بعمر » .

إني وجدت كتاب اللَّه الأقدم ، فأنا حامل عليه من أتاني :

قال عمر بن علي بن مقدم : « قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم : إني لي حاجة إلىٰ أمير المؤمنين عمر ، قال : فاستأذنت له ، فقال : أدخله ، فأدخلته علىٰ عمر ، فقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين ! علىٰ ما ترد عليَّ قطيعتي ؟ قال : معاذ اللَّه أن أردَّ قطيعة رسخت في الإسلام ، قال : فهذا كتابي فأخرج كتابًا من كمه ، فقرأه عمر ، فقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج ، قال عمر : فهو أولىٰ بما له ، قال : يا أمير المؤمنين ، فإنها من بيت مال المسلمين ، قال : فالمسلمون أولىٰ بها ، قال : يا أمير المؤمنين ردَّ عليَّ كتابي ، قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به ، فلاندعك تطالب بباطل .

قال : فبكىٰ ابن سليمان : قال مزاحم : فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابن سليمان تصنع به هذا ؟ قال : ويحك يا مزاحم ! إنها نفسي أحاول عنها ، وإني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي .

ودخل هشام بن عبد الملك علىٰ عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين ! إني رسول قومك إليك ، وإن في أنفسهم ما أكلمك به ، إنهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وبين ما ولوا ، بما عليهم ولهم ، فقال له عمر : أرأيت إن أتيت بسجلين : أحدهما من معاوية ، والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأىٰ السجلين آخذ ؟ قال : بالأقدم ، فقال عمر : فإني وجدت كتاب اللَّه الأقدم ، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني .

وقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان : يا أمير المؤمنين ! امض

لرأيك فيما وليت بالحق والعدل ، وخلِّ عمن سبقك وما ولي ، فخيره وشره ، فإنك مكتف بذلك ، فقال له عمر : أنشدك اللَّه الذي إليه نعود أرأيت لو أن رجلاً هلك ، وترك بنين صغاراً وكباراً ، فعز الأكابر الأصاغر بقوتهم ، فأكلوا أموالهم ، فأدركك الأصاغر فجاءوا بهم وبما صنعوا في أموالهم ، ما كنت صانعًا ؟ قال : كنت أرد عليهم حقوقهم حتىٰ يستوفوها ، قال : فإني وجدت كثيراً ممن قبلي ، من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم ، وعزَّهم بها أتباعهم ، فلما وليت أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد علىٰ الضعيف من القوي وعلىٰ المستضعف من الشريف فقال : وفقك اللَّه يا أمير المؤمنين »[1] .

للَّه درك يا عمر . . . قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : وذكر عمر ابن عبد العزيز ، ما كان أشده علىٰ بني أمية .

نعم . . . إنه عمر الذي يصدع بالحق قبل أن يتولىٰ الخلافة . . . لما قال سليمان بن عبد الملك : ما أخال النساء يرثن في العقار شيئًا : فقال له عمر : سبحان اللَّه ! وأين كتاب اللَّه ؟ فقال : يا غلام : اذهب فأتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك ، فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلي المصحف ؟ وفي رواية أخرىٰ ، قال : إلي المصحف أرسلته ، قال : أيوب بن سليمان ، واللَّه ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ، ثم لا يشعر حتىٰ يفارقه رأسه ، فقال له عمر : إذا أفضىٰ الأمر إليك وإلىٰ مثلك فما يدخل علىٰ أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا ، فغضب عند ذلك سليمان وسبَّ ابنه وقال له : لأبي حفص تقول هذا !

---

(١) « المصدر السابق (ص١٣٩ ـ ١٤١) .

نعم لقد صار الحق والعدل وحده هو الفيصل والحكم ، فلا صكوك ولا مواثيق إلا صكوك الحق والعدل ومواثيقه . . . ولا رحم ولا قرابة إلا رحم الحق وقرابته .

للَّه دره حين يقول : « واللَّه ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي لأمضيت ذلك وأنا سعيد !! » .

للَّه دره وهو يقول : « واللَّه ، لو لبثت فيكم خمسين عامًا ، ما أقمت إلا ما أريد من العدل !! » .

للَّه دره وهو يكتب إلىٰ كبير الخوارج الذين خرجوا بسلاحهم علىٰ الأمة : « . . . أما بعد ، فقد بلغني أنك خرجت غضبًا للَّه ورسوله . . . ولست أولىٰ بذلك مني . . . فهلم أناظرك . . . فإن يكن الحق معنا تدخل فيه ، وإن يكن الحق معك ، نراجع أنفسنا ، وننظر في أمرنا . . !! » .

ويكتب عمر إلىٰ حاكم الموصل لما اشتكىٰ له من حرورية الموصل فقال : إذا رأوا أن يسيحوا في البلاد في غير أذىٰ لأهل الذمة . . . وفي غير أذىٰ للأمة فليذهبوا حيث شاءوا . . . وإن نالوا أحدًا من المسلمين ، أو من أهل الذمة بسوء ، فحاكمهم إلىٰ اللَّه . . . » .

قال ابن الجوزي : « لما بلغت الخوارج سيرة عمر ، وما ردَّ من المظالم ، اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل »[1] .

إنه عمر الإمام العادل الذي قال : « لو كان كل بدعة يميتها اللَّه علىٰ يدي ، وكل سنة ينعشها اللَّه علىٰ يدي ببضعة من لحمي ، حتىٰ يأتي آخر

---

(١) المصدر السابق (ص٦٧) .

ذلك على نفسي ، كان في اللَّه يسيراً » .

إنه عمر الذي يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة : « سلام عليك ، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة ، وجور في أحكامهم ، وسنن خبيثة سنَّها عليهم عُمَّال السوء ، وإن أقوم الدين العدل والإحسن ؛ فلا يكوننَّ شيء أهم إليك من نفسك أن تُوَطِّنها لطاعة اللَّه ، فإنه لا قليل من الإثم »[1] .

إنه عمر الإمام العادل الذي يخرج متنكراً ومعه غلامه مزاحم إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين يسأل الغادين والرائحين عن بلادهم . . .

يقول لرجل : كيف تركت الناس في بلدك ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعت لك خبري ، وإن شئت بعضتُّه تبعيضاً .

فقال عمر : بل اجمعه ، فقال الرجل : « تركت البلاد الظالم بها مقهور ، والمظلوم منصور ، والغني موفور ، والفقير مجبور . . . » وتحدرت الدموع من عيني عمر وهو يقول لمزاحم : « واللَّه لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحبَّ إلي مما طلعت عليه الشمس » .

نعم . . . للَّه درك . . . ما كان في الحياة بأسرها متعة تشيع في روحك البهجة مثل أن ترى وتسمع أن ظلماً قد دُحِض ، وأن عدلاً قد نهض .

نعم . . . إنه عمر القائل : « لا تتَّخذوا على أبوابكم حُجَّابا يمنعون

---

(١) المصدر السابق (ص١١٤) .

ذوي الحاجات والمظلومين » .

إنه عمر الذي يكتب إلىٰ ولاته : « تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطكم والعاملين معكم، وأكثروا المسألة عنهم حتىٰ تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشًا ولاظلمًا » .

إنه عمر الذي يقول لولاته ويكتب : « تحرَّوا الحق ، ثم اعملوا به بالغًا ما بلغ بي وبكم . . . حتىٰ وإن ذهب بحياتنا وبمُهَج أنفسنا . . !! » .

إنه عمر الصديق غيَّر في أثناء حكمه أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير .

قداسة وصديقية جاءت الحياة ومعها الزهد ، والورع ، والطهر ، والتُّقىٰ، والعدل ، والرحمة ، ما كان يحسبون أن الدنيا فرغت منه إلىٰ الأبد ، قداسة لم تكد تجلس علىٰ الأرض فور توليها الخلافة حتىٰ أنبتت الأرض عدلاً ورحمة ، وأمطرت السماء عدلاً ورحمة . . . ورعىٰ الذئب مع الشاة، في تآخ وسلام .

إنه عمر الذي يكتب إلىٰ سالم بن عبد اللَّه بن عمر : « قد رأيت أن أسير في الناس بسيرة عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ، إن قضىٰ اللَّه ذلك واستطعت إليه سبيلاً ، فابعث إليّ بكتب عمر وقضائه في أهل القبلة وأهل العهد ، فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن شاء اللَّه تعالىٰ ، فاسأل الذي ابتلاني من أمر هذه الأمة بما ابتلاني به أن يعينني علىٰ ما ولاَّني وأن يرزقني منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وأن يرزقهم مني الرأفة والمعدلة » .

إنه عمر الذي بكاه بعض الرهبان لما مات ، وترحم عليه ، فقال له

مجاهد : لم تترحم عليه وليس هو على دينك ؟ فقال : إني لا أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ . . .

إنه العادل الذي بكاه إمبراطور الروم « ليو الثالث » بكاءً مرًا أذهل حاشيته وأساقفته وقال : « مات واللَّه ملك عادل ، ليس لعدله مثيل !! واللَّه لقد كان حريًا أن يعجل به ، فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً !! » وقال : « لأحسب أنه لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز »[1] .

إنه عمر الذي قيل فيه :

وتدعو اللَّه مجتهدًا ليرضى ... وتذكر في رعيتك المعادا

وقيل فيه :

إن الذي بعث النبي محمدا ... جعل الخلافة في الإمام العادل

قد نال عدلك من أقام بأرضنا ... فإليك حاجة كل وفد راحل

وقال فيه محارث بن دثار :

لو أعظم الموت خلقا أن يواقعه ... لعدله ، لم يصبك الموت يا عمرُ

كم من شريعة حق قد نعشت لهم ... كادتْ تموت وأخرى منك تنتظرُ

يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... علي العدول التي تغتالها الحفرُ

وللَّه در من قال فيه :

أقولُ لمَّا نعى الناعون لي عمرا ... لا يبعدن قوام العدل والدين

لم تلهه عمره عين يفجِّرها ... ولا النخيل ولا ركض البراذين

قد غادر القوم في الذي لحدوا ... بدير سمعان قسطاس الموازين

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٣) .

كم بين عمر قسطاس الموازين وورثة الفراعين من الزعماء الملهمين :

حدّقت في رأسي
فلاح الضوء ... وسط الليل فيه
ساءلت نفسي
أى شيء يا فؤادي تشتهيه
أوطانك الخضراء أجهضها
خريف الظلم ... والزمن السفيه
فالناس باعت أجمل الأيامِ
في سوق الجواري
لم يَعُد في العمر شيء تشتريه
باعوا الليالي البكر
والحلم البريء ... ونشوة الذكرى
وباعوا نخوة الزمن النزيه
قد شيّدوا للقهر أوكاراً
فصار النهر مقبرة
وضاق الماء بالعفن الكريه
خنقوا خيوط الفجر في رحم الليالي
ثم راحوا يرجمون الضوء فيه
قل لي بربك يا فؤادي
أي حُلْمٍ بعد هذا ... ترتجيه

* * *

فالمخبرون على جدار البيت
في لعب الصغار
وفي أواني الزهر
في أعلى المنابرْ
المخبرون يُلَوّحون
على رغيف الخبز للجوعى
ويختبئون في همس السرائرْ
هم يسكنون جلودنا
ويُحَدّقون من الأظافر والخناجرْ
وأصابع الجلاّد في أعماقنا نارٌ
وفي دمنا خناجرْ
لم يبق من ثُوّار هذا العصرِ
غيرُ سُلالة الفئران
تلتهم القلوب ... مع الضمائرْ
لم يبق من أمجادهم غير الليالي السودِ واللقطاءِ
والجوعى ... وسكان المقابر
ما بين جلاد ... ودجّال ... وفاجرْ
الكل يحمل في بلادي اسم ثائرْ
هتكوا بكارة عمرنا المغزول من ضوء المشاعرْ
داسوا رفات الأنبياءِ

وتوّجوا الرشّاش سُلطانًا على كل المصائرْ
هجروا محمد ... والقرآن
فأحرقوا الفرقان ... وانتهكوا المنابرْ
قالوا بأن الوحي يأتيهم إذا شاءوا
وأن البطش دستور الشعائرْ
قالوا بأن الأنبياء جميعهم
في الأصل من جنسِ العساكرْ
آهٍ ... وآهٍ منك يا زمن العساكرْ

* * *

يا أيها الجلاّد ...
بين القمامةِ طفلةٌ عرجاءُ
يصرخُ في جوانحنا نزيفْ
فالعمر عندك ...
ليلةٌ حمراءُ ... في قصرٍ منيف
والعمر عندي ...
بسمة الأطفال في وطن شريفْ
يا أيها الشبحُ المخيف
ما زلت تبني كلَّ يومٍ
في بلادي حصنَ زيفْ
ما زال يخرجُ من جُحورِكَ كل يوم

قاتلٌ ... وزمانُ خوفْ
ما زلت تغرس في ضلوعي
كلَّ يومٍ ... ألفَ سيف

* * *

يا أيها الجلاّدُ ارحلْ عن ربوع مدينتي
دع أغنياتِ النورس المقهور
تُشرِقُ فوق وجه سفينتي
دَعْ فرحة الفجر الذي
سجنوه في وطني ... تُعانقُ فرحتي
كل الملامحِ هاجرت كالحلم
دعني كي أرى وجهي
وأرحلَ في عيون حبيبتي ...
فمتى أعودُ إلى بلادي
إنني سافرتُ من وطني
إلى وطني ... وطالتْ غربتي
دعني أُلملمُ في بقايا العمرِ
ما أقساهُ موت كرامتي
وغداً أُحاسبُ
كل فئران الحديقة ... واللصوصِ
ومن أضاعوا قبّتي
من نصّبوا الطغيان سلطاناً

فباعوا عرض أمي واستحلُّوا طفلتي
من مزَّقوا جسدي ...
وداسوا ضوء عيني واستباحوا أُمَّتي
يا أيها الجلاَّدُ
سيفُكَ لم يَعُدْ أبدا يهزُّ سكينتي
إني سأطلق من قبورك غضبتي
حطَّمتُ أصنام المعابد كلَّها
وعَرَفْتُ في زمن النخاسةِ
أين تاهتْ قبلتي
عقيدتي... يا قبلتي
يا نبضيَ المخبوء في صدري
ويا حُلمي الذي صلبوه جَهْراً
في سماء مدينتي
يا صوتيَ المخنوقُ في زمن الموالي
يا شعارَ طهارتي
يا أيها الوطن الذي قتلوه في عيني
وراحوا يَسْكَرُون على بقايا مُهجتي
عقيدتي ... يا قبلتي
يا موطني مهما تَغَرَّبنا
وضاعتْ في الدروب هَوِيَّتي

ميعادنا آتٍ ... فضوء الصبح

يدفع كل يوم ... جبهتي

قدْ كنتُ أدمنتُ الظلامَ

وداست الأقدام عمراً ... قامتي

يا أيها الجلاَّدُ

لا تُطلقْ خيولَك في دمي

نيشانُكَ المهزومُ تاجَرَ

من سنينٍ في بقايا أعظمي

قد بعْتني حُلْماً

وبعْتَ العمرَ أطلالاً

وبعتَ الأرض إنسانا بأبخسِ مغنمِ

قدْ بعتَ للأصنامِ توبةَ مُسْلم

وأقمتَ عُرسكَ في سُرادِقِ مأتمي

ودفنتَ ضوء الصبح

في سرداب ليلٍ مُعْتم

كبّلتني بالصمت

حتى ماتتِ الكلماتُ حُزْنا في فمي

قيّدتني حتى ظننتُ

بأنّ هذا القيد يسكنُ معْصمي

وقتلتني

حتى ظننتُ بأن قتل النفس
في الأديان غيرُ مُحَرَّمِ
فإلى متى ...
ستظلُّ تركعُ للضلالِ
وبين أحضان الخطايا ترتمي
وإلى متى ...
ستظلُّ خلف سجون قهرِك تحتمي
صارت نياشين الزعامة
في عيون الناس
جلاّداً ونهراً من دم
قد خدّرونا بالضلالِ
وبالأماني الكاذباتِ ...
وبالزعيمِ المُلْهَم ...
ماذا تقول الآن يا وطني ؟ أجِب ...
مَنْ كان في عينيك يوماً ثائراً
الآنَ أصبحَ في سجلِّ القهرِ
أكبرَ ... مُجْرِمِ[1]

* * *

(١) من قصيدة « من أغاني مانديل » بتصرف ، ديوان « كانت لنا أوطان » (ص١٠٥ ـ ١٢١) .
للشاعر فاروق جويدة ، مكتبة غريب .

كم الفرق بين عمر بن عبد العزيز ـ العادل الذي أحيا السنن ـ وبين الزعيم المُلْهَمِ هبَلْ

هُبَلٌ ... هُبَلْ ... رَمْزُ السَّخافة والدَّجَل
مِنْ بعدِ ما اندثرتْ على أيدي الأُباةْ
عادتْ إليْنا اليوم في ثوبِ الطُّغاةْ
تَتَنَشَّقُ البخورَ تحرقُهُ أساطير النفاقْ
مَنْ قُيِّدَت بالأسر في قَيْد الخنا والآرتزاقْ
وَثَنٌ يقدُ جموعَهمْ ... يا للخجلْ

* * *

هُبَلٌ ... هُبَلْ
رمزُ السَّخافةِ والجهالة والدَّجَلْ
لا تسألَنْ يا صاحبي تلكَ الجُموعْ
لمن التعبُّدُ والمثوبةُ والخضوعْ
دعْهَا فما هيَ غيرُ خرفان القطيعْ
معبودُها صَنَمٌ يراهُ ... العَمُّ سامْ
وتكَفَّلَ الدولارُ كي يُضْفِي عليه الاحترامْ
وسعى القطيعُ غباوةً ... يا للبطلْ

* * *

هُبَلٌ ... هُبَلْ
رمزُ الخيانةِ والجهالةِ والسخافةِ والدَّجَلْ

هُتَّافَةُ التَّهريجِ ما ملّوا الثناءْ
زعموا له ما ليس عند الأنبياءْ
مَلَكٌ تَجَلْبَبَ بالضّياء وجاءَ مِنْ كَبِدِ السّماءْ
هو فاتحٌ ... هو عبقريٌ مُلْهَمٌ
هو مرسلٌ ... هو عالمٌ ومعلمٌ
ومِنَ الجهالةِ ما قتلْ

* * *

هُبَلٌ ... هُبَلْ
رمزُ الخيانةِ والعمالةِ والدجلْ
صِيغتْ له الأمجادُ زائفةٌ فصدّقها الغبيّ
واستنكر الكذبَ الصُّراحَ وردَّهُ الحُرُّ الأَبِيّ
لكنما الأحرارُ في هذا الزمانِ هُمُ القليلْ
فليدخلوا السجنَ الرهيبَ ويصبروا الصبرَ الجميلْ
وليشهدوا أقسى روايةْ ... فلكل طاغيةٍ نهاية
ولكل مخلوقٍ أجل ... هُبَلٌ ... هُبَلْ
هُبَلٌ ... هُبَلْ[1] .

* * *

(١) قصيدة « هُبَل » ، من ديوان سيد قطب (ص٢٨٩ ـ ٢٩٠) ، جمع عبد الباقي محمد حسين ، طبع دار الوفاء .

المتوكل خليفة عادل ناصر للسنة :

لله دره من إمام عادل

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٣١-٣٤) : « قال خليفة بن خياط : استخلف المتوكل ، فأظهر السنة ، وتكلم بها في مجلسه ، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، وبسط السنة ونصر أهلها .

قال ابن الأثير في « الكامل » (٧/ ٥٢) : « كان قاضي البصرة إبراهيم ابن محمد التيمي يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم من بني أمية ، والمتوكل في محو البدع وإظهار السنة » .

وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠/ ٣٦٥-٣٦٦) : « كان المتوكل محببًا إلى رعيته ، قائمًا في نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردَّة ، لأنه نصر الحق ورده عليهم ، حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية ، وقد أظهر السنة بعد البدعة ، وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها » .

المهتدي بأمر الله من أحسن الخلفاء عدلاً وعبادة :

قال جعفر بن عبد الواحد : « ذاكرت المهتدي بشيء ، فقلت له : كان أحمد بن حنبل يقول به ، ولكنه كان يخالف ، كأني أشرت إلى آبائه ، فقال : رحم الله أحمد بن حنبل ، لو جاز لي لتبرأت من أبي ، تكلم بالحق وقل به ، فإن الرجل ليتكلم بالحق ، فينبل في عيني » .

كان - رحمه الله - يحب الاقتداء بما سلكه عمر بن عبد العزيز في خلافته من الورع والتقشف وكثرة العبادة وشدة الاحتياط ، وكان - رحمه الله - يقول لمن ينكر عليه زهده : « إني فكرت أنه كان في بني أمية عمر بن

عبد العزيز ، فغرت على بني هاشم ، وأخذت نفسي بما رأيت »[١] .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ قد أطرح الملاهي ، وحرم الغناء ، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم .

روى الخطيب أن رجلاً استعان المهتدي على خصمه ، فحكم بينهما بالعدل ، فأنشأ الرجل يقول :

حكَّمْتمُوه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر

لا يقبل الرشوة في حكمه ولا يبالي غبن الخاسر

فقال له المهتدي : أما أنت أيها الرجل ، فأحسن اللَّه مقالتك ، ولست أغتر بما قلت ، وأما أنا ، فإني ما جلست مجلسي هذا ، حتى قرأت : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾[٢] فبكى الناس حوله ، فما رئي أكثر باكيًا من ذلك اليوم .

وفاتح الهند محمود بن سبكتكين يتحرى العدل :

قال عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢/ ٣٢ ـ ٣٣) :

« يمين الدولة ، وأمين الملة ، وصاحب بلاد غزنة وما والاها ، وجيشه يقال لهم : السامانية سار فيهم وفي سائر رعاياه سيرة عادلة ، وقام في نصر الإسلام قيامًا تامًا . . . » .

وقال عنه السبكي في « طبقات الشافعية » (٥/ ٣٢٢) : « أحد أئمة العدل ومن دانت له البلاد والعباد وظهرت محاسن آثاره ، كان إمامًا عادلاً

---

(١) « تاريخ بغداد » (٣/ ٣٥٠) ، و« تاريخ الخلفاء » (٣٦١) .

(٢) سورة الأنبياء سورة (٤٧) .

شجاعًا . . . وهو أحد أربعة لا خامس لهم في العدل بعد عمر ابن عبد العزيز : نور الدين محمود زنكي ، وصلاح الدين ، ونظام الملك » .

قال عنه ابن كثير : « كان عادلاً جيدًا ، اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله ، في كل وقت ، فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته ، وقد حار في أمره ، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه ، خوفًا وهيبة للملك ، فلما سمع الملك ذلك ، غضب غضبًا شديدًا ، وقال للرجل : ويحك ، متى جاءك فأتني فأعلمني، ولا تسمعن من أحد منعك من الوصل إلي ، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني ، ثم إن الملك تقدم إلى الحجبة وقال لهم : إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إلي من ليل أو نهار ، فذهب الرجل مسرورًا داعيًا ، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت ، واختلى بأهله ، فذهب باكيًا إلى دار الملك ، فقيل له : إن الملك نائم ، فقال : قد تقدم إليكم أن لا أمنع منه ليلاً ونهارًا ، فنبهوا الملك ، فخرج معه بنفسه وليس معه أحد ، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد ، وعندهما شمعة تقد ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ، ثم جاء فاحتز رأس الغلام ، وقال للرجل : ويحك ، الحقني بشربة ماء ، فأتاه بها فشرب ، ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : باللّه ، لم أطفأت الشمعة ، قال : ويحك ، إنه ابن أختي ، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح ، فقال : ولم طلبت الماء سريعًا ؟ فقال الملك : إني آليت على نفسي منذ أخبرتني ، أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك ، وأقوم بحقك فكنت عطشان هذه الأيام كلها ، حتى كان ما كان فما رأيت ، فدعا له الرجل ، وانصرف الملك راجعًا

إلىٰ منزله ، ولم يشعر بذلك أحد »[١] .

اشتراطهم كون الإمام مجتهداً تحرياً للعدل :

قال السبكي تعليقًا علىٰ القصة السابقة :

« قلت : وفي هذه الواقعة من هذا السلطان ، ما يدل علىٰ حسن نيته ، وتحريه العدل ، غير أنها ممزوج عدلها بالجهل بالشريعة ، فلم يكن له لو ثبت عنده أنه زنىٰ بعد الإحصان أن يتعدىٰ الرجم إلىٰ حز الرقبة ، ثم ليس في الحكاية ما يقتضي ثبوت الزنا عنده ، فإنه لم يشاهده يزني ، ولو فرضت مشاهدته إياه زانيًا ، وأنه علم زناه وتحققه بالقرائن ، فهي مسألة القضاء في الحدود بالعلم .

ومن هذا وأشباهه يعرف سر الشريعة ، في اشتراط كون السلطان مجتهدًا ، لأن غير العالم إذا تحرىٰ العدل لا يتأتىٰ له إلا بصعوبة شديدة ، بخلاف العالم فإنه يعرف ما يأتي وما يذر »[٢] .

المقتدي بأمرالله يخرّب أبراج الحمام صيانة لحرم الناس ، ويأمر بنفي المغنيات والخواطئ :

تسلم الخلافة وهو ابن عشرين سنة ، قال عنه الذهبي : « كان حسن السيرة ، وافر الحرمة ، أمر بنفي الخواطئ والقينات » وأن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر ، وأخرب أبراج الحمام ، وفيه ديانة ونجابة وقوة وعلو همة »[٣] .

---

(١) « البداية والنهاية » (١٢/ ٣٣) .

(٢) « طبقات الشافعية » للسبكي (٥/ ٣٢١) تحقيق دكتور عبد الفتاح الحلو .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٣١٨-٣١٩) .

قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص٤٢٣) : « كانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة ، وافرة الحرمة ، نفى المغنيات والخوطئ ببغداد ، وخرب أبراج الحمام صيانة لحرم الناس » .

السلطان الكبير ، والملك العادل ألب أرسلان :

قال عنه ابن كثير : « عادلاً يسير في الناس سيرة حسنة ، كريمًا رحيمًا ، شفوقًا على الرعية ، رفيقًا على الفقراء ، بارًا بأهله وأصحابه ومماليكه ، كثير الدعاء بدوام النعم به عليه ، كثير الصدقات ، يتفقد الفقراء في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار ، ولا يعرف في زمانه جناية ولا مصادرة ، بل كان يقنع من الرعية باخراج في قسطين رفقًا بهم .

كتب إليه بعض السعاة في « نظام الملك » وزيره ، وذكر ماله في ممالكه، فاستدعاه وقال له : خذ ، إن كان هذا صحيحًا فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك ، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم ، وكان شديد الحرص على حفظ أموال الرعايا »[٢] .

السلطان العادل جلال الدولة ملك شاه بن ألب أرسلان :

كان ـ رحمه اللّه ـ محبًا للعدل والإنصاف ، فركب يومًا إلى الصيد فلقيه سوادي يبكي ، فقال : ما لك ؟ قال : لقيني ثلاثة غلمان فأخذوا حمل بطيخ كان معي ، هو ما أملك وهو بضاعتي ، فقال له : امض إلى العسكر ، فهناك قبة حمراء ، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار ، فأنا أرجع ، وأعطيك ما يغنيك ، فلما عاد السلطان ، قال : للشرابي : قد اشتهيت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شيء من ذلك ، ففعل الشرابي ، فوجد

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٣١٨-٣١٩) .
(٢) « البداية والنهاية » (١٢/ ١١٤) .

البطيخ ، فقال : عند من رأيتموه ، فقيل : في خيمة الحاجب فلان ، فقال : أحضروه ، فأحضر ، فقال له : من أين لك هذا ؟ قال : الغلمان جاءوا به فقال : أريدهم الساعة؟ فمضى وقد أحسوا بالشر فهربوا خوفًا من أن يقتلهم ، وعاد فقال : قد هربوا لما علموا أن السلطان يطلبهم ، فقال : أحضروا السوادي ، فأحضر ، فقال له : أهذا الذي أخذ بطيخك منك ؟ قال: نعم قال : خذه ، وهذا الحاجب مملوك لي ، وقد سلمته إليك ، ووهبته لك ، حين لم يحضر الذين أخذوا بطيخك ، واللَّه لئن خليته لأضربن عنقك ، فأخذ السوادي بيد الحاجب ، فأخرجه ، فاشترى الحاجب نفسه من السوادي بثلاثمائة دينار ، فعاد السوادي إلى السلطان ، فقال : يا سلطان قد بعت المملوك الذي وهبته لي بثلاثمائة دينار ، قال : ورضيت ؟ قال : نعم ، قال: اقبضها وأمن مصاحبًا ، وكان هذا السلطان يقف للمرأة والضعيف .

وجاء رجلان قد ظلما فاستغاثا إليه ، فقال : خذا بيدي واحملاني إلى الوزير فامتنعا ، فقال : لا بد ، فأخذ كل واحد منهما بيد ومشي معهما ، فبلغ ذلك الوزير نظام الملك فقام حافيًا وتلقاه ، وقال : ما هذا ؟ قال : أنت الذي أحوجتني إلى هذا ؟ أنا أنصبتك لتدفع عني الظلم ، فإذا لم تدفع عني أخذاني يوم القيامة هكذا »[1] .

الخليفة المستضيء بأمر اللَّه :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » : « قال ابن الجوزي في «المنتظم» : بويع ، فنودي برفع المكوس ، ورد المظالم ، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره من أعمارنا »[2] .

---

(١) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٨٥ ـ ٨٦) . تحقيق فؤاد عبد المنعم .
(٢) انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٦٨ ـ ٧٢) .

والمقتفي لأمر اللَّه كانت أيامه نضرة بالعدل :

رأىٰ المقتفي في منامه ـ قبل أن يستخلف بستة أيام ـ رسول اللَّه ﷺ يقول له : « سيصل هذا الأمر إليك ، فاقتف بي ، فلذا لقب : المقتفي لأمر اللَّه»[١] .

قال عنه الذهبي في « السير » : (٢٠/ ٤٠٠ ـ ٤٠١) : « كان حميد السيرة، يرجع إلىٰ تدين وحسن سياسة ، جدد معالم الخلافة ، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه ، قال أبو طالب بن عبد السميع : كانت أيامه نضرة بالعدل زهرة بالخير ، وكان علىٰ قدم من العبادة قبل الخلافة وبعدها ، ولم ير ـ مع لينه ـ بعد المعتصم في شهامته مع الزهد والورع ، ولم تزل جيوشه منصورة » .

نور الدين محمود زنكي مثل سامق في العدل كأنه الأساطير :

جاء في « عيون الروضتين » في ترجمة هذا السلطان العادل :

« كان ملك الشـام ومالكهـا ، والذي بيـده ممالكها ، الملك العـادل نـور الدين ، أعف الملوك وأتقاهـم ، وأعدلهم وأعبدهـم ، وأزهدهـم وأطهرهـم، وهو الذي أعاد رونق الإسلام في بلاد الشام » .

وقال عنه ابن عساكر في « تاريخه » : « بنىٰ المدارس ، ووقف الأوقاف ، وأظهر فيها العدل والإنصاف ،وأفاض علىٰ أهل دمشق الفوائد، وأصلح طرقها ،ووسع أسواقها ، وأرد اللَّه علىٰ رعيته ببركته أرزقها ، وأبطل منها الأنذال ،ورفع عن أهلها الأثقال ،ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق البقل وضمان النهر والكيالة وسوق الغنم ، وغير ذلك من المظالم ، وأمر بترك ما كان يؤخذ علىٰ المكس . . .

---

(١) « السير » (٢٠/ ٤٠١) .

وتوخى العدل في الأحكام والقضايا ، وألان كنفه ، وأظهر رأفته بالرعايا ، وبنى في أكثر مملكته آدر العدل ، وأحضرها القضاة والفقهاء ، وحضرها بنفسه في أكثر الأوقات واستمع من المتظلمين الدعاوى والبينات ، وأدر على الضعفاء والأيتام الصدقات ، حتى وقف وقوفًا على المرضى والمجانين ، . . . ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس ، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج . . . وإن أشهى ما إليه : كلمة حق ليسمعها ، أو إرشاد إلى سنة يتبعها . . . ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته ، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزل .

ومناقبه خطيرة ، وممادحه كثيرة ، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف الآية بل قصروا .

قال أبو الفتح بنجير بن أبي الحسن الأشتري - وهو فقيه ، كان معيدًا بالمدرسة النظامية ، وجمع لنور الدين - رحمه اللَّه - سيرة مختصرة - قال : كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربع أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية وكشف الظلامة ، لا يطلب بذلك درهمًا ولا دينار ولا زيادة ترجعه إلى خزائنه ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللَّه ، وطلبًا للثواب والزلفى في الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه المرأة العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه ، فيأمر بمساواته لها ، فتغلب خصمها طمعًا في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفًا من عدله ، فيظهر الحق عنده ، فيجري اللَّه عن لسانه ما

هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة . . .

ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم ،كما يجري في مجلس سائر الملوك،ولا يطمع في أخذ أموال الناس ، ولا يرضى أن يأخذ أموال الرعية شيئًا بغير حق .

قال : وحدثنا الشيخ داود المقدسي قال : حضرت دار في شهر ربيع الأول سنه ثمان وخمسين ، فقال رجل وادعى على الملك العدل أن أباه أخذ من ماله شيئًا بغير حق قال : وأنا مطالب لك بذلك، فقال نور الدين : أنا ما أعلم ذلك ، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد ما يخصني ، فإني ما ورثت جميع ماله ،كان هناك وارث غيري ، فمضى الرجل يحضر البينة فقلت في نفسي : هذا هو العدل .

قال : وحضر جماعة من التجار ، وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار ، فصار سبعة وستون بدينار ، وتنقص وتزيد فيخسرون ، فسأل نور الدين عن كيفية الحال ، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار بالوسط ، وإنما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ،وتبطل القراطيس بالكلية ، فسكت ساعة ، ثم قال : إذا ضربت الدينار ، وأبطلت المعاملة بالقراطيس ، فكأني خربت بيوت الرعية ، فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، إيش يعمل به ؟ فتكون سببًا لخراب بيته ، قال: فأي شفقة أعظم وأكثر من هذا على الرعية ؟!

وقال أبو الحسن ابن الأثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل

الإسلام وبعد الإسلام ، فلم أر منها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه ، ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف بيت واحد ؟!

وكان ـ رحمه اللَّه ـ مع سبعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ـ ، لا يأكل ، ولا يلبس ، ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان قد اشتراه من سهم ، من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعده إلى غيره ألبتة .

«**لا أخوض نار جهنم في هواها**» :

قال ابن الأثير : « حدثني صديق لنا بدمشق ، كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين ـ زوجة نور الدين ـ قال : كان نور الدين إذا جاء إليها ، يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته ، لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان المختص بها ، وينفرد هو ، تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو في مطالعة كتاب أتاه ، ويجيب عنها ، قال : وإنها قلت عليها النفقة ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له ذلك ، تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ واللَّه لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي ، فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها ،

فلا أخونهم فيها، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا ، وقد وهبتها إياها فلتأخذها ، قال : وكان يحصل منها قدر قليل » اهـ .

وقال ابن الأثير عن نور الدين أيضًا : « كان أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكمًا ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسًا ولا عشرًا بل أطلقها جميعها ، في بلاد الشام والجزيرة جميعها ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه .

وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارًا ؛ وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يتحرىٰ العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنًا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوىٰ المظلوم ، ويتولىٰ كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلىٰ حاجب ولا أمير ، فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

قال : ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ، ويقف عند أحكامها ويقول : نحن شحن لها ، نمضي أوامرها .

فمن اتباعه أحكامها ، أنه كان يلعب بدمشق بالكرة ، فرأىٰ إنسانًا يحدث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ليحضره إلىٰ مجلس الحكم ، يحاكمني علىٰ الملك الفلاني ، فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل ، وعاد يكتمه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقىٰ الجوكان من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلىٰ القاضي ، وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوري ، وأرسل إلىٰ القاضي يقول له : إنني قد جئت محاكمًا ، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوي خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين . . . ـ رضي اللَّه عنه ـ . . . حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له

عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا أني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلاً يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي ، وهبته له .

قال ابن الأثير : وهـذا غـاية العـدل والإنصـاف ، بل غاية الإحسان ، وهي درجـة وراء العـدل ، فرحم اللَّه هـذه النفس الزكيـة الطاهرة المنقـادة إلى الحق ، الواقفة معه .

ومن عدله ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غيرتعد ، فدفع اللَّه بهذا الفعل عن الناس من الشر ما لا يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

يا خالق هذه النفس الطاهرة سبحانك !! :

قال : وحكى لي من أثق به أنه دخل يومًا إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهه كذا ، فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ، فرده إلى الخزانة ، وقال : إذا سألك الملك العادل عنه ، فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى ، فرآه فأنكر على النواب قال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فرده إليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : « أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة ، لا أطيق حمل

المال والمخاصمة عليه بين يدي اللَّه تعالىٰ ، يعاد قولاً واحدًا » .

إني جئت إلى ها هنا امتثالاً للشرع :

قال مختار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي : كان عند قاضي حلب تاج الدين الكردري غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعىٰ : سويدا ، يحضر الخصوم إلىٰ مجلس الحكم ، فحضر بعض التجار وادعىٰ أن له علىٰ نور الدين دعىٰ ، فقال الكردري لسويد المذكور : امض إلىٰ نور الدين وادعه إلىٰ مجلس الحكم ، وعرفه أنه حضر شخص يطلب حضوره ، وكان نور الدين في الميدان ، فجاء سويد إلىٰ باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخزندار فوجده ، فتقدم سويد إليه وقال : قد سيرني تاج الدين القاضي ، وقال لي : كذا وكذا ، فضحك إسماعيل الخزندار ، ودخل علىٰ نور الدين ضاحكًا وقال له مستهزئًا : يقوم المولىٰ ، فقال : إلىٰ أين ؟ فقال : قد حضر سويد غلام تاج الدين القاضي ، وقال : إنه أرسله يطلب المولىٰ إلىٰ مجلس الحكم ، فأنكر نور الدين علىٰ إسماعيل استهزاءه ، وقال : تستهزئ بطلبي إلىٰ مجلس الحكم ؟! ثم قال نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ : يحضر فرس حتىٰ نركب إليه ، السمع والطاعة ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى اللَّه ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ الآية ، ثم ركب حتىٰ دخل باب المدينة فاستدعىٰ سويدا ، وقال : امضي إلىٰ القاضي وسلم عليه ، وقل له : إني جئت إلىٰ ها هنا ، امتثالاً لأمر الشـــرع ، وأحتاج في الحضور إلىٰ مجلسه سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان ، وهذا وكيلي يسمع الدعوىٰ ، وإن توجهت علىٰ يمين أحضر إن شاء اللَّه تعالىٰ .

قال : فحضر الوكيل وسمع الدعوة ، وتوجهت اليمين ، فقال القاضي : قد توجهت اليمين فليحضر ، فلما بلغ نور الدين ذلك ، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين ، استدعىٰ ذلك التاجر ، وأصلح

الأمر فيما بينه وبينه، وأرضاه .

* * *

إطلاقه للمؤن والمكوس والأعشار :

قال صقر بن يحيىٰ : بلغني أن موفق الدين خالدًا رأىٰ في المنام : كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها ، فقص منامه علىٰ نور الدين فتمعر وجه نور الدين ، فخجل موفق الدين ، وبقي أيامًا علىٰ غاية من الخجل ، فاستدعاه يومًا نور الدين ، وقال : تعال قد آن لك أن تغسل ثيابي ، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار ، واكتب للمسلمين أني رفعت عنكم مارفعه اللَّه عنكم وأثبت لكم ما أثبته اللَّه عليكم ، قال : فكتب موفق الدين توقيعًا .

وكان نور الدين يلبس في الليل مسحًا ، ويقوم يصلي في قطعة من الليل، وكان يرفع يديه إلىٰ السماء ويبكي ويتضرع ويقول : ارحم العشار المكاس .

قال قاضي القضاة بهاء الدين : سير نور الدين إلىٰ بغداد كتابًا يعلم الخليفة بما أطلق ، ويسأله أن يتقدم إلىٰ الوعاظ ، بأن يستعجلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل ما كان قد وصل إليه ـ يعني من أموالهم ـ قال: فتقدم بذلك وجعل الوعاظ علىٰ المنابر ينادون بذلك .

حدثني رضىٰ الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر : أن نور الدين حين خرج لأخذ (شيزر) ، خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته، فأمره نور الدين بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ، فكتب عنه توقيعًا أوله : «هذا ما يقرب إلىٰ اللَّه سبحانه وتعالىٰ» ، إلىٰ أن قال : « علم أن الدنيا فانية ،

فاستخدمها للآخرة الباقية ، فصفح لكافة المسلمين وجميع المسافرين بالضرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه ، وحرمها على كل متطاول إليها ومتهافت عليها ، تجنبًا لإثمها واكتسابًا لثوابها ، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه ، وأنفذ الأمر إليه - اتباعًا لكتاب اللَّه وسنة نبيه محمد ﷺ - في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار . . . وما وقفه وتصدق به وأجراه في سبل الخيرات من وجوه البر والصدقات ، تقدير ثمنه مئتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ، وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والملكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، وما وقفه على آدر الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى ، وتعليم الأيتام ومقر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين ، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور - حرسها اللَّه تعالى - من أملاكهم فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه ، جعل ذلك ذريعة عند اللَّه وتقربًا إليه ، مضافًا إلى ما أنفقه الغزاة والجهاد من خزانته وأمواله فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر ، أن يمده ويوده ويشد عضده ويقوي عزمه وينفذ حكمه ، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار » .

منشوره بإبطال ضريبة الأتبان عن أهل دمشق سنة (٥٩٦هـ) :

جاء فيه بعد حمد اللَّه :

« وبعد ، فإن من سنتنا العادلة ، وسير أيامنا الزاهرة : إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من الرسوم ، وما نزال نجدد للرعية رسمًا من الإحسان يرتعون في رياضه ،

ويرتوون من حياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفها من الشبه والشوائب ، ونلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة ، بما أسقطناه من المكوس والضرائب ، تقربًا إلىٰ اللَّه تعالىٰ ، الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة علىٰ أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة والمرج . . . ووفرناه علىٰ أربابه، طلبًا لمرضاة اللَّه وعظيم أجره وثوابه ، وهربًا من انتقامه وأليم عقابه ، وسبيل الثواب إطلاق ذلك علىٰ الدوام ، وتعفية آثاره ،والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من الدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين ، لاستقبال سنة تسع وستين ،وما بعدها علىٰ تعاقب الأيام والسنين » .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ فرد زمانه في تحريه للعدل .

الفقه في الخلاص من الظلم :

بنىٰ نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ المدارس ، وبنىٰ الجوامع في جميع البلاد، ومن ذلك جامعه في الموصل ، ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمرعمارته والخرج عليه إلىٰ الشيخ عمر الملا ـ رحمه اللَّه ـ وهو رجل من الصالحين ، فقيل له : إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل ، فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب ، أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ ، غلب علىٰ ظني أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم .

وكان نور الدين لما صارت له الموصل ، قد أمر كمشتكين شحنة الموصل، أن لا يعمل شيئًا إلا بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئًا إلا بأمر الشيخ عمرالملاء .

قال عنه الطواشي شاذ بخيت الخادم : « كنت يومًا أنا وسنقر واقفين على رأس نور الدين وقد صلّى المغرب ، وجلس وهو مفكّر فكرًا عظيمًا ، وجعل ينكت بإصبعه في الأرض ، فتعجبنا من فكره وقلنا : تُرى في أي شيء يفكر ؟ أفي عائلته أو في وفاء دَيْنه ؟ ، فكأنه فطن بنا ، فرفع رأسه وقال : ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئًا ، فقال : باللَّه قولا لي ، فقلنا : عجبنا من إفراط مولانا في الفكر ، وقلنا : يفكر في عائلته أو في نفسه ، فقال : واللَّه إنِّي أفكّر في والٍ وليته أمرًا من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني ، وأخاف المطالبة بذلك ، فباللَّه عليكم ـ وإلا فخبزي عليكم حرام ـ لا تريان قصة تُرفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إليَّ » .

إيه يا نور الدين :

أيها المالك الذى ألزم النـ ... ـاس سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما ... سِرْت في الناس سيرة الخلفاء

وللَّه در محمد بن نصر القيسراني حين يقول في نور الدين زنكي :

يا سائلي عن نهج سيرته ... هل غير مفْرق هامة الفجرِ

عَدْلٌ حقيق مَن تأمّله ... أن يُحْيي العُمَرَيْن بالذكرِ

وللَّه در القائل فيه أيضًا :

عفّى جهادُك كلَّ رسم مَخُوفةٍ ... وعفَتْ بصفوةِ عدلك الأكدارُ

ومحا المظالمَ منك نظرةُ راحمٍ ... للَّه في خطراته أسرارُ

كم سيرةٍ أحييتها عُمَرِيَّة ... رُفِعَتْ لها في الخافقَين منارُ

* * *

وفي عصرنا يا ابن زنكي :

قطيعٌ نحن والجزّار راعينا

ومنفيُّون نمشي في أراضينا

ونحملُ نعشنا قسراً بأيدينا

ونُعرِب عن تعازينا لنا فينا

فوالينا أدام اللّه والينا

رآنا أمة وسطاً

فما أبقى لنا دنيا .... وما أبقى لنا دينا

الإحسان والعدل الذي يكتب بماء الذهب :

كان نور الدين يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ما لا يفعله غيره ، وكان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيبًا يقول : ومن هو المعصوم ؟ وإنما الكامل من تعد ذنوبه .

واستقدم نور الدين قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي من خراسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحسده بعض أكابر الأمراء وقال عنه يومًا عند نور الدين ، فقال له نور الدين : يا هذا إن صح ما تقوله ، فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولوعقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنة ؟ على أنني لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أوغيره بسوء أدبتك ، فكف عنه .

قال ابن الأثير : هذا واللّه هو الإحسان ، والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب .

نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، أفلا نحفظ الدين وهو الأصل ؟!

قال ابن الأثير مثنيًا على نور الدين زنكي : « فهكذا كانت أحواله جميعها ـ رحمه الله ـ مضبوطة محفوظة ، وأما حفظ أصول الديانات ، فإنه كان مراعيًا لها لا يهملها ، ولا يمكن أحدًا من الناس من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ، ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟!

وفي أيامنا : صورة الحاكم في كل اتجاه :

في عصرنا ، الحاكم في كل دولة ربما خصصوا وزارة لنشر صورة في كل أرجاء البلاد ، كما يقول الشاعر :

صورة الحاكم في كل اتجاه
أينما صرنا نراه
في المقاهي
في الملاهي
في الوزارات
وفي الحارات
والأسواق
والتلفاز
والمسرح والمبغى
وفي ظاهر جدران المصحات
وفي داخل دورات المياه

أينما سرنا نراه
صورة الحاكم في كل اتجاه
باسمٌ
في بلد يبكي من القهر بُكاه
مشرقٌ
في بلد تلهو الليالي في ضحاه ناعمٌ
في بلدٍ حتى بلاياه
بأنواع البلايا مبتلاه
صارخٌ
في بلد معتقل الصوت
ومنزوع الشفاهْ
سالمٌ
في بلدٍ يُعدم فيه الناسُ بالآف ، يومياً
بدعوى الاشتباهْ

* * *

صورة الحاكم في كل اتجاه
نعمةٌ منه علينا
إذْ نرى حين نراه
أنّه لما يزلْ حيًّا
وما زلنا على قيد الحياة[1]

---

(١) قصيدة « حبيب الشعب » ، (ص٢٣ ـ ٢٥) ، ديوان « إني المشنوق أعلاه » لأحمد مطر ، الطبعة الأولى بلندن .

العجب العجاب عدل نور الدين بعد موته :

ومن أعجب ما يحكى : « إن إنسان كان بدمشق ، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين - رحمه اللَّه - ، فلما توفى تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصف ، فنزل من القلعة وهويستغيث ويبكي ، وقد شق ثوبه وهو يقول : يا نور الدين ، لورأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعية ، وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيب قلبه ووهبه شيئًا وأنصفه، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟ قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكان ما نحن فيه من عدل فمنه تعلمناه » .

عدل صلاح الدين الأيوبي :

قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين الأيوبي :

« كان - رحمه اللَّه - عادلاً ، رءوفًا رحيمًا ، ناصرًا للضعيف على القوي ، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة ، وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا » .

على أنه كأنه في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفًا لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصدًا للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع

الكاتب ساعة ، إما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه ، ولم يرد قاصداً أبداً ، ولا منتحلاً ، ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه .

ولقد كان رءوفًا بالرعية ، ناصرًا للدين ، . . . ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ بقصته ، ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على تقي الدين - ابن أخيه - فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم ، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول ، أنه وكل القاضي أبا القاسم أمين الدين - قاضي حماه - في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه - رضي الله عنه - بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة وإنكار الخصم ، فلما ثبتت الوكالة ، أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه ، وكان من خواص الملك - رحمه الله - ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقي الدين ، وانفض المجلس على ذلك وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق .

وأعظم من الحكاية السابقة :

قال القاضي ابن شداد : « وأعظم من هذه الحكاية ، مما يدل على عدله - رحمه الله - قضية جرت مع إنسان تاجر يدعى « عمر الخلاطي » وذلك أني كنت يومًا في مجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل عليَّ شيخ حسن تاجر معروف ، يسمى « عمرالخلاطي » معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته : من خصمك ؟ فقال : خصمي السلطان ، وهذا بساط الشرع ، وقد سمعنا أنك لا تحابي ، قلت : وفي أي قضية هوخصمك ؟

فقال : إن « سنقرالخلاطي » كان مملوكي ، لم يزل علىٰ ملكي إلىٰ أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ، ومات عنها ، واستولىٰ عليها السلطان ، وأنا مطالبه بها ، فقلت له : يا شيخ ، وما أقعدك إلىٰ هذه الغاية؟ فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلىٰ أن مات فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حلية « سنقر الخلاطي » وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلىٰ أن شذ عن يده في سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتم الشرط إلىٰ آخره .

فتعجبت من هذه القضية ، وقلت للرجل : لا يسعني سماع الدعوىٰ مع وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده في ذلك ، فرضي الرجل بذلك واندفع ، فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية ، فاستبعد ذلك استبعادًا عظيمًا ، وقال : كنت نظرت في الكتاب ؟ فقلت : نظرت فيه ، ورأيته متصل الورود والقبول إلىٰ دمشق ، وقد كتب عليه : كتاب حكمي من دمشق ، وشهد به علىٰ يد قاضي دمشق شهود معروفون ، فقال : مبارك ، نحضر الرجل ونحاكمه ، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع ، ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة ، فقلت له : هذا الخصم يتردد ، ولابد أن نسمع دعواه ، فقال : أقم عني وكيلاً يسمع الدعوىٰ ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخر فتح الباب إلىٰ حين حضور الرجل ها هنا ، ففعلت ذلك ، ثم أحضر الرجل ، واستدناه حتىٰ جلس بين يديه ، وكنت إلىٰ جانبه ، ثم نزل من طراحته حتىٰ ساواه ، وقال : إن كان لك دعوىٰ فاذكرها .

فحرر الرجل الدعوىٰ علىٰ معنىٰ ما شرح أولاً ، فأجابه السلطان : إن

«سنقر» هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى أعتقته ، وتوفي وخلف ماخلف لورثته ، فقال الرجل : لي بينه تشهد بما ادعيته ، ثم سأل فتح كتابه ، ففتحته فوجدته كما شرحه ، فلما سمع السلطان التاريخ ، قال : عندي من يشهد أن « سنقر » هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته ، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذكر القصة كما ذكرها ، والتاريخ كما ادعاه ، فأبلس الرجل ، فقلت له : يا مولاي ، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبًا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائبًا للقصد ، فقال : هذا باب آخر ، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة ، وقد شذ عني مقدارها ، فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، والتواضع ، والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، الكرم في موضع المؤاخذة ، مع القدرة التامة ، ـ رحمه اللَّه رحمة واسعة ـ .

هشام بن عبد الرحمن الداخل شبيه عمر بن عبد العزيز في سيرته :

حكم ـ رحمه اللَّه ـ الأندلس بعد أبيه ثمانية أعوام ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور «النواحي» ، فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

الحاجب المنصور القائل : « الملك لا ينام إذا نامت الرعية » :

« تحدث واحد ممن كانوا يلازمون المنصور ، فقال : قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر

من هذا النوم ، وهو يعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا هذا ، الملك لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة »[١] .

يوسف بن تاشفين القائل :« إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » :

ولله در ابن تاشفين ، لما فتح مدينة « فاس » خرب السور الفاصل بين عدوتها وقال : « إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » .

عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين العادل :

قال عنه الحافظ الذهبي في « السير » (٢٠/ ٣٧١) : « كان ملكًا عادلاً رحيمًا » .

قال عزيز في كتاب « الجمع » : كان عبد المؤمن يأخذ بالحق إذا وجب على ولده » .

السلطان المنصور يعقوب بن يوسف :

رحم الله السلطان المنصور بطل معركة الأرك ، أسقط المكوس ، وأطلق المسجونين في كل الولايات الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية بسيطة ، وكان يؤثر الأطباء والمشرفين على المستشفيات التي آوت العجزة والعمي ، وأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجًا وأحواضًا لخزن الماء وآبارًا للاستسقاء ، وفنادق لنزول المسافرين .

« كان ملكًا جواد ، عادلاً متمسكًا بالشرع المطهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من غير محاباة ، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم الحق ، وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به »[٢] .

---

(١) « نفح الطيب » للمقري (١/ ٤١٦) .
(٢) « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٧/ ١٠) .

للَّه درّه من سلطان عادل . . . لما كمل حشد الجيش في معركة الأرك في يوم المعركة قال قائد الجيش أبو يحيى بن أبي حفص : « إن المنصور أمير المؤمنين يقول : لكم : اغفروا له ـ فإن هذا موضع غفران ـ وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا للَّه نياتكم » فبكى الناس ، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم العادل المخلص .

الملك العظيم الراشد : أورانك زيب عالمكير لا نظير له في العدل والزهد:

حكم ـ رحمه اللَّه ـ الهند وهو في الأربعين من عمره ، ففتح البلاد ، ونشر الأمن والعدل ، وامتدت دولة الإسلام من سفوح « الهملايا » في الشمال حتى شواطئ البحر في أقصى الجنوب . . . ومع هذه الفتوحات العظيمة ، كان ينظر في كل شئون الملك وقضايا الرعية بمثل عين العقاب ، أزال كل آثار زندقة الملك « جلال الدين أكبر » ، وعدل الضرائب ، ومد الطرق العظيمة ، وأسس دورًا للعجزة ، ومارستانات للمعتوهين ، ومستشفيات للمرضى ، وبنى المساجد في أنحاء الهند ، وجعل لها أئمة ومدرسين ، وكان يكتب المصاحف بخطه ويبيعها ليعيش بثمنها ، بعد أن زهدت نفسه أموال المسلمين ، مع أن مفاتيح كنوز الهند كلها كانت بيده ، إلا أنه عاش زاهدًا ، وكان يمر عليه رمضان كله فلا يأكل إلا أرغفة من خبز الشعير ، من كسب يمينه ، لا من أموال الدولة .

قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي[1] : الذي يقرأ سيرة السلطان أورانك زيب عالمكير ، وما جمع من فضائل علمية وعملية ، ويقرأ تاريخه الحافل بجلائل الأعمال ، ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم يقطع ولم يتوقف يومًا واحدًا في خمسين سنة حكم فيها ، وفتوحاته العظيمة ، وإصلاحاته الكبيرة ، وتقشفه في الحياة ،

(١) « المسلمون في الهند » لأبي الحسن الندوي (ص٥٠ـ٥١) .

وتحمله الشدائد ، واستقامته ، وصلابته ، ومغامراته في سن عالية ، تسعين سنة ولم يزل مرابطًا مناضلاً إلى آخر ساعاته ، ويقرأ نظام أوقاته ، ومحافظته على الفرائض والسنن ، مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره ، واشتغاله بالعبادات والعلم والمطالعة آمن بأن هذا الرجل لا نظير له في علو الهمة وقوة الإرادة في ملوك العالم ، وأنه خلق من حديد ، وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور وفي جميع الأجيال » .

لله درك يا « أرنسك زيب » اهتدت بك أمة فاخشع لربك واسجد

خمسون عاماً كل عام درة في المجد نادرة وزهوة سؤدد

يا سادس الخلفاء رشدك آية للناس ملهمة ولهفة مقتدي

السلطان محمود شاه البهمني :

السلطان العادل الفاضل محمود بن الحسن البهمني ولي مملكة الهند في سنة ثمان وسبعمائة وافتتح أمره بالعدل والإحسان .

كان من خيار السلاطين عادلاً باذلاً كريمًا ، أنشأ المكاتب لتعليم اليتامى في كليركه وبيدر وقندهار وإيلجيور وجنير وجيول ودائل ، وجعل الأرزاق للعميان والمقعدين .

وكان ـ رحمه اللّه ـ يقول : إن الملوك أمناء اللّه على بيت مال المسلمين فلا ينبغي لهم أن يأخذوا منه ما يزيد على قدر الحاجة »[1] .

الحفصي ملك المغرب وصاحب تونس : لا ينام إلا أربع ساعات من الليل :

عبد العزيز بن أحمد بن محمد أبو فارس الهنتاتي الحفصي ملك

---

(١) «« الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي (٢/ ١٦٠ ـ ١٦١) .

المغرب وصاحب تونس .

قال الشوكاني عنه في « الضوء اللامع » :

« كان لا ينام من الليل إلا قليلاً ، بل حرز بقدر أربع ساعات لا تزيد قط وربما نقصت ، وليس له شغل سوىٰ النظر في مصلحة ملكه ، وكان يؤذن بنفسه ويؤم الناس في الجماعة ، وقد أبطل كثيراً من التركات والمفاسد بتونس كالعيالة وهو مكان يباع فيه الخمر للفرنجة يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه ، وكذا المكوس بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها .

شكي إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليها قمحًا من عنده وقال : أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لا يشترىٰ من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ما عندهم كذلك فترك هو حينئذ البيع فبلغه أنهم زادوا قليلاً ، فأمر ببيع ما عنده بدينار فقط ، وتقدم إلىٰ خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لا يبيع شيئًا وإلا باع بدينار فاضطربوا إلىٰ أن مشىٰ الحال فكانت من أحسن الحيل في تمشية حال الناس .

وكان محافظًا علىٰ عمارة الطرقات بحيث أمنت القوافل في أيامه ، بجميع بلاده .

حضر - رحمه اللَّه - محاكمة مع منازع له في بستان إلىٰ القاضي ، فحكم عليه ، فقبل الحكم وأنصف الغريم .

كتب إليه ابن عرفة مرة : واللَّه ما أعلم يومًا يمر علي ولا ليلة إلا وأنا داع لكم بخير الدنيا والأخرة فإنكم عماد الدين ونصرة المساكين .

قال المقريزي : وكان خير ملوك زمانة صيانة وديانة وجوداً وإفضالاً وعزمًا وحزمًا وحسن سياسة وجميل طريقة . . . ومناقبه كثيرة ، وفضائلة

شهيرة ولقد فجع الإسلام وأهله بموته واللَّه يرحمه ويتجاوز عنه »[١].

ابن طاهر ملك اليمن وقف جميع ما في ملكه من عقار على المسلمين :

ملك اليمن علي بن طاهر .

قال عنه الشوكاني : « ضبط اليمن وأمّن الطرقات ، وأحيا البلاد بعد خرابها وأحبه الكافة ، وكان ملكًا عادلاً ، شجاعًا عاقلاً وللمعروف باذلاً وعلى الفقراء ونحوهم غيثًا هاملاً ، صدقاته ومبراته ومعروفه فوق الوصف .

يقال إنه وقف جميع ما في ملكه من عقار على المسلمين ، وجعل النظر في ذلك للمتولي من أولاد أخيه ، وكان يرسل بألف دينار لفقراء مكة»[٢] .

سلطان المسلمين بالحبشة « ولسمع » :

محمد بن أبي البركات الملقب « ولسمع » : ويعرف بابن سعد الدين سلطان المسلمين بالحبشة ، كانت مدة مملكته سبع سنين ، وكان دينًا عاقلاً عادلاً خيرًا وقورًا مهابًا ذا سطوة على الحبشة أعز اللَّه الإسلام في إيامه .

كان من خير الملوك دينًا ومعرفة وقوة وديانة يصحب الفقهاء والصلحاء ، وينشر العدل في أعماله حتى في ولده وأهله ، وأسلم على يده خلائق من الحبشة [٣] .

حارب الحطي ملك الكفار بالحبشة ، وشن الغارات على بلاده ، وامتلأت الأقطار من الرقيق الذين سباهم حتى بيعت

---

(١) « الضوء اللامع » للشوكاني (٤/ ٢١٤ـ٢١٥) .
(٢) « الضوء اللامع » (٥/ ٢٣٣) .
(٣) « الضوء اللامع » (٧/ ١٥٣ـ١٥٤) .

الرأس من الرقيق بربطة ورق .

الملك إسكندر الكشميري كاسر الأصنام :

كان محبًا لأهل العلم يقرّبهم إلى نفسه ويعظمهم ، بذل جهده في كسر الأصنام حتى لقّبه الناس « باسكندربت شكن » ومعناه كاسر الأصنام.

ومن مآثره الجميلة أنه نهى الناس أن يبيعوا الخمر في بلاده ، ومنها أنه نهاهم أن يُؤخذ المكس من أحد مسلمًا كان أو وثنيًا[1] .

ملك يُوصف بالظلم فيبكي ويترك الحكم :

هذا الملك هو السلطان علاء الدين البهمنيّ سلطان أرض الدكن ، افتتح أمره بالعدل والإحسان ، وفتح الفتوحات العظيمة ، وأخذ الجزية من ملوك بيجانكر وكوكن وغيرهم من كفار الهند .

وكان عادلاً فاضلاً كريمًا بارعًا في بعض العلوم ، يجتهد في العدل والإحسان ، ويعيّن الصدور والقضاة والأمناء والمحتسبين في بلاده ، وكان لا يفرّق في العدل بين العزيز والذليل والشريف والوضيع والغني والفقير وكان يقوم على المنبر ويخطب بنفسه أحيانًا ، ويصف نفسه بهذه العبارة : السلطان العادل الكريم الحليم الرءوف بعباد اللّه الغنيّ علاء الدنيا والدين علاء الدين بن أعظم السلاطين أحمد شاه البهمنيّ ، فبينما كان يخطب مرة ووصل إلى هذه العبارة نهض أحد أهل الإحساء وقد وفد للتجارة فاشترى منه السلطان أفراسًا ولم يعطه الوزراء أثمانها إلى تلك الساعة فقال : لا واللّه لاعادل ولا كريم ولا حليم ولا رءوف ، أيها

---

(١) « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي (٣/ ٢٣ ـ ٢٤) .

الظالم الكذّاب ! تقتل الذرّية الطاهرة وتتكلم بهذه الكلمات على منابر المسلمين !

فتأثر منه السلطان تأثراً عظيماً ، وفاضت عيناه ، وغضب على الوزراء غضباً شديداً ، ثم دخل بيتة ولم يخرج منه إلى أن مات[١] .

مظفر الحليم الكجراتي مثل عظيم لعدل الملوك :

قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « المسلمون في الهند » :

« السلطان الفاضل العادل ، المحدث الفقيه : مظفر حليم الكجراتي ، الذي روى عنه التاريخ من نوادرالإخلاص والإيمان ، والاحتساب والتقوى ، والعمل بالعزيمة ، والعدل والإيثار ، والحمية في الدين ، والتبحر في العلم ما يندر وجوده في سير كبار الزهاد والربانيين وكبار المخلصين ، فضلاً عن الملوك والسلاطين » .

كان غاية في التقوى والعزيمة والعفو والتسامح عن الناس ، ولذلك لقّبوه بالسلطان الحليم ، وكان يقتضي آثار السنة السنية في كل قول وفعل ، ويعمل بنصوص الأحاديث النبوية ، وكثيراً ما يذكر الموت ويبكي ، ويكرم العلماء ويبالغ في تعظيمهم .

وكان كثير التفحص عن أخبار الناس ، عظيم التجسس عن أخبار الممالك ، وربما يغيّر زيّه ولباسه ويخرج من قصره آناء الليل والنهار ويطّلع على الأخبار ويستكشف الأسرار .

• قال الآصفي : إنه وصل إليه يوماً من القاضي بجانبانير رسول الطلب وقد تظلم منه مَنْ يتجر في الخيل ، فكما بلغه وعلى ما كان عليه في حال الخلوة أجاب الرسول وخرج ماشياً إلى القاضي ، وجلس مع خصمه

(١) « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » (٣/ ٧٧-٧٨) .

بين يديه ، وأجاب التاجر عليه أنه لم يصله ثمن أفراسه ، وثبت ذلك وأبى التاجر أن يقوم من مجلسه قبل أداء الثمن وحكم القاضي به ، فمكث السلطان مع خصمه إلى أن قبض التاجر الثمن ، وكان القاضي لما حضر السلطان المحكمة وسلم عليه لم يتحرك من مجلسه ، وما كفاه ذلك حتى أنه أمره أن لا يترفع على خصمه ويجلس معه والسلطان لا يخرج عن حكمه ، ولما قبض التاجر الثمن وسأله القاضي : هل بقيت لك دعوى عليه ؟ وقال : لا ، عند ذلك قام القاضي من مجلسه ، وسلّم على سلطانه على عادته فيه ، ونكّس رأسه فيما يعتذر به ، فقام السلطان من مجلسه مع الخصم ، وأخذ بيد القاضي وأجلسه في مجلس حكمه كما كان ، وجلس إلى جنبه وشكره على عدم مداهنته في الحق حتى أنه قال : لو عدلت عن سيرتك هذه رعاية لي لانتصفت للعدالة منك وأنزلتك منزلة آحاد الناس لئلا يتأسى بك بعدك غيرك فجزاك اللَّه عني خيراً بوقوفك مع الحق ! فمثلك يكون قاضيًا ، فأثنى عليه القاضي ، وقال : ومثلك يكون سلطانًا .

• قال الآصفي : وفي سنه إحدى وثلاثين وتسعمائة خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء وتصدّق ، وتفقّد ذوي الحاجة على طبقاتهم وسألهم الدعاء ، ثم تقدّم للصلاة ، وكان آخر ما دعا به كما يقال : « اللَّهم إني عبدك ولاأملك لنفسي شيئًا ، فإن تك ذنوبي حبست القطر عن خلقك فهذه ناصيتي بيدك ! فأغثنا يا أرحم الراحمين » قال هذا ووضع جبهته على الأرض واستمر ساجداً يكرر قوله : يا أرحم الراحمين ، فما رفع رأسه إلا وهاجت ريح ونشأت بحرية ببرق ورعد ومطر ، ثم سجد للَّه شكراً ، ورجع من صلاته بدعاء الخلق له وهو يتصدّق وينفح بالمال يمينًا وشمالاً .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : نظرت فيما أوثر به أولي الاستحقاق من الإنفاق فإذا أنا بين إفراط في صرف بيت المال وتفريط في منع أهله ، فلم أدر

إذا سُئلت عنهما بِمَ أجيب .

وفي آخر أيامه وكان يوم الجمعة قال : أما صلاة الظهر فأصليها عندكم، وأما صلاة العصر فعند ربي في الجنة إن شاء اللَّه تعالى ، ثم أذن للحاضرين في صلاة الجمعة واستدعى مصلاه وصلى ، ودعا اللَّه سبحانه بوجه مقبل عليه وقلب منيب إليه ، دعاء من هو مفارق القصر مشرف على القبر ، ثم كان آخر دعائه ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلَمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾ ، وقام من مصلاه وهو يقول : أستودعك اللَّه ، اضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس ووجهه يلتفت إلى القبلة وقال : لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه ، وفاضت نفسه والخطيب على المنبر يدعو له ، وفي ذلك عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ويحسن الاستشهاد هنا بما رثى به العماد الكاتب سلطانه الملك العادل نور الدين الشهيد ـ رحمه اللَّه ـ .

يا ملكـاً أيامــه لــم تـزل لفضلـــه فاضلـة فاخـرة
ملكت دنيـــاك وخلّفتهـــا وســـرت حتى تملك الآخـــرة [1]

***

قضاة زيّنوا وجه التاريخ بعدلهم :

قال الحافظ ابن حجر في المراد بالإمام العادل : « هوصاحب الولاية العظمى ، ويلتحق به كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه » .

وقال ابن عبد البر : « ويدخل تحت قوله عليه السلام « إمام عادل » بالمعنى دون اللفظ كل من لزمه الحكم بين اثنين .

---
(١) « الإعلام » (٤/٣١٦ـ٣٢٥) .

ومنصب القضاء من أعلى المراتب السنيّات ، قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** ﴾[١] ، فليعلم القاضي عمن ينوب في حكمه وفتواه ، وليوقن أنه مسئول غدًا وموقوف بين يدي اللَّه .

قال ابن فرحون عن منصب القاضي : « الواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته من الدين ؛ فبه بُعثت الرسل ، وبالقيام به قامت السموات والأرض ، وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها ؛ فقد جاء من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالاً فسلطه على هلكته بالحق ، ورجل آتاه اللَّه الحكمة فعلمها للناس وقضى بها بين الناس** »[٢] .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾[٣] فأي شرف أشرف من محبة اللَّه »[٤] .

قال الغزالي : « إنه أفضل من الجهاد ، ذلك للإجماع مع الاضطرار إليه ؛ لأن طباع البشر مجبولة على التظالم ، وقلّ من يُنصف من نفسه ، والإمام مشغول بما هو أهمّ منه ؛ فوجب من يقوم به ، فإن امتنع الصالحون له منه أثموا ، وأجبر الإمام أحدهم » .

فللَّه دره من مقام تولاه النبي وكبار الصحابة .

قد ولىّ النبي ﷺ رجالاً من الصحابة على القضاء في حياته ؛ كعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وعتّاب بن أسيد .

لقد جاءت دوحة الإسلام برجال وقضاة أفذاذ ؛ قوّالين بالحق ، أمّارين

---

(١) سورة غافر الآية (٢٠) .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) سورة المائدة الآية (٤٢) .

(٤) « تبصرة الحكام » لابن فرحون (١/ ١٣) .

بالمعروف ، لا يعصون الخالق في طاعة المخلوق ، وهؤلاء هم الذين تحتاج الأمة إلىٰ أمثالهم ؛ إذ الأمة لا تحتاج إلىٰ شيء من الأخلاق احتياجها إلىٰ العدل ، والمساواة ، وعدم الإغضاء علىٰ تعدي حدود اللَّه رهبة من السلطان . . . هؤلاء الذين تحيا بهم الأمم ، وتشرق بهم الأيام وتعلو بهم قداسة الحق ، فتطيب بهم الأيام .

قال ﷺ : « **إن اللَّه لا يقدس أمة لا يُعطون الضعيف منهم حقه** »[(١)] .

وقال ﷺ : « **إن اللَّه لا يُقدس أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي وهوغير متعتع** »[(٢)] واللَّه مع القاضي العادل فأي شيء أشرف من هذا !! قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه مع القاضي ما لم يجُرْ ، فإذا جار تبرّأ منه وألزمه الشيـطان**»[(٣)] .

شريح القاضي : يحكم علىٰ أمير المؤمنين فيُسلم اليهودي :

شريح أقضىٰ الناس كما قال علي بن أبي طالب .

مرّ علي بن أبي طالب بسوق الكوفة يومًا ، فإذا به يمر أمام يهودي يعرض درعًا للبيع ، فلما رآها أمير المؤمنين عرف أنها درعه التي فقدها منذ سنين طويلة ، وعلامتها المميزة عليها ، فقال لليهودي : إن هذه الدرع درعي ، فقال اليهودي : بل هي درعي ، وأمامك القضاء .

ووقف أمير المؤمنين بجانب اليهودي أمام شريح ، فقال شريح : البيّنة

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٨٥٤) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في « سننه » عن أبي سفيان بن الحارث ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٥٣) .

(٣) حسن : رواه الحاكم في « المستدرك » ، والبيهقي في « السنن » عن ابن أبي أوفىٰ ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٨٢٣) .

علىٰ من ادَّعىٰ ، فقال علي : إن الدرع درعي وعلامتها كيْت وكيْت ، وهذا هو الحسن بن علي شاهدي علىٰ ذلك .

فقال شريح : يا أمير المؤمنين ، إني أعلم أنك صادق ، ولكن ليس عندك بيِّنة ، وشهادة الحسن لا تنفعك ؛ لأنه ابنك ، وقد حكمنا بالدرع لليهودي .

فهزّ هذا الموقف اليهودي فقال : واللَّه إن هذا الدين الذي تحتكمون إليه لهو الناموس الذي أنزل علىٰ موسىٰ ، وإنه لدين حق ، إلا أن الدرع درع أمير المؤمنين ، وإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمداً رسول اللَّه »[1] .

● واشترىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فرسًا من أعرابي وأعطاه ثمنه ، ثم ركب الفرس ومضىٰ به ، لكنه ما كاد يبتعد بالفرس حتىٰ ظهر فيه عطب أعاقه عن مواصلة الجري ، فعاد به ثانية إلىٰ الأعرابي وقال له : خذ فرسك فإنه معطوب .

قال الأعرابي : لا آخذه يا أمير المؤمنين فقد بعته لك سليمًا صحيحًا .

فقال عمر : اجعل بيني وبينك حكمًا ، فقال الأعرابي : يحكم بيننا شريح بن الحارث .

فقال عمر : رضيت به .

فذهبا إلىٰ شريح ، فلما سمع مقالة الأعرابي التفت إلىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ وقال له : هل أخذت الفرس سليمًا يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر : نعم .

---

(١) « كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء » لمحمد فهمي عبد الوهاب (ص٧٦ ـ ٧٧) دار الاعتصام .

فقال شريح : احتفظ بما اشتريت يا أمير المؤمنين أوْ ردّ كما أخذت .

فنظر عمر إلىٰ شريح معجبًا وقال: وهل القضاء إلا هكذا ؟ . . قول فصل وحكم عدل ، سرْ إلىٰ الكوفة فقد وليتك قضاءها »[١] .

● ولله در مسروق بن عبد الرحمن الإمام العظيم . . . القاضي الذي كان لا يأخذ علىٰ القضاء أجرًا ، كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : « لأن أقضي بقضية وَفْق الحق أحبُّ إليّ من رباط سنة في سبيل اللَّه ، أو قال : من غزو سنة »[٢] .

شريك بن عبد اللَّه قاضي الكوفة عظمّ أمر اللَّه ، فأذل اللَّه له عظماء خلقه :

لقد كان القاضي شريك قاضي الكوفة من الربانيين الذين هم صور الحق في مناصب القضاء لا يطمع في جورهم سلطان ، ولا ييأس من عدلهم إنسان . . . أي إنسان .

« روىٰ عمر بن هياج بن سعيد قال : أتت امرأة يومًا شريك بن عبد اللَّه قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم ، فقالت : أنا باللَّه ، ثم بالقاضي ، قال : مَنْ ظلمك ؟ قالت : الأمير موسىٰ بن عيسىٰ ابن عم أمير المؤمنين ؛ كان لي بستان علىٰ شاطئ الفرات فيه نخل ، ورثته عن أبي ، وقاسمت إخوتي ، وبنيت بيني وبينهم حائطًا ، وجعلت فيه رجلاً فارسيًا يحفظ النخل ويقوم به ، فاشترىٰ الأمير موسىٰ بن عيسىٰ من جميع إخوتي وساومني ، ورغّبني فلم أبعه ، فلما كانت هذه الليلة ، بعث خمسمائة

---

(١) « صور من حياة التابعين » .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٦٨ ـ ٦٩) .

غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحائط ، وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئًا ، واختلط بنخل إخوتي ، فقال شريك لحاجبه : يا غلام ، أحضِرْ ورقة ، ثم ختمها بخاتمه وقال لها : امضي إلىٰ بابه بالختم حتىٰ يحضر معك ، فجاءت المرأة بالورقة المختومة ، فطرقت باب الأمير فأخذها الحاجب منها ، ودخل بها علىٰ موسىٰ ، وقال له : قد أعْدَىٰ القاضي عليك ، وهذا ختْمه .

فقال موسىٰ : ادع لي صاحب الشرطة ، فدعا به .

فقال له : امض إلىٰ شريك وقل : يا سبحان اللَّه ! ما رأيت أعجب من أمرك ؛ امرأة ادّعت دعوىٰ لم تَصحّ ، أعْدَيتها عليّ ؟!

فقال صاحب الشرطة : إنْ رأىٰ الأمير أن يُعفِني من ذلك ؟

فقال الأمير : امضِ ، ويْلك !! فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه : اذهبوا وأدخلوا إلىٰ حبس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه في السجن !! ثم مضىٰ إلىٰ شريك ، فلما وقف بين يديه أدّىٰ الرسالة .

فقال القاضي لغلام الحبْس : خذْ بيده فضَعْه في الحبْس ، فقال صاحب الشرطة : واللَّه لقد عملتْ أنك تحبسني ، فقدّمت ما أحتاج إليه إلىٰ السجن ، وبلغ موسىٰ بن عيسىٰ الخبر ، فوجّه الحاجب إلىٰ شريك ، وقال له : رسول أدىٰ رسالة ، أي شيء عليه ؟! فقال شريك : اذهبوا به إلىٰ رفيقه إلىٰ الحبس ، فحبس ، فلما صلىٰ الأمير موسىٰ العصر ، بعث إلىٰ إسحاق بن الصباح الأشعثي ، وإلىٰ جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك ، وقال لهم : امضوا إلىٰ القاضي ، وأبلغوه السلام ، وأعلموه أنه استخفّ بي وأني لست كالعامة ، فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضىٰ

كلامهم قال لهم : مالي أراكم جئتموني في غَثَرة[1] من الناس فكلّمتموني ، ثم التفت حوله ونادىٰ : مَن ها هنا من فتيان الحيّ فأجابه جماعة من الفتيان ، فقال لهم : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء ، فيذهب به إلىٰ الحبس ، ثم وجّه الكلام إلىٰ وجوه الكوفة وهمُ يسحبون فقال : ما أنتم إلا فتنة ، وجزاؤكم الحبس .

فقالوا : له : أجادٌّ أنت ؟! قال : حقّا ، حتىٰ لا تعودوا برسالة ظالم ، فحبسهم جميعًا وعلم موسىٰ بن عيسىٰ فركب في الليل إلىٰ باب السجن ، وفتح الباب وأخرجهم كلهم ، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء ، جاءه السجّان فأخبره ، فدعا شريك بالقِمطر فختمه ، ووجّه به إلىٰ منزله ، وقال لغلامه : الحق بثقلي إلىٰ بغداد ، واللَّه ما طلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا له فيه الإعزاز إذ تقلّدناه لهم ، ومضىٰ نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلىٰ بغداد وبلغ الخبر موسىٰ بن عيسىٰ ، فركب في موكبه ولحقه ، وجعل يناشده اللَّه ويقول : يا أبا عبد اللَّه تثّبتْ ، انظر إخوانك تحبسهم ، دع أعواني .

قال شريك : نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجزْ لهم المشي فيه ، ولست ببارح أو يُردّوَا جميعًا إلىٰ الحبس ، وإلاّ مضيت إلىٰ أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني فأمر موسىٰ بردهم جميعًا إلىٰ الحبس .

فقال شريك لأعوانه : خذوا بلجام دابة الأمير بين يدي إلىٰ مجلس الحكم ، فمرّوا بين يديه حتىٰ أُدخل المجلس وجلس في مجلس القضاء ، وجاءت المرأة المتظلمة وقال لها : هذا خصمك قد حضر ، فقال موسىٰ

---

(١) في ظلمة وغشمة .

ـ وهو إلىٰ جانب المتظلمة بين يديه ـ : قبل كل أمر أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك : أما الآن فنعم ، أخرجوهم من الحبس .

وقال شريك للأمير : ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟

وأجاب موسىٰ : صدقت ، قال : تردّ ما أخذت منها وتبني حائطًا سريعًا كما كان .

قال موسىٰ : أفعل ذلك كله ، واتجه شريك نحو المرأة وقال : أبقىٰ لك عليه دعوىٰ ؟ قالت : بيت الفارسي ومتاعه ، قال موسىٰ : ويردّ ذلك كله .

قال شريك : أبقىٰ لك عليه دعوىٰ ؟ قالت : لا ، وبارك اللَّه عليك وجزاك خيراً ، فأمر شريك المرأة بالانصراف فانصرفت ، فلما فرغ قام وأخذ بيد موسىٰ بن عيسىٰ وأجلسه في مجلسه ، وقال : السلام عليك أيها الأمير ، أتأمرني بشيء ؟ قال الأمير : أي شيء آخر ؟! وضحك ، فقال له شريك : أيها الأمير ، ذلك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب ، فقام الأمير وانصرف إلىٰ منزله وهو يقول :

مَنْ عظّم أمر اللَّه أذلّ اللَّه له عظماء خلقه »[1] .

كم اعتزّ الحق بأهله واعتزّوا به ، وانتصر بهم وانتصروا به ، وباء أعداؤه بذلّة العبيد وهم يضعون علىٰ رءوسهم تيجان الملوك .

واسعداه للحق ... ما أخذه في اللَّه لومة لائم أربعين سنة ... ذلكم قاضي المدينة سعد بن إبراهيم :

قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف :

---

(١) « كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء » (ص٨٢ـ٨٦) .

عن ابن أبي ذئب : قضى سعد بن إبراهيم على رجل برأي ربيعة ، فأخبرتُه عن رسول اللَّه ﷺ بخلاف ما قضى به .

فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندي ثقة ، يحدّث عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيتُ به ، فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ، ومضى حكمك .

فقال سعد : واعجبا !! أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد ، وأردّ قضاء قضى به رسول اللَّه ﷺ !! بل أردّ قضاء سعد ، وأُنفذ قضاء رسول اللَّه ﷺ ، ودعا بكتاب الأقضية ، فشقّه وقضى للمقضي عليه .

• وفي مرض الموت دخل عليه ابن هرمز وجماعة يعودونه ، فاغرورقت عينا ابن هرمز .

فقال له سعد : ما يُبكيك ؟ فقال : واللَّه لكأني بقائلة غدًا تقول : واسعداه للحق ولا سعد .

قال : واللَّه لئن قلت ذلك ، ما أخذني في اللَّه لومة لائم منذ أربعين سنة[1] .

قاضي مصر بكّار بن قتيبة : الملتقى قريب والقاضي اللَّه عز وجل :

قال الطحاوي : كان بكّار على نهاية الحمد في ولايته .

قال الذهبي : جمع أحمد بن طولون العلماء والأعيان ، وقال : قد نكث الموفّق أبو أحمد - وليّ العهد - بأمير المؤمنين ، فاخلعوه من العهد ، فخلعوه ، إلا بكار بن قتيبة ، وقال : أنت أوردت عليّ كتاب المعتمد بتوليته العهد ، فهات كتابًا آخر منه بخلعه .

---

(١) « السير » (٥/٤١٨ - ٤٢١) .

قال : إنه محجور عليه ومقهور .

قال : لا أدري ، فقال له : غرّك الناس بقولهم : ما في الدنيا مثل بكارٍ ، أنت قد خرفت .

وقيدّه وحبسه وأخذ منه جميع عطائه من سنين ، فكان عشرة آلاف دينار ، فقيل : إنها وُجدت بختومها وحالها ، وبلغ ذلك الموفّق ، فأمر بلعن ابن طولون على المنابر .

ونقل القاضي ابن خلّكان ، أنَّ ابن طولون كان يُنفذ إلى بكار في العام ألف دينار ، سوى المقرّر له ، فيتركها بختمها ، فلما دعاه إلى خلع الموفق طالبه بجملة المال ، فحمله إليه بختومه ثمانية عشر كيساً فاستحيا ابن طولون عند ذلك .

وكان بكار وهو في حبسه يلبس ثيابه وقت صلاة الجمعة ويمشي إلى الباب ، فيقول له الموكّلون به : ارجع ، فيقول : اللَّهم اشهد .

ولما اعتلّ أحمد بن طولون راسل بكّاراً ، وقال : إنا رادوك إلى منزلك ، فأجبني .

فقال : قُل له : شيخ فانٍ ، وعليل مُدْنَف ، والملتقى قريب ، والقاضي اللَّه عز وجل »[1] .

القاضي نصر بن ظريف اليحصبي :

حكى أبو عمر بن عبد البر : أن حبيبًا القرشي دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، فشكا إليه القاضي نصر بن ظريف اليحصبي ، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه في ضيعة يقيم فيها ، وادعى عليه الاغتصاب لها ،

(١) « السير » (١٢/ ٥٩٩ ـ ٦٠٤) ، « وولاة مصر وقضاتها » (٣٦١ ـ ٣٦٢) .

ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلىٰ الحكم عليه من غير تثبت .

فأرسل الأمير إليه وكلّمه في حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه ، وعمل بغير ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيبًا ، فدخل إلىٰ الأمير مُتّغراً غيظًا ، فذكر له ما عمله القاضي ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له ، وأغراه ؛ فغضب الأمير علىٰ القاضي واستحضره ، فقال له : مَن أمرك أن تنفّذ حكمًا ، وقد أمرتك بتأخيره والأناة به ؟ فقال له : قدّمني عليه رسول اللَّه ﷺ ؛ فإنما بعثه اللَّه بالحق ؛ ليقضي به علىٰ القريب والبعيد والشريف والدنيء ، وأنت أيها الأمير ، ما الذي حملك علىٰ أن تتحامل لبعض رعيتك علىٰ بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضي من مالك مَن تُعنىٰ به ، وتمد الحق لأجله ؟ فقال له : جزاك اللَّه يا ابن ظريف خيراً ، وخرج القاضي ، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة لهم بالاستحقاق ، وكلمّهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم ، وصارت إلىٰ حبيب ، فكان بعد ذلك يقول : جزىٰ اللَّه ابن ظريف عنا خيراً ، كانت بيدي ضيعة حرام ، فجعلها حلالاً[1] .

قاضي البصرة سوار بن عبد اللَّه ... يرد أبا جعفر المنصور إلى الحق :

كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلي سوار بن عبدالله قاضىٰ البصرة كتابًا فيه : « انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها الىٰ القائد »، فكتب إليه سوار : « إن البينة قد قامت عندىٰ أنها للتاجر . فلست أعطها لغيره إلا ببينة » ، فكتب إليه المنصور : «واللَّه الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلىٰ القائد » فكتب إليه سوار : « واللَّه الذي لا إله إلا هو لا

---

(١) « تاريخ قضاة الأندلس » (ص٤٤) ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ لبنان .

أخرجها من يد التاجر إلا بحق » فلما وصل كتابه المنصور قال : ملأتها والله عدلاً ، وصار قضاتي تردني إلى الحق[١] .

ولما وشى البعض بالقاضي سوار إلى أبي جعفر المنصور ، فاستدعى الخليفة القاضي ، فلما مثل بين يديه عطس الخليفة فلم يشمته سوار فقال له الخليفة : لماذا لم تشمتني ؟ . . . قال سوار : لأنك لم تحمد الله .

فقال المنصور : قد حمدت في نفسي . . . فقال سوار : وأنا شمّتك في نفسي ، فتبسّم المنصور ، وقال له : ارجع إلى عملك فإنك إن لم تحابني لم تحاب غيري .

القاضي أبو عبيد بن حربويه :

« قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة ، كان أمير مصر يركب إلى داره ، ولم يكن هو يركب إلى دار الأمير ، ومن شدته في إنفاذ الشريعة أن مؤنسًا الخادم - وكان أكبر أمراء الخليفة المقتدر وكان يخطب له على المنابر مع الخليفة - ورد إلى مصر في عسكر كثير ، فعرض له ضعف ، فأرسل إلى القاضي يطلب منه شهودًا يشهدهم عليه أنه أوصى بوقف قرى كثيرة على سبيل البرّ ، ويعتق ستمائة مملوك ، وبأنواع من الخير .

فقال القاضي : حتى يثبت عندي أن مؤنسًا حُرّ .

وقال : إنه لم يرد عليّ كتاب من الخليفة بأنه أعتقه ، فلا أفعل . وكتب المقتدر إليه كتابًا ، فوصل الكتاب إلى مؤنس ، فاستدعى بعض الأمراء ليوصله إلى القاضي ، فامتنع هذا ؛ هيبة منه ، فدعا تكين أمير مصر ، وحمله على أن يذهب إلى القاضي ويوصل إليه الكتاب ، فأتى تكين إلى القاضي ومعه الكتاب وناوله إياه ، فقال القاضي : ما هذا ؟ فقال : كتاب أمير المؤمنين .

---

(١) « تاريخ الخلفاء » .

فقال : أَمِنْ يدك ؟ فقال : بل من أيدي شاهدَيْن عدلين يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين »[١] .

قاضي قرطبة المصعب بن عمران ، وردّه الضيْعة على الأيتام :

عُرِفَ ـ رحمه اللَّه ـ بعدله وصلابته في القضاء ، وبتنفيذه الأحكام يؤيده الأمير الحكم بن هشام وأبوه ، ولا يسمح فيه بمقال ، ويجيز أفعاله ، وينفذ أحكامه ، وإن وقعت بغير المحبوب منه .

« وفي كتاب الحسن بن محمد : أن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجلاً من أهل جيّان ضيْعته ، فبينما هو يُنازعه فيها ، هلك الرجل وترك أيتامًا صغاراً ، فلما ترعرعوا وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه ، قدموا قرطبة وأنهوا إليه مظلمتهم بالعباس ، وأثبتوا ما وجب إثباته ، فبعث القاضي إلىٰ العباس ، وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام ، وعرّفه بالشهود عليه ، وأعذر إليه فيهم ، وأباح له المدافع ، وضرب له الآجال ، فلما انصرمت ، ولم يأت بشيء أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه ، ففزع العباس إلىٰ الأمير الحكم ، وسأله أن يوصي إلىٰ القاضي بالتخلي عن النظر في قضية ؛ ليكون هو الناظر فيها .

فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه ، فلما أدىٰ الوصية إليه ، اشتدت عليه ، وقال : « إن القوم قد أثبتوا حقهم ، ولزمهم في ذلك عناء طويل ، ونصب شديد ؛ لبعد مكانهم ، وضعف حالتهم ، وفي هذا علىٰ الأميـر ـ أعزّه اللَّه ـ ما فيه ، فلستُ أتخلّى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه ، فليفعل الأمير بعده ما يراه صوابًا من رأيه » .

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي » للأمير شكيب أرسلان (ص٢٩ ـ ٣٠) دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه ، فوجم منه ، وجعل العباس يغريه بمصعب ، ويقول : لقد أعلمتُ الأمير بشدة استخفافه وغلطه في نفسه وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه ، وكرّر الأمير الطلب إليه أن يكفّ عن إصدار الحكم في القضية ، فأمر القاضي الرسول بالقعود ، وحكم للقوم بالضيْعة ، ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ، وقال : قد حكمتُ بالعدل ، فلينقضه الأمير إن قدر ، فاستشاط غيظًا ، وأطرق مليّا . . . وأقرّ حكم القاضي »[١] .

قاضي المرية بالأندلس : أبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن البراء يردّ على أميرالمؤمنين يوسف بن تاشفين :

« كتب إليه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين - فيمن كتب إليهم - بفرض معونة على الأهالي لأجل الجهاد ، فامتنع القاضي عن فرضها ، وكتب إلى أمير المسلمين بأنه لا يجوز له ذلك . فأجابه أمير المسلمين قائلاً له : إن القضاة عندي والفقهاء أباحوا فرضها ، وإن عمر بن الخطاب فرضها في زمانه ، فراجعه القاضي بكتاب يقول له فيه : الحمد للّه الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا ، وبعد : فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخّري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه أن عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - اقتضاها ؛ فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية فإن كان عمر اقتضاها ؛ فقد كان صاحب رسول اللّه ﷺ ، ووزيره ، وضجيعه في قبره ، ولا يُشك في عدله ، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول اللّه ، ولا بوزيره ، ولا مضجيعه في قبره ، ولا ممن لا يُشك في عدله . فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوه منزلته في العدل ، فاللّه تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك .

---

(١) « تاريخ قضاة الأندلس » (ص٤٦ - ٤٧) .

وما اقتضاها عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ حتىٰ دخل مسجد رسول اللَّه ﷺ ، وحضر من كان معه من الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ ، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ؛ وحينئذ تجب معونته . . . إلخ .

فلما بلغه هذا الكتاب وعظه اللَّه بقوله ولم يُعدِ عليه في ذلك قولاً»[١] .

الإمام الشهيد قاضي برقة : محمد بن الحُبُلي :

« أتاه أمير برقة ـ وكان من الفاطميين العبيديين ـ فقال : غداً العيد ، قال : حتىٰ نرىٰ الهلال ، ولا أُفطِّرَ الناس وأتقلّد إثمهم ، فقال : بهذا جاء كتاب المنصور ، وكان هذا من رأىٰ العُبيدية يفطرون بالحساب ، ولا يعتبرون رؤية ، فلم يُر هلال ، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد .

فقال القاضي : لا أخرج ولا أصلي ، فأمر الأمير رجلاً خطب ، وكتب بما جرىٰ إلىٰ المنصور ، فطلب القاضي إليه ، فأُحضر ، فقال له : تنصَّلْ ، وأعفو عنك ، فامتنع ، فأمر ، فعُلِّق في الشمس إلىٰ أن مات ، وكان يستغيث من العطش ، فلم يسُق ، ثم صلبوه علىٰ خشبة ، فلعنة اللَّه علىٰ الظالمين »[٢] .

قاضي قضاة الأندلس محمد بن بشير :

كانت لديه دعوىٰ لعم الحكم ، علىٰ واحد من العامة ، وكان يظنّ المدعي أن له من علوّ مكانته ، ووثيق صلته بالملك ما يمكن له عندالقاضي ، وإذا بالقاضي يقول له : قف بحذاء خصمك ولا تتكلم ، حتىٰ أكون أنا الذي أسألك .

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي » لشكيب أرسلان (ص٣٠ـ٣١) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٣٧٤) .

فلما أدلى بدعواه ، قال للمدعى عليه : ما تقول ؟ : قال : ليس عليَّ شيء أصلح اللّه القاضي .

قال القاضي للمدعي : هات بيّنتك ، قال : ألا يكفيك قولي ؟ قال : لو كفاني ما سألتك البينة . بيّنتك . قال : أمهلني .

وذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، فقال : ألست تعرف أن لي على فلان كذا ؟ قال : بلى .

قال : أتشهد لي ؟ قال : أنت تعرف القاضي وأخاف أن لا يقبل شهادتي ! قال : كيف وأنت الذي وليته القضاء ؟ قال : هو ما أقول لك .

قال : فمن يشهد لي ؟ فدعا الملك بفقيهين ، وكتب شهادته أمامهما وأشهدهما عليه ، وقال : امض بها إليه وأنا أخاف ألا يقبلها .

فلما كان يوم المحاكمة ، وقال له القاضي : بينتك ، أبرز له شهادة الملك ، فقال القاضي : أنا لا أقبل شهادته .

فاستشاط العمّ غضبًا ، وجن جنونه ، وذهب إلى ابن أخيه ، وقال : أنت ملك البلاد ، والقاضي ردّ شهادتك ! ماذا بقي لك من الكرامه والسلطان ؟ وضحك الحاكم وقال : ألم أقل لك يا عم ؟ إن القاضي رجل صالح لا تأخذه في اللّه لومة لائم ، عمل ما يجب عليه ، فأحسن اللّه جزاءه .

قال : فاعزله ، قال : أعوذ باللّه ، أنا أخون المسلمين في عزل مثله ؟ أنا عملت ما عليّ وشهدت لك ، وللقاضي أن يقبل الشهادة أو يردّها .

ولما سئل القاضي بعد ذلك : لما رددت شهادته ؟

قال للسائل : واللّه ما رددتها نقصًا في عدالته ، ولكن لابد من سؤال

المدعىٰ عليه عما يقوله في الشاهد ، فمن كان يجرؤ علىٰ الطعن في شهادته لو قبلتها ؟

• وأقام عاميٌّ لديه دعوىٰ علىٰ ابن فطيس الوزير ، وكان له في الأندلس سطوة ونفوذ ، فلما سأل المدعي بيِّنته ، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم ، ولم يعرفه بهم ، وحكم عليه ، فرفع الوزير شكوىٰ إلىٰ الحكم ، وكان القاضي حاضراً ، فأومأ إليه الحكم سائلاً .

فقال : ليس ابن فطيس ممن يُعَرَّف بمن شهد عليه ، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلىٰ تجريح شهادتهم ، لم يتحرج من استعمال سلطانه في أذاهم في أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم ، فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس »[1] .

القاضي المنذر بن سعيد البلوطي :

« ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن الناصر ، وناهيك من عدْل أُظهر ، ومن فضل أُشهِر ، ومِنْ جَوْر قُبض ، ومن حق رُفع ، ومن باطل خُفض ، كان مهيبًا صليبًا ، غير جبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحد من خَلْق اللَّه في استخراج حق ورَفْع ظلم ، استعفىٰ مرارًا من القضاء فما أُعفي »[2] .

« كان المنذر بن سعيد قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير ، وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء انهمك في الإشراف عليها ، حتىٰ تأخَّر عن حضور صلاة الجماعة ـ في يوم الجمعة ـ ثلاث جمع متواليات ، فأراد

---

(١) « رجال من التاريخ » للشيخ علي الطنطاوي (جـ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) دار البشير .
(٢) « نفح الطيب » (١/ ٣٧٥) .

القاضي منذر أن يغضّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾[1] ، ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهي دار القرار ، ثم مضى في ذمّ تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته إلى أن وصل إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] ، ثم خوّف بالموت ، ودعا إلى الزهد حتى خشع الناس ورقّوا وبكوا ، وضجّوا ودَعَوْا وأعلنوا التضرع إلى اللَّه في التوبة ، والابتهال في المغفرة وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه ، واستعاذ باللَّه من سخطه ، إلا أنه وجد ـ غضب ـ على منذر لغلظ ما قرّعه به ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، وقال : واللَّه لقد تعمدّني منذر بخطبته ، وما عنى بها غيري ، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي ، ولم يُحسن السياسة في وعظي ، فزْعزع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعني ، واستشاط غيظًا عليه ، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويُجانب الصلاة بالزهراء ، وقال الحكم : فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته ؟! فزجره وانتهره ، وقال

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٢٨ ـ ١٣٦) .

(٢) سورة التوبة الآية (١٠٩) .

له : أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يُعْزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟! هذا ما لا يكون ، وإني لأستحيي من اللَّه أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجني فأقسمت ، ولوددتُ أني أجد سبيلاً إلىٰ كفارة يميني بملكي ، بل يُصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء اللَّه تعالىٰ ، فما أظننا نعتاض منه أبدًا »[1] .

قال ابن عفيف : من أخباره المحفوظة : أن أمير المؤمنين ـ الناصر ـ عمل في بعض سطوح الزهراء قبّة بالذهب والفضة ، وجلس فيها ، ودخل الأعيان ، فجاء منذر بن سعيد ، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله : هل رأيت أو سمعت أن أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا ؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدَّر ، ثم قال : واللَّه ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان ـ لعنه اللَّه ـ يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن يمكّنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما أتاك اللَّه من فضله ونعمته وفضّلك به علىٰ العالمين ، حتىٰ يُنزلك منازل الكافرين .

فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس اللَّه تعالىٰ يقول : ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[2] .

فنكّس الناصر رأسه طويلاً ودموعه تتساقط ، ثم قال : جزاك اللَّه عنا

---

(١) عبد الرحمن الناصر لبسام العسيلي (ص١٠٦ ـ ١٠٨) ، السُّنة أن يكفّر عن يمينه ويفعل ما هو خير ، والحديث الصحيح صريح في هذا واللَّه يقول : ﴿ ولا تجعلوا اللَّه عرضه لأيمانكم أن تبروا ﴾ .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٣٣ ـ ٣٥) .

خيراً وعن المسلمين ، والذي قلت هو الحق ، وأرمر بنقض سقف القبة »[١] .

• «و أراد الناصر أن يبني قصراً لإحدىٰ نسائه ، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي ، فطلب شراءه ، فقالوا : إنه لا يباع إلا بإذن القاضي ، فسأله بيعه فقال : لا ، إلا بإحدىٰ ثلاث : حاجة الأيتام ، أوْ وهن البناء ، أو غبطة الثمن .

فأرسل الخليفة خبراء قدّروهما بثمن لم يعجب القاضي ، فأباه ، وأظهر الخليفة العدول عنهما والزهد فيهما ، وخاف القاضي أن يأخذهما جبراً .

فأمر بهدم الدار والحمام ، وباع الأنقاض ، بأكثر مما قدّر الخبراء ، وعزّ ذلك على الخليفة ، وقال له : ما دعاك إلىٰ ذلك ؟

قال : أخذت بقوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٢] .

لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار والحمام ، وبقيت للأيتام الأرض ، فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن .

قال الخليفة : أنا أولىٰ أن أنقاد إلىٰ الحق ، فجزاك اللّٰه عنا وعن أمتك خيراً »[٣] .

قاضي القضاة شيخ الشافعية محمد بن المظفر الشامي الحموي :

قال السبكي في « طبقات الشافعية » (٤/ ٢٠٣ ـ ٢٠٥) : « كان من قضاة العدل ، واتفقت منه محاسن أيام قضائه ، امتنع الشامي من قبول

---

(١) « السير » (١٦/ ١٧٧) ، وعبد الرحمن الناصر لبسام العسيلي (ص١١٠ـ١١١) .

(٢) سورة الكهف الآية (٧٩) .

(٣) « رجال من التاريخ » لعلي الطنطاوي (١/ ٢٢٥ـ٢٢٦) .

القضاء فما زالوا به حتىٰ تقلّده ، وشرط أن لا يأخذ رزقًا ، ولا يقبل شفاعة ، ولا يغيّر ملبوسه ؛ فأجيب إلىٰ ذلك .

قال ابن النجار : ما استناب أحدًا في القضاء ، وكان يسوّي بين الوضيع والشريف في الحكم ، ويقيم جاه الشرع .

وكان يقول : ما دخلتُ القضاء حتىٰ وجب عليّ ، ويقول : أعصي إن لم أَلِ القضاء .

● وقعت حادثة للسلطان ملكشاه ، فحُمِل قاضي القضاة الشامي إلىٰ دار السلطان ليقضي في تلك الحادثة ، فجاء المشطبُ بن محمد بن أسامة الفرغاني أحد فحول المناظرين من الحنفية ـ وكان ذا جاه عريض ، وملازمة للسلطان ـ فشهد بين يديه ، فقال الشامي علىٰ رءوس الخلائق : لا أقبل شهادته ، فقالوا : لمَ ؟ قال : لأنه فاسق ، وكان علىٰ المشطب ثوب حرير ، فخجل المشطب من ذلك .

وجاء أمير من الأتراك ، وادّعىٰ علىٰ واحد شيئًا ، فقال الشامي للأمير : ألك بيّنة ؟ قال : بلىٰ . قال : مَن هما ؟ قال : فلان والمشطبّ ، فقال الشامي : لا أقبل شهادة المشطبّ ؛ لأنه يلبس الحرير .

فقال المشطبّ : تردّني ، والسلطان ووزيره نظام الملك يلبسانه ؟! فقال الشامي : لو شهدا عندي ما قبلت شهادتهما[1] ، وفي رواية « لو شهدا عندي في باقة بقْل ، ما قبلت شهادتهما »[2] .

***

(١) « طبقات الشافعية » للسبكي (٤/ ٢٠٣ـ٢٠٥) .
(٢) « المنتظم » (٩/ ٩٦) ، و« الكامل » لابن الأثير (١٠/ ٢٥٣) .

القاضي جُميع بن حاضر الباجي ؛ يحكم بطرد المسلمين من سمرقند؛ واقعة صحيحة أشبه بالأساطير وأطيب من الشهد :

« لما استُخلف عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فعرّفوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدْر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ، ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أُخرجوا ، فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكَرِه أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقرّوا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم »[١] .

قاضي مصر عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء :

لما تحالف حاكم دمشق الصالح إسماعيل مع الصليبيين ، وأسلمهم قلعة صفد وقلعة الشقيف وصيدا ، وبعض بلاد المسلمين اختيارًا ، ليساعدوه ضد حاكم مصر ابن أخيه نجم الدين أيوب ، ودخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا المسلمين فشق ذلك على سلطان العلماء وأفتى المتعيّشين من بيع السلاح وأهل الشام وقال : يحرم عليكم مبايعتهم ، لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا إخوانكم المسلمين .

وترك الدعاء للحاكم في الخطبة ، وجدّد دعاءه « اللَّهم أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا تُعِزّ فيه وليّك ، وتُذِلّ فيه عدّوك ، ويُعمل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك » .

واعتقل سلطان العلماء ، وبقي مدة معتقلاً ، وانتقل الشيخ إلى بيت المقدس بعد خروجه من المعتقل .

وسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى سلطان العلماء قائلاً له

---

(١) « فتوح البلدان » للبلاذري .

«بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان ، وتقبّل يده لا غير »[1] ، وهنا قال سلطان العلماء كلماته النيِّرة ، وهي كلمات للحياة ، خرّ من هولها رسول الحاكم ، قال عز الدين : « واللَّه يا مسكين ، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي ، فضلاً أن أُقبِّل يده ، يا قوم ، أنتم في واد، وأنا في وادٍ ، الحمد اللَّه الذي عافاني مما ابتلاكم به »[2] .

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر اللَّه الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج ، ونجّى اللَّه سبحانه الشيخ ، فجاء إلى الديار المصرية ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وولاه خطابة مصر وقضاءها .

• وكان سلطان العلماء يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه ، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ ، أستاذ دار المُلْك ـ وهو الذي كان إليه أمر المملكة ـ عمد إلى مسجد بمصر فعمل على ظهره بناء لطبلخانات[3] ، وبقيت تضرب هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدْم البناء ، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء ، ولم علم الوزير بذلك غضب لذلك ، فقام الشيخ بالإشهاد عليه ، وأسقط عدالته ، وحكم بفسقه ، وعزل نفسه عن القضاء .

العز وسلطان مصر نجم الدين أيوب :

وقد كانت لسلطان العلماء قصة مع سلطان مصر نجم الدين أيوب وقد كان جبارًا متكبرًا ، كثير التجبرّ على أصحابه ، لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة .

(١ ، ٢) « طبقات الشافعية » (٨/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) .

(٣) دار لهو وغناء .

قال أبو الحسن الباجي تلميذ العزّ : « طلع شيخنا عز الدين مرّة إلىٰ السلطان في يوم عيد إلىٰ القلعة ، فشاهد العسكر مصطفّين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبّهة ، وقد خرج علىٰ قومه في زينته ، علىٰ عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلىٰ السلطان ، وناداه : يا أيوب، ما حجتك عند اللَّه ، إذا قال لك : يا أيوب ألم أبوِّئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرىٰ هذا ؟ قال : نعم ، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة ـ يناديه بأعلىٰ صوته ، والعساكر واقفون ـ فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ . . . ﴾[1] ، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة .

يقول الباجي : فسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي ، كيف الحال ؟ فقال : يا بنيّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه .

فقلت : يا سيدي ، أما خِفْته ؟ فقال : واللَّه يا بني استحضرت هيبة اللَّه تعالىٰ ، فصار السلطان قدّامي كالقط »[2] .

أمراء للبيْع :

حكىٰ السبكي والسيوطي أنه « لما تولىٰ الشيخ عز الدين القضاء تصدىٰ لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار ، وأن

(١) سورة الزخرف الآية (٢٢) .
(٢) « طبقات الشافعية » (٨/ ٢١١) .

حكم الرق مستصحب عليهم لبيْت مال المسلمين، فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب عندهم ، واضَّرم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحِّح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستشار غضبًا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : تعقد لكم مجلسًا وينادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه علىٰ حمار ، وأركب عائلته علىٰ حمار آخر ، ومشىٰ خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا نحو الشام ، فلم يصل إلىٰ نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبه إليه يتخلّف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متىٰ راح ذهب ملكك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه ، فرجع ، واتفقوا معه علىٰ أنه ينادَىٰ علىٰ الأمراء ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِد ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟! واللَّه لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلىٰ بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأىٰ من نائب السلطنة ما رأىٰ ، وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولدي أبوك أقلّ من أن يُقتل في سبيل اللَّه ، ثم خرج ، فحين وقع بصره علىٰ النائب يُبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكىٰ ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال: يا سيدي ، أيْش تعمل ؟ قال : أنادي عليكم وأبيعكم ، قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال : ومن يقبضه ؟ قال :

أنا ، فتمّ ما أراد ، ونادىٰ علىٰ الأمراء واحداً واحداً ، وغالىٰ في ثمنهم ، ولم يبعهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير ، وهذا لم يُسمع بمثله عن أحد ـ رحمه اللّٰه تعالىٰ ـ »[١] .

سلطان العلماء وقطز :

« لمّا دهم التتار البلاد عُقَيْب واقعة بغداد ، جبن أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عز الدين ـ رحمه اللّٰه ـ ، فقال : اخرجوا ، وأنا أضمن لكم علىٰ اللّٰه النصر ، فقال السلطان له : إن المال في خزانتي قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ، فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام ، وضربتَه سكة ونقداً ، وفرّقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت ، اطلب القرْض ، وأما قبل ذلك فلا .

فأحضر السلطان والعسكر كلهم ـ ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيْبة ، بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره وانتصروا »[٢] .

القاضي الفناريّ يردّ شهادة السلطان بايزيد لأنه تارك للجماعة :

محمد بن محمد بن حمزة الفناديّ ويقال الفناريّ تولي قضاء بروسا للأتراك ، وهو مصنف « فصول البدائع في أصول الشرائع » ، وهو من أجلّ الكتب الأصولية وأنفعها وأكثرها فوائد .

من تصلبه في الدين وتثبته في القضاء وعدله أنه رد شهادة السلطان

---

(١) « حسن المحاضرة » للسيوطي (٢/ ١٦٢) ، و« طبقات الشافعية » للسبكي (٨/ ٢١٦) .
(٢) « طبقات الشافعية » (٨/ ٢١٥) .

العثماني بايزيد بن مراد في قضيّة فسأله السلطان عن سبب ذلك فقال : إنك تارك للجماعة ، فبنى السلطان قدّام قصره جامعًا ، وعين لنفسه فيه موضعًا ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

فللّه درّ هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه ، ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن له عليه أدنى نعمة مخافة من زوالها ، بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل المرتبة السنية عن التكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأماني الأشعبيّة(١) .

القاضي شكر اللّه السندي وخبره العجيب :

تولى القضاء في تته من بلاد السند سنة سبع وعشرين وتسعمائة أيام شاهي بيك كان ـ رحمه اللّه ـ لا يخاف في اللّه سبحانه أحدًا ، حتى قيل إن شاه حسين بن شاهي بيك ملك السند اشترى أفراسًا من بعض التجار وماطله في أداء الثمن ، فرفع التاجر القضية إلى القاضي ، فأمر أن يحضر السلطان بين يديه ويقوم حيث ما قام التاجر ، ثم قضى عليه بحق التاجر ، فأرضى السلطان التاجر ، ثم قام القاضي من مقامه وقدم السلطان على جري العادة ، فقعد السلطان عنده وأراه خنجرًا كان معه ، وقال له : جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق مهابة مني ، فأخرج القاضي السيف من تحت وسادته وقال له : وضعت هذا السيف لأقتلك لو جاوزت عن حدك ، ثم خرج السلطان مسرورًا وكان مطله في أداء الثمن من أجل الامتحان(٢) .

* * *

---

(١) « البدر الطالع » للشوكاني (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩) .

(٢) « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » لعبد الحي الندوي (٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥) .

وضاع العدل بضياع الخلافة :

فأصبحـــت دولـة الإسـلام حائرةً تشكو الوجيعة لما مات آسيهـــا
مضى وخلّفهـا كالطـود راســخة وزان بالعدل والتقوى معانيهـــا
تنبوا المعــاول عنها وهي قائمــة والهادمون كثير في نواحيهـــا
حتى إذا ما تولاّهـــا مُهَدِّمُـهـا صاح الزوال بها فانْدَكَّ عاليهـــا
واهـًا على دولة بالأمس قد ملأت جوانب الشرق رغدًا من أياديهـــا
كم ظلّلتْها وحاطتهـــا بأجنحـة عن أعين الدهر قد كانت تواريهـــا
من العناية قد ريشَـتْ قوادمهـا ومن صميم التقى ريشَتْ خوافيهـا
لو أنهـم لنقيّ الديـــن قد حفظـوا لما نعاها على الأيام ناعيهـــا
فيا أتاتورك لا جادتـــك غاديــة من رحمة اللّه ما جادت غواديهـــا
طعنت الخلافة مرتـــدًا ومنتقمـــًا من الحنيفة في أعلى مجاليهـــا

* * *

وغاب العدل والنور بضياع الخلافة وحكم القرآن :

وضاع العدل والنور وغابا عن الحياة ، وأصبح الناس في ضنك الانقطاع عن الاتصال باللّه والاطمئنان إلى حماه ، ضنك الحيرة والقلق والشك ، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه فألقى بالهدىٰ من بين يديه ، وهو أنفس ثراء وذخر .

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن ؛ وليس أبشـع من تفريـط المتسـحفظ ، وليس أخس من تدليس المستشهد . . . يخونون ويفرطون

ويدلسون ، ويسكتون على العمل لتحكيم ما أنزل اللّه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه حتى ضاعت الخلافة وحكم القرآن . . . ، نعاني من ظلمة الحيرة والانقطاع عن الهدى ، والوحشة من الجناب الآمن المأنوس نعاني من ويلات حاضرنا والقرآن منا قريب في متناول أيدينا لو نشاء . . . فأية صنفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى ؟ وللّه در شوقي وهو ينعي سقوط الخلافة :

عادت أغانى العرسِ رَجْعَ نُواحِ ... ونُعيتِ بين معالمِ الأفراحِ

كُفِّنت في ليلِ الزفافِ بثوبه ... ودُفنتِ عند تَبلجِّ الإصباحِ

شُيِّعتِ في هلعٍ بعبرة ضاحكٍ ... فى كل ناحيةٍ وسكرةِ صاحِ

ضجَّتْ عليك مآذنٌ ومنابرٌ ... وبكتْ عليكِ ممالكٌ ونواحِ

الهند والهةٌ ومصر حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمع سَحَّاحِ

والشام تسألُ والعراقُ وفارسٌ ... أَمَحا من الأرض الخلافة ماحِ

أتت لك الجمعُ الجلائل مأتمًا ... فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ

يا للرجال لحُرَّةٍ موءودةٍ ... قُتلَت بغير جريرةٍ وجناحِ

هتكوا بأيديهم مُلاءةَ فخرهم ... مَوْشيَّةً بمواهب الفتّاحِ

نزعوا عن الأعناقِ خير قلادةٍ ... ونَضوْا عن الأعطافِ خيرَ وشاحِ

حَسَب أتى طول الليالي دونه ... قد طاح بين عشية وصباحِ

وعلاقة فُصمت عرى أسبابها ... كانت أبرّ علائقِ الأرواحِ

جمعت على البرّ الحضورَ وربما ... جمعت عليه سرائرُ النُّزّاحِ

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جُمعة ورواحِ
بكت الصلاةُ وتلك فتنةُ عابثٍ بالشرعِ عربيد القضاء وقاحِ
أفتى خزعبلةً وقال ضلالةً وأتى بكفر في البلاد بواح
إن الغرور سقى الرئيس براحِه كيف احتيالك في صريع الراحِ؟
نَقَل الشرائعَ والعقائد والقرى والناسَ نقل كتائبٍ في الساح
تركته كالشبح المؤلّهِ أمةٌ لم تَسْلُ بعدُ عبادةَ الأشباحِ
فلتسمعن بكل أرض داعياً يدعو إلى الكذّاب أو لسجاحِ
ولتشهدن بكل أرض فتنةً فيها يُباع الدين بيع سماح
يفتي على ذهب المعز وسيفه وهوَى النفوس وحقدها الملحاحِ

ولنا الفجر الآتي فلا تهيىء كفني يا عاذلي :

يومًا ما ستعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، يقيننا بهذا أكبر من الدنيا بأسرها ، أكبر من يقيننا بوجودنا .

عن حذيفة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **تكون النبوة فيكم ما شاء اللَّه أن تكون ، ثم يرفعها اللَّه إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء اللَّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء اللَّه أن يكون ، ثم يرفعها إذا شاء اللَّه أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء اللَّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت** »[١] .

---

(١) حديث صحيح : رواه أحمد ، والبزار ، والطيالسي في « مسنده » ، والطبراني ببعضه في =

والمهدي يملأها قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوْراً وظلماً :

والأحاديث في ظهور المهدي وخلافته تبلغ حد التواتر المعنوي كما قال حفاظ هذه الأمة نوقن بها . . . وهي من عقيدة أهل السنة والجماعة ، خلافًا للعقلانيين أفراخ المعتزلة .

قال رسول اللّه ﷺ : « **لتُمْلأن الأرضُ جَوْراً وظلماً ، فإذا مُلئت جوراً وظلماً، يَبعثُ اللّه رجلاً مني ، اسمه كاسمي ، واسم أبيه كاسم أبي ، فيملؤُها عدلاً وقسطاً ، كما مُلئت جوراً وظلماً ، فلا تمنع السماء من قطرها[1] ، ولا الأرض شيئاً من نباتها ، يَمكث فيكم سبعاً أو ثمانياً ، فإن أكثر فتسعاً** »[2] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **لتُملأنَّ الأرضُ ظلماً وعدواناً ، ثم ليخرجن رجل من أهل بيتي ، حتى يملأها قسطاً وعدلاً ، كما مُلئت ظلماً وعدواناً** »[3] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لَطَوّل اللّه ذلك اليوم ، حتى يُبعَثَ فيه رجل من أهل بيتي ، يواطئ[4] اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً** »[5] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **من خلفائكم خليفة ، يحثو المال حثياً ، لا يعده**

= «الأوسط» وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ١٨٩) : رجال ثقات ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٥) .

(١) المطر .

(٢) صحيح : رواه البزار ، والطبراني في« الكبير » ، عن أبي سعيد الخدري ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٠٧٣) ، و« الصحيحة » رقم (١٥٢٩) .

(٣) صحيح : أخرجه الحارث ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٧٤) ، و« الصحيحة » رقم (١٥٢٩) .

(٤) يواطئ : أي يوافق .

(٥) صحيح : رواه أبو داود في « سننه » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٠٤) ، و« المشكاة » رقم (٥٤٥٢) .

عدّاً »[١] أي يغرف منه غرفًا ، كناية عن كثرة الخير وعدل الخليفة وهو المهدي وكرمه .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المهدي من عترتي من ولد فاطمة** »[٢] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المهدي مني ، أجلى**[٣] **الجبهة ، أقنى**[٤] **الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين**»[٥] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **يكون في آخر الزمان خليفة ، يقسم المال ولا يعدّه** »[٦] .

طوبى لعيش بعد المسيح عليه السلام :

إن الإنسان ليعجب أشد العجب ممن ينكر نزول المسيح وقتله للدجال مع تواتر الأحاديث في ذلك ، ينقل هذا التواتر عِشرون أو أكثر ـ من أساطين علم الحديث : الطبري ، وابن كثير ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن حجر ، والشوكاني ، والذهبي ، والألباني ، فأين ذهبت عقول رجالات المدرسة العقلية .

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فأمّكُم ؟** »[٧] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن**

---

(١) رواه مسلم وأحمد ، عن أبي سعيد .

(٢) صحيح : رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم ، عن أم سلمة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٧٣٤) .

(٣) أي : منحسر شعره عن مقدم رأسه .

(٤) يعني : طويل مع دقة فيه .

(٥) حسن : رواه أبو داود ، والحاكم عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٧٣٦) .

(٦) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد وجابر .

(٧) أي أمّكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم . رواه مسلم عن أبي هريرة .

مريم حكماً مقسطاً ، وإماماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية، ويفيض[١] المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها »[٢] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **واللَّه لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ،ولتُتْركنَّ القلاص**[٣]**، فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد،وليَدعُون إلى المالِ فلا يقبله أحد»**[٤] .

• وعند أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **الأنبياء إخوة لعلات**[٥] **أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني لأولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل فاعرفوه رجل مربوع**[٦] **إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصّران**[٧] **، كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك اللَّه في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك اللَّه في زمانه المسيح الدجال ثم تقع الأمانة**[٨] **على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات فلا تضرهم فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون »**[٩] .

---

(١) أي يكثر .
(٢)رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة .
(٣) القلاص : جياد الإبل .
(٤) رواه أحمد ومسلم ، والآجري ، وابن منده عن أبي هريرة .
(٥) إخوة لعلات : أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد وأراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة ، قال ابن حجر في « الفتح » : علات : ضرائر .
(٦) مربوع : يعني معتدل القامة بين الطويل والقصير .
(٧) ممصّران : أي فيهما صفرة خفيفة .
(٨) الأمانة : أي الأمنة والسلام ، وترتع : أي تلعب .
(٩) رواه أحمد (٩٢٥٩) ، وأبو داود (٤/ ١١٧) ، وابن جرير (٩/ ٣٨٨) ، وابن حبان (٨/ ٢٧٧)، والحاكم (٢/ ٥٩٥) وصححه ، ووافقه الذهبي وابن أبي شيبة (١٥/ ١٥٨) ، وصحح سند أحمد الشيخ أحمد شاكر وكذا سند الطبري .

وعند ابن ماجه (٤٠٧٧) والحاكم (٤/ ٥٣٦) : من حديث أبي أمامة الباهلي « **وتنزع حمة**[١] **كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره ، وتُفر الوليدة الأسد فلا يضرها ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا اللّه وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض لها نور الفضة ، وتنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف**[٢] **من العنب فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ...** » .

• وعند مسلم في كتاب الفتن باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » من حديث النواس بن سمعان : « **... ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة**[٣] **من الرّمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرِّسْل**[٤] **حتى إن اللقحة**[٥] **من الإبل لتكفي الفئام**[٦] **من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ**[٧] **من الناس ...** » .

حبذا هذا العيش وحبذا هذا الزمان الذي يعم فيه العدل والسلام . . .

***

---

(١) الحمة : هو السم ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة لأن السم منها يخرج .

(٢) تفر الوليدة الأسد : أي تحمله على الفرار . والقطف : العنقود .

(٣) العصابة : الجماعة .

(٤) الرِّسْل : اللبن .

(٥) اللقحة : اللبون .

(٦) الفئام : الجماعة .

(٧) الفخذ : من الناس دون القبيلة .

شـــاب نشـــأ

فـــي

عبـــادة الله عز وجـــل

« إن ربك ليعجب للشاب

لا صبوة له » حديث جيد

شـــاب نشأ في عبادة الله عز وجل

عن سلمان الفارسي - رضي اللَّه عنه - قال : « **سبعة يظلهم اللّه في ظل عرشه يوم القيامة : رجل إذا ذكر اللّه خاليًا ، فاضت عيناه، ورجل أفنى شبابه ونشاطه في عبادة اللّه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد من حبها ، ورجل تصدَّق بيمينه وكان يخفيها من شماله ، ورجلان التقيا ، فقال كل واحد منهما : إني أحبك في اللّه ، تصادرا على ذلك ، ورجل أرسلت إليه امرأة ذات منصب تدعوه إلى نفسها فقال : إني أخاف اللّه ، وإمام مقتصد** »[1] .

وعن عقبة مرفوعًا : « **إن ربك ليعجب للشاب لا صبوة له** »[2] .

ولِلَّه در هذا ودر مكانته، ولو لم يكن له من ثناء إلا أن يعجب ربه منه لكفى : « يعظم عنده قدرًا فيجزل له أجرًا لكونه ليست له صبوة » أي ميل إلى الهوىٰ بحسن اعتياده للخير وقوة عزيمته في البعد عن الشر ، قال حجة الإسلام : وهذا عزيز نادر ، فلذلك قُرِن بالتعجب »[3] .

وهل الأفضل من نشأ لا صبوة له لكونه لم يلبس كبيرة ونجا من

---

(١) إسناده حسن : رواه سعيد بن منصور في « سننه » ، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٢/ ١٤٤) .

(٢) إسناده جيد : رواه الروياني في « مسنده » من رواية عبد اللّه بن وهب وهو أحد العبادلة عن ابن لهيعة ، وأخرجه أحمد بلفظ : « إن اللّه ليعجب » ، ورواه الطبراني في « الكبير » وأبو يعلىٰ في « مسنده » وابن أبي عاصم في « السنة » وابن المبارك في « الزهد » ، وقال الهيثمي : « رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني وإسناده حسن » ، وجوَّد إسناده الألباني في « الصحيحة » (٦/ ٨٢٤ - ٨٢٦) حديث رقم (٢٨٤٣) .

وصبوة : أي ميل إلى الهوىٰ ، وهي المَرَّة منه ، انظر « النهاية » .

(٣) « فيض القدير » للمناوي (٢/ ٢٦٣) .

ضررها وخطرها والسؤال عنها يوم القيامة ، أو من قارف الذنوب وتاب توبة نصوحًا لكونه قلع عن الشهوات اللَّه بعد إلفه لها وتعوده لذتها ، ثم فارق لذته وشهوته للَّه ؟ قولان والأول أولى وأفضل .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تزولا قدما ابن آدم يوم القيامة عند ربه ، حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ، وماذا عَمِلَ فيمَ علَم** »[(١)] .

وللَّه در حفصة بنت سيرين حين قالت : « يا معشر الشباب ، اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب هو القوة ، فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله » .

وفي الشباب نوع من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أخت كلمة النوم .

وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها ، وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلها إلا خشبًا[(٢)] .

الشباب توثُّب رُوح واستنارة فكر ، وطفرة أمل وصلابة عزيمة . . وما ظهر ، الدين وعرف الناس شرائع النبيين إلا بفضل الشباب الصالحين : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾[(٣)] .

فهم النقباء والحواريون ، والأنصار والمهاجرين ، وهم العلماء

---

(١) حسن : رواه الترمذي عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٢٩٩) .
(٢) « وحي القلم » لمصطفى صادق الرافعي (٢/ ٢٣٠) .
(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٢) .

والمعلمون ، والخطباء المصقعون ، والتاريخ أصدق شاهد بفضل الشباب الناشئين في طاعة اللَّه ، واللَّه تعالىٰ يقول في أصحاب الكهف : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴾[1] .

فتية آمنوا علىٰ الوهلة بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لَمَّا أتتهم دواعي الوصلة قاموا للَّه ، وما استقروا حتىٰ وصلوا إلىٰ اللَّه . . . مَتَع نهار عرفانهم واستضاءت شموسهم بزيادة اليقين ، وتَمَّت سكينة قلوبهم ، قعدت عنهم الشهوات فصحَّ قيامهم باللَّه ، ينكشف العجب في شأن القلوب الشابة المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ، ومتاع الدنيا ، هؤلاء الذين يأوون إلىٰ الكهف الضيق الخشن المظلم ، هؤلاء يستروحون رحمة اللَّه ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ، ولفظة (ينشر) ، تلقىٰ ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع ، تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها ، وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء .

من صَدَق رجوعه إلىٰ اللَّه في أحوله ، ولم يستعن بغير اللَّه من أشكاله وأمثاله ، آواه إلىٰ كنف أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهيَّأ له محلاً يتفيأ فيه في برد ظلاله بكمال إقباله .

« إن العصبة المؤمنة التي تركزت في دار الأرقم وعلىٰ يديها تحقق نصر الإسلام كانوا شبابًا ، فرسـول اللَّه كان عمـره أربعين سـنة عند البعثة ،

---

(١) سورة الكهف الآية (١٣) .

وأبو بكر الصديق كان أصغر من النبي بثلاث سنين ، وعمر - رضي اللَّه عنه - كان أصغر ، وعلي - رضي اللَّه عنه - كان أصغر من الجميع ، وهكذا كان عبد اللَّه بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، والأرقم أبي بن الأرقم ، وسعيد بن زيد ، ومصعب بن عمير ، وبلال بن رباح ، وعمار ابن ياسر ، وعشرات غيرهم بل مئات كلهم كانوا شبابًا . . . هؤلاء الشباب هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة وهم الذي استعذبوا في سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم حتى حققوا لهذا الإسلام انتشاره وكيانه ولهذا الدين انتصاره وتمكينه »[١] .

وللَّه در أحمد الصديق حين يقول :

شباب الحق يا أملاً يُداعب فجرنا الزاهرْ

ويا صوتًا يشيع الرعب في قلب الدجى الغادرْ

ويا درعًا يصون الدين ... يحمي عرضنا الطاهرْ[٢]

وللَّه دره حين يشدو :

ويا إخوتي ... يا منـــاط العُـــلا ويا صيحـة الحق مـــلءَ الفـــمِ

---

(١) « كان عُمُرُ عمر بن الخطاب ستًا وعشرون سنة ، وعثمان بن عفان عشرين سنة ، وعلي بن أبي طالب ثمان عشرة سنة ، وسعد بن أبي وقاص سبع عشرة سنة ، وصهيب الرومي تسع عشرة سنة ، وزيد بن حارثة عشرين سنة ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح سبعًا وعشرين سنة ، وعبد الرحمن بن عوف ثلاثين سنة ، وبلال بن رباح ثلاثين سنة ، والأرقم بن أبي الأرقم إحدى عشرة سنة الذي تأسست في داره أول دار علم في الإسلام » .

(٢) من قصيدة « جنود الحق » من ديوان نداء الحق لأمد الصديق (ص٩٨) .

ويا جُـــرح آمالنـــا الغالياتِ توهَّـــج كالشـــرر المضـــرمِ
ويا صحـوة الفكر ... أرواحنـــا بغير البطـــولات لم تَحْلُـــمِ
يجلجل فينا نداء السمـــاء ويجـــأر كالقـــــدر المبـرَمِ
يُحيِّي الرجال ذوي العزمـــاتِ ويهدي الضياء لعيـن العَمِـــي
يُحيل المشاعر نارًا ونـــورًا يشق سجوف الدجـى المظلـــمِ
ويشرح للدهر معنى الثبـــات على الحق في نهجـه القيِّـــمِ[1]

ولله دره حين يترنم للشباب غراس الآمال :

إنما أنت يا شبابُ ربيعٌ وعلى الأرض أنت ظل السماءِ
أنت روح مجنَّحٌ ... وطُموحٌ صاغه الله من سنًا وسناءِ
فيك من روعة الخلود انفتاحٌ وانجذاب إلى الذرى الشمَّاءِ
تتسامى أحلامك الغر حتى ترتقي عالم المثال النائي
أنت نبض الحياة يرفل بالطهـــ ـــر .. ودنيا تعبُّد ونقاءِ
وأمان تفتَّر في كل صدر وهي ترنو لفجرها الوضَّاءِ
يا أخي أنت شعلة الحق لا يخبو لظاها في زحمة الأنواءِ
كم عيون ترنو إليك ... وكم تهفو قلوب مكلومة الأحشاءِ
وبلاد غذَّتك من شهدها الذاكـ ـــي تُرَجِّى الغداة حسن الوفاءِ
أرضعت قلبك الإباء فأرضعْ فجرها يوم بعثها بالدماءِ[2]

---

(١) من قصيدة « التحدي » من ديوان نداء الحق لأحمد الصديق (ص٨٥) .
(٢) من قصيدة « الشباب » من ديوان نداء الحق لأحمد الصديق (ص٨١ ـ ٨٤) .

فتعال معي إلى الصفحات العطرة وقبس من حياة الشباب الذين أفنوا أعمارهم في عبادة اللَّه وطاعته .

علي بن أبي طالب : حيدرة .. القاتل لصناديد قريش وهو شاب :

قتل حيدرة الأبطال علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ وهو شاب في يوم بدر ـ شيبة بن ربيعة ، واشترك في قتل الوليد بن عتبة ، وقتل بعدهما في بدر : العاص بن سعيد ، وعامر بن عبد اللَّه ، وطعيمة بن عديّ ، وزمعة ابن الأسود ، ونوفل بن خويلد ، وعقيل بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، وعمير بن عثمان ، ومسعود بن أمية ، وأبا قيس بن الفاكهة ، وحاجب بن السائب ، وعبد اللَّه بن المنذر ، والعاص بن منبه ، وأوس بن معير ، خمسة عشرة رجل قتلهم عليٌّ في يوم بدر .

وقبله حمى علي ـ رضي اللَّه عنه ـ دين اللَّه عز وجل في شخص نبيه ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرَّت بها الدعوة . . . نام في الفراش وهويعلم أن على الباب رجالاً لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش .

وفي يوم أحد يقتل علي : أبا أمية بن أبي حذيفة ، وعبد اللَّه بن حميد ابن زهير .

وفي يوم الأحزاب يقتل علي عمرو بن عبد ود ، فارس قريش في يوم الأحزاب « كبش الكتيبة » ، وكبرَّ المسلمون لقتل كبش الكتيبة . . .

فللَّه در أبي الحسن والحسين .

وكان أخاً لنبي الهدى	وخُصَّ بذاك فلا يُكذَبِ
وفي ليلة الغار وافى النبي	عشاء إلى الفلق الأشهبِ
وبات دُوَيْنَهُ في الفراش	مُوَطِّنَ نفس على الأصعبِ
وعمرو بن ودٍّ وأحزابه	سقاهم حسا الموت في يثربِ

وسل عنه خيبر ذات الحصـــون   تُخَبِّـرْك عنـه وعن مَرْحَـب

للَّه در شاب كان أول من أسلم من الصبيان . . . ترعرع وتربى في بيت النبوة والرسالة . . . للَّه در شاب قال له النبي ﷺ : « **ألا يرضيك أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى** »(١) .

للَّه در شاب قال عنه النبي ﷺ ليلة خيبر : « **لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه اللَّه ورسوله** »(٢) ، فأعطاها لعلي ، وقتل علي مرحب فارس خيبر ، للَّه در شاب قال عنه النبي ﷺ : « **إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله** » فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر ـ فقال : « **لا ولكنه خاصف النعل** » : « يعني عليًا ـ رضي اللَّه عنه ـ . . . فقاتل الخوارج .

بأبي وأمي من قال عنه النبي ﷺ وهو شاب : « **إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة، علي وعمار وسلمان** »(٣) .

• معاذ بن جبل مقدام العلماء :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن معاذ بن جبل أمامَ العلماء رَتْوَة** »(٤) .

وقال عنه ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إن معاذًا كان أمة قانتًا للَّه . . . إنما كنا نشبهه بإبراهيم »(٥) .

---

(١) صحيح : رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص ، والترمذي ، وأحمد ، وأبويعلى ، والبزار ، والطبراني .

(٢) أخرجه مسلم عن سعد وأبي هريرة ، والترمذي ، والطبراني .

(٣) حسن : رواه الترمذي والحاكم في « المستدرك » عن أنس ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع»رقم (١٥٩٤) .

(٤) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه ابن سعد في « الطبقات » عن محمد بن كعب ، وله شاهد عند ابن أبي شيبة وأبي نُعيم والحاكم .

(٥) موقوف صحيح : أخرجه ابن جرير في « التفسير » ، وابن سعد في « الطبقات » ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد اللَّه بن مسعود** - فبدأ به - **وسالم مولى أبي حذيفة ، وأُبَيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل**»[1] .

وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال لمعاذ : « **يا معاذ ! ، واللَّه إني لأحبك ، واللَّه إني لأحبك ...** »[2] .

للَّه دره من سيد ، له أسبقيته ، وإيمانه ويقينه ، للَّه دره معلم وفاتح اليمن ، على أن آلق مزاياه وأعظم خصائصه ، كان فقهه ، وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام كما شهد له رسول اللَّه ﷺ ، ويقول عنه عمر : « لو لا معاذ بن جبل لهلك عمر » .

كان أصحا ب رسول اللَّه إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له ، للَّه دره . . . كأنما كان يخرج من فمه نور ولؤلؤ . . . بلغ منزلة عظيمة في العلم ، وفي إجلال المسلمين له ، أيام رسول اللَّه ﷺ وبعد مماته .

مات - رحمه اللَّه - يوم مات ولم يجاوز من العمر ثلاثًا وثلاثين سنة ، أو ثمانية وعشرين سنة . . . وحصَّل ما حصَّل وسبق الأمة في الفقه وعلم الحلال والحرام في تسع سنوات .

للَّه در معاذ من شاب ربَّاني قانت أمة فارس مغوار مشتاق إلى ربه .

كان - رضي اللَّه عنه - قائد الميمنة في « أجنادين » ، وقام في أصحابه فقال : « يا معشر المسلمون ، اشروا أنفسكم اليوم للَّه . . . فإنكم إن هزمتموهم اليوم ، كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان اللَّه والثواب العظيم من اللَّه » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والطيالسي ، والنسائي في « الفضائل » .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم .

للَّه در معاذ قائد الميمنة في « محل بيسان » .

قال عنه ثابت بن سهل بن سعد : « كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصًا، وأمضاهم في رقاب الروم سيفًا » ، وقبل معركة «فحل» قال له وجهاء الروم في مفاوضاتهم له : « اذهب إلى أصحابك ، فواللَّه إنا لنرجوا أن نفرَّكم في الجبال غدًا ، قال معاذ : أما الجبال فلا، ولكن وللَّه لتَقْتُلُنَّا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون »[1] .

للَّه در معاذ قائد الميمنة في يوم اليرموك . . . يخطب في الناس صباح المعركة ، فيقول : « يا قُرَّاء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدىٰ وأولياء الحق ، إن رحمة اللَّه ـ واللَّه ـ لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأماني ، ولا يؤتي اللَّه المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم اللَّه عز وجل ، ألم تسمعوا قول اللَّه عز وجل : ﴿ **وعد اللَّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ... ﴾ الآية ، أنتم إن شاء اللَّه ، منصورون فأطيعوا اللَّه ورسوله ، ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن اللَّه مع الصابرين ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فرارًا من عدوكم وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه، ولا متعزز بغير اللَّه »[2] .

ولما نزل الطاعون في جند الشام وهو فيه قال للصحابة : « رحمة ربكم ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، اللَّهم فآت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة » ، فماأمسىٰ حتىٰ طُعِنَ ابنه عبد الرحمن وأحب

(١) « الطريق إلىٰ دمشق » لأحمد عادل كمال (ص٣١١ ـ ٣٣٣) .
(٢) « الطريق إلىٰ دمشق » (ص٤٧٢) .

الناس إليه الذي كان يُكَنَّىٰ به ، فرجع معاذ من المسجد ، فوجده مكروبًا ، فقال : يا عبد الرحمن ، كيف أنت ؟ فاستجاب له ، فقال عبد الرحمن : يا أبة : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[1] .

فقال معاذ ـ رضي اللَّه عنه ـ : وأنا ستجدني إن شاء اللَّه من الصابرين فمات من ليلته ، ودفن من الغد »[2] .

ـ رضي اللَّه عنك ـ من مشتاق إلىٰ ربك . . . يدعو ربه « اللَّهم إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول اللَّه ﷺ ، فأعطه هو وأهل بيته ، الحظ الأوفر منه ، فأصابهم الطاعون ، فلم يبق منهم أحد ، فطُعِن في أصبعه السبابة فكان يقول : ما يسرني أن لي بها حمر النَّعَم .

ولما اشتد به نزع الموت ، نزع أشد العالم نزعه ، فكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه فقال : اخنق خنقك ، فو عزتك إنك لتعلم أني أحبك .

وفي « الزهد » لأحمد : لما حضره الموت قال : « أعوذ باللَّه من ليلة صباحها إلىٰ النار ، مرحبًا بالموت مرحبًا زائرًا مغيب ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، اللَّهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك ، اللَّهم إن كنت تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرىٰ الأنهار ، ولا لغرس الشجر ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر »[3] .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٤٧) .
(٢) « بذل المعاون في فضل الطاعون » لابن حجر العسقلاني ، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب ، ط دار العاصمة ، (ص٢٦٧) .
(٣) « الزهد » لأحمد (ص١٨٠ ـ ١٨١) .

الحِبُّ بن الحِبّ : أسامة بن زيد ـ رضي اللّه عنهما ـ :

كان ـ رضي اللّه عنه ـ على حداثة سنه ، مؤمنًا صلبًا ، ومسلمًا قويًا ، يحمل كل تبعات إيمانه ودينه ، في ولاء مكين ، وعزيمة قاهرة جعلته قريبًا من قلب رسول اللّه ﷺ وكبيرًا في عيْنيه .

وفي سن مبكرة ، لم تجاوز العشرين ، أمَّر الرسول اللّه ﷺ أسامة بن زيد على جيش ، بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر وسرت همهمة بين نفر من المسلمين تعاظمهم الأمر ، واستكثروا على الفتى الشاب إمارة جيش فيه شيوخ الأنصار وكبار المهاجرين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « **إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله ، وايم اللّه لقد كان خليقًا للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده** »[1] .

« بعث رسول اللّه ﷺ أسامة على جيش المسلمين إلى حيث قُتل أبوه والصحابة ، وأمره أن يغير على « أُبْنَى » بالسراة ناحية البلقاء ، وقيل : إلى «آبل» الزيت بنفس الجهة ، وعقد له لواء في آخر يوم من صفر سنة ١١هـ ، ولكن مرض الرسول ﷺ مرضه الذي قبضه اللّه إليه فيه ، فتأخر خروج الجيش حتى هلال ربيع الآخر سنة ١١هـ ، وسار أسامة بجيشه ثلاثة آلاف يسرع السير على طريق ذي المروة ووادي القرى ، في اتجاه « أبنى » و«آبل الزيت»، من نواحي مؤتة ، حتى إذا توَسَّط مواطن قضاعة توقف يسيرًا ، وبعث فرسانه لينهضوا الثابتين منهم على إسلامهم ، ويعينهم على من ارتَدَّ، وهرب المرتدُّون إلى مكان بعيد . . . إلى « دومة الجندل » فاجتمعوا بها حول وديعة الكلبي ، لم تكن دومة الجندل من أهداف جيش أسامة ،

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وأحمد في « فضائل الصحابة » ، وابن سعد في «الطبقات».

ولا على طريقه ، فما إنْ عادت إلى خيوله ، حتى مضى بجيشه إلى «الحمقتين» فأغار عليها ، وكان بها بنو الضُّبَيْب من جذام ، وبنو خيليل من لخم فهزم مَنْ هناك حتى « آبل » في إغارة شديدة سريعة ، وسبى وحرق بالنار منازلهم وحَرْثهم ونخلهم ، حتى صارت أعاصير من الدخان ، وأجال الخيل في نواحيهم ، وقضى يومه في تعبئة ما أصابوا من غنائم ، ثم لم يقم وإنما كرَّ راجعًا من مساء يومه ، حتى قدم وادي القرى في تسع ليال ، ثم قدم المدينة سالمًا غانمًا وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يومًا ، وقيل : غاب شهرين وأيامًا ، عاد الجيش بلا ضحايا وقال عنه المسلمون يومئذ : « ما رأينا جيشًا أسلم من جيش أسامة »[1] .

وكان هرقل بحمص حين بلغه ما صنع أسامة بعملائه العرب النازلين بأطراف إمبراطوريته ، فدعا بطارقة وقال لهم : « هذا الذي حذَّرتكم فأبيتم أن تقبلوه مني ، قد صارت العرب تأتي من مسيرة شهر فتغير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَم »[2] .

أي تجرح ، لقد حقق جيش أسامة هدفًا جليل الأثر ، وأجلى مرتدِّي قضاعة عن طريق الشام ، فرضي اللَّه عن الشاب الرباني الحب بن الحب .

مصعب بن عمير : الفاتح الأول للمدينة ، والداعية الشهيد :

الفائز بالآيات . . . المشرق بالهلات ، جبل الرحمة والبركات . . . غاسل يثرب بالقرآن . . . الوجه الفاتح للإيمان ديار الكفر . . . الماهد أرض رسول اللَّه . . . نبراس الدعاة وإمام الفاتحين الفتى المُنَعَّم الذي صاغه

---

(١) « رجال حول الرسول » لخالد محمد خالد (ص٤٤٩) .

(٢) « الطريق إلى دمشق » لأحمد عادل كمال ، دار النفائس (ص١٥٥) .

الإسلام على يديه ، تقَدَّم حين نادت المغارم ، وذهب إلى لقاء ربه قبل مجيء الغنائم ، اختاره اللَّه شهيدًا بين يديْ رسول اللَّه ﷺ بعد أن أسلم على يديه : أُسَيْد بن حُضَيْر الذي تنزَّلت الملائكة لتلاوته القرآن وسعد بن معاذ الذي اهتزَّ لموته عرش الرحمن . . . مصعب غرَّة فتيان قريش ، وأوفاهم بهاء وجمالاً وشبابًا ، ولؤلؤة أهل مكة ومجالسهم وندواتهم ، وبعد الإسلام صار أسطورة من أساطير الإيمان والفداء ، قصة حياته لبني الإنسان جميعًا .

(١) لاقى ما لاقى من أُمِّه وقد كان فتاها المُدَلَّل ، هاجر إلى الحبشة ، مصعب الذي كانت ثيابه كزهور الحديقة ، نضرة وألقًا وعطرًا ، يرتدي بعد ذلك المرقع البالي ، خرج من النعمة الوارفة إلى شظف العيش والفاقة ، وأصبح الفتى المتأنِّق المعطَّر لا يُرى إلا مرتديًا أخشن الثياب ، يأكل يومًا ويجوع يومًا ، ولكن روحه المتأنقة بسموِّ العقيدة ، والمتألقة بنور اللَّه ، جعلت منه إنسانًا يملأ العين إجلالاً والأنفس روعة .

(٢) اختاره رسول اللَّه ﷺ لأعظم مهمة في حينها ، أن يكون سفيره إلى المدينة ، يفقِّه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة ، ويفتح المدينة بالقرآن ، ويُعِدّها ليوم الهجرة العظيم ، وقد كانت هذه السفارة أخطر قضايا الساعة ، وأُلقي بين يدي مصعب بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة وحمل مصعب الشاب ـ مصعب الخير ـ الأمانة ، ونجح نجاحًا منقطع النظير ، نجاحًا هو له أهل ، وبه جدير .

قال البراء : أول من قدم علينا : مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال ـ رضي اللَّه عنهم ـ ، رواه البخاري .

في مثل هدوء البحر وقوَّته ، وتهلُّل ضوء الفجر ووداعته ، انساب نور الإيمان على يدي مصعب إلي سادات الأنصار : أسيد بن حضير ، وسعد ابن

معاذ ، وسعد بن عبادة . . . شاب يقود ويُسَيِّر جبال الإيمان ، ويكون في ميزان حسناته الأنصار من الأوس والخزرج .

ويشهد مصعب غزوة بدر لينال شرف البدرية . . . وفي يوم أُحد حامل اللواء .

قال ابن سعد : « حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أُحد فلما جال المسلمون ثبت به مصعب ، فأقبل ابن قمئه وهو فارس ، فضربه على يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه فضرب يده اليسرى فقطعها ، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنقذه واندَقَّ الرمح ، ووقع مصعب ، وسقط اللواء . . . ووقع مصعب كوكب الشهداء ، ومن كان ذكره عطر الحياة .

قال أبو وائل : عُدْنا خبَّابًا فقال : هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه اللَّه ، فوقع أجرنا على اللَّه ، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا ، منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد وترك نَمِرة ، فكنا إذا غطّينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجْلَيْه بدا رأسه ، فأمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من إذخر ، ومنا من أينعت ثمرته فهو يَهْدِبُها[1] [2] .

وعن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم ، أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي اللَّه عنه ـ : أُتي بطعام وكان صائمًا ، فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، كُفِّنَ في بردة إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه ، وإن غُطِّي رجلاه

(١) يهدبها : يجتنيها .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، وأحمد وأبو داود ، وابن سعد .

بدا رأسه ، أو قال : أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا ، ثم جعل يبكي حتىٰ ترك الطعام ، رواه البخاري .

زيد بن ثابت : جامع القرآن ـ رضي اللّه عنه ـ :

عن قتادة عن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : جمع القرآن علىٰ عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أُبَيّ ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت ، قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي[1] .

« حين تُنثر زهور التكريم علىٰ ذكرىٰ المباركين ، الذين يرجع إليهم فضل جمع القرآن وترتبه وحفظه ، فإن حظ زيد بن ثابت من تلك الزهور لحظ عظيم ، فقد ادَّخرت له المقادير شرف مهمة من أنبل المهام في تاريخ الإسلام كله ، مهمة جمع القرآن الكريم وهوشاب .

عن زيد بن ثابت ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن ، وإني أخشىٰ إن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القراء ، وإني أرىٰ أن تأمر بجمع القرآن : قلت لعمر : كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول اللَّه ﷺ ؟ قال عمر : هذا واللَّه خير ، فلم يزل عمر يُراجعني حتىٰ شرح اللَّه صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأىٰ عمر ، قال زيد: قال أبو بكر : إنك لرجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتُبُ الوحي لرسول اللَّه ﷺ فَتَتَبّع القرآن فاجمعه ، فو اللَّه لو كلفوني نقل جبل

---

(١) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد وأبو يعلي ، والطيالسي ، والنسائي في « الفضائل » .

من الجبال ، ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني ، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه من عنتم** ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر - رضي الله عنه -[1] .

ومثل ما حدث مع أبي بكر حدث مع عثمان : فعن ابن شهاب ، أن أنس بن مالك حدَّثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو

(١) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، والطيالسي .

مصحف ، أن يُحرق ، (رواه البخاري) .

قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ ، أن زيد بن ثابت من الراسخين في العلم .

الحسن والحسين سيدا أهل الجنة :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة** »(١) .

وعن ابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «**هما ريحانتاي من الدنيا** »(٢) .

وعن أبي بكرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ، ينظر إلى الناس مرَّة وإليه مرَّة ويقول : « **إنّ ابني هذا سيد، ولعل اللّه أن يُصلح به ين فتين عظيمتين من المسلمين** »(٣) .

فرضي اللَّه عمن درجا في بيت النبوة وحجر جدهما سيد البشر ﷺ . . . رضي اللَّه عن الحسن بن علي ، أشبه الناس بالنبي ﷺ ، الذي حقن اللَّه علي يديه دماء المسلمين ، وإن جماجم أهل العراق تسير بين يديه، ورضي اللَّه عن الحسين بن علي ، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر حتى القتل ، نبراسًا لأهل الحق الثابتين على مبادئهم .

* * *

(١) حسن : أخرجه أحمد ، والترمذي ، وقال : هذا حسن صحيح ، والحاكم ، وأبويعلي ، والنسائي ، في « فضائل الصحابة » ، وابن أبي شيبة في « المصنف » .

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد ، والنسائي في « الخصائص » ، والطيالسي وابن أبي شيبة .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي .

الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ـ رضي الله عنه ـ :

الصحابي الجليل . . . من السباقين إلىٰ الإسلام ، كانت داره مأوىٰ للنور والرسالة ، وقد استخفىٰ النبي ﷺ في داره، وإذا ذُكر البيت والدار الذي احتضن الدعوة بواكيرها . . . ذُكر بيت الأرقم . . . وترضىٰ الناس عن صاحبها مثال الشاب الذي يغمر النور قلبه وبيته .

جعفر الطيار أبو المساكين ... المجادل في شبابه عن هذا الدين :

يا لجلال شبابه ، ويا لنضرة إهابه ، فيه كل رائعة من روائع الحسن والفضيلة والعظمة ، أشبه الناس بالرسول ﷺ خَلْقاً وخُلُقًا . . . طائر الجنة الغرِّيد . . . عظيم من عظماء الرعيل الأول الذين أسهموا أعظم إسهام في صوغ ضمير الحياة . .

أقبل علىٰ الرسول ﷺ مؤمنًا ، آخذًا مكانه العالي بين المؤمنين المبكرين وحمل نصيبه من الأذىٰ ومن الاضطهاد . . . وفي الحبشة كان ـ رضي اللّه عنه ـ المتحدث اللبق باسم الإسلام ورسوله .

ولئن كان يوم « مؤتة » الذي استُشهد فيه« الطيَّار » أروع أيامه وأمجدها وأخلدها . . . فإن يوم « المحاورة التي أجرها أمام النجاشي بالحبشة ، لن يقلَّ روعة ، ولا بهاء ، ولا مجدًا . .. لقد كان يومًا فذًّا ومشهدًا عجبًا (١) .

وصنع جعفر لنفسه موتة من أعظم موتات البشر . . . لقي ربَّه الكبير المتعال ، مضمَّخًا بفدائيته ، مدثَّرًا ببطولته .

* * *

(١) « رجال حول الرسول » لخالد محمد خالد (ص٢٨٧) .

معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن الحارث « معاذ بن عفراء » ومعوذ بن الحارث قتلة فرعون هذه الأمة أبي جهل :

عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي اللّه عنه ـ قال : « إني لواقف يوم بدر في الصف ، فنظرت عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار ، حديثة أسنانهما ، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما ، فقال : يا عم ، أتعرف أبا جهل ؟ قلت : نعم ، وما حاجتك إليه؟ قال : أُخبرت أنه يسبُّ الرسول ﷺ ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا .

فتعجبت لذلك ، فغمزني الآخر ، فقال لي أيضًا مثلها ، فلم أنشب نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه ، فابتداره بسيفيهما ، فقال : « كلاهما قتله » .

وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء»[1] .

وعند البخاري عن عبد الرحمن بن عوف : « لإني لفي الصف الأول يوم بدر إذ التفتُّ عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنّ ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عمّ أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ، ماذا تصنع به ؟ قال : عاهدت اللّه إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله ، قال : فما سرَّني أنني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما فشدَّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، هما ابنا عفراء « أي معاذ ومعوذ » صقران نشأ في عبادة اللّه وجندلا رأس

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

الكفر وفرعون هذه الأمة .

يُسَرُّ بصنيعهما رسول اللَّه ﷺ وخرساجداً كما جاء عند البيهقي .

عبد اللَّه بن الزبير أمير المؤمنين ابن الحواري ... المقدم في العلم والجهاد والعبادة :

المُحَنَّكُ بريق النبوة . . . ومن مثله نشأ بين الزبير وأسماء والصديق وعائشة : جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع الرسول اللَّه ﷺ ، وأمره بذلك الزبير ، فتبسَّم الرسول ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ، ثم بايعه .

قال الذهبي : « عداده في صغار الصحابة ، وإن كان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة » .

قالت عنه أسماء بنت أبي بكر : إنه قوَّام الليل ، صوَّام النهار ، وكان يُسمَّى حمام المسجد .

قال عثمان بن طلحة عنه : كان ابن الزبير لا يُنازع في ثلاثة : شجاعة ، ولا عبادة ، ولا بلاغة[1] .

وكان إذا صلى فكأنه خشبة منصوبة لا تتحرك .

وعن ابن أبي مليكة قال : « كان ابن الزبير يواصل سبع أيام ، ويصبح في اليوم السابع وهو أَلْيَثَنَا »[2] .

وفي السادسة والعشرين من عمره ، يقتل ابن الزبير ملك إفريقية «جُرْجير» قال الحافظ ابن حجر : « وشهد ابن الزبير فتح (إفريقية) أيام

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣/ ٣٧٠) .
(٢) رواه الحاكم (٣/ ٥٤٩) ، أليثنا : أي كأنه ليث .

عثمان بن عفان تحت لواء عبد اللَّه بن سعد بن أبي السرح ، وكان الفتح على يديه»[١] .

قال ابن الزبير : « هجم علينا جرجير في عشرين ألف ومائة ، فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفًا »[٢] .

« سيَّر عثمان ابن الزبير في جماعة إلى إفريقية ، سنة ست وعشرين الهجرية ، ليأتيه بأخبار الفتح ، فسار مُجِدًّا حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل «جرجير» ملك إفريقية عن الخبر ، فقيل : « قد أتاهم عسكر» ففتَّ ذلك في عضده ، ورأي عبد اللَّه قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فلما أذنّ سمع منادي « جرجير » يقول : « من قتل عبد اللَّه بن سعد فله مائة ألف دينار ، وأزوِّجُه ابنتي .

فخاف عبد اللَّه على نفسه ، فحضر ابن الزبير عند عبد اللَّه بن سعد وقال له : تأمر مناديًا ينادي : من أتاني برأس « جرجير » نفَّلته مائة ألف ، وزوجته ابنته ، واستعملته على بلاده ، ففعل فصار « جرجير » يخاف أشد من عبد اللَّه بن سعد ، ثم إن عبد اللَّه بن الزبير قال لعبد اللَّه بن سعد : إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمداد متصلة ، وبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن نجد أن ينضجروا ويملُّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ،

---

(١) « الإصابة » لابن حجر (٤/ ٧١) .
(٢) « السير » (٣/ ٣٧١) .

ركب مَنْ كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال ، وهم مستريحون ، ونقصدهم على غِرَّة ، فلعل اللَّه ينصرنا عليهم ، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوا على ذلك .

وفي صباح الغد نفذ ابن سعد خطة ابن الزبير هذه ، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، وهمَّ الروم بالانصراف على العادة ، لم يتركهم ابن الزبير وألَّح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبًا . . . عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكبَّروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، ونظر عبد اللَّه فرأى « جرجير » وقد خرج من عسكره ، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله »[١] .

فقد رأى ابن الزبير « جرجير » وراء عسكره على برذون أشهب ، ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس ، وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد ، فاختار ثلاثين فارسًا من المسلمين وأخذهم معه . . . ثم حمل في الوجه الذي فيه « جرجير » وقال للفرسان الذين معه : احموا ظهري . . . فخرق الصف إلى جرجير ، وخرج صامداً له ، فعرف الشر ، فثنى برذونه موليًا ، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ، ودافَّه[٢] بالسيف ، وحزَّ رأسه ، ونصبه في رمح ، وكبَّر . . . فحمل المسلمون من الوجه الآخر ،

---

(١) « أسد الغابة » (٣/ ١٦٢) ، و« الكامل » لابن الأثير (٣/ ٣٤) .
(٢) دافَّه : أي أجهز عليه .

فانهزم العدو في كل وجهة ، ومنح اللَّه المسلمين أكتافهم »[١] .

ولقد قاتل ـ رضي اللَّه عنه ـ يوم الدار دفاعًا عن عثمان ، فجُرح بضعة عشر جرحًا غائرة ، يقول : وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خيرأعمالي .

قال الذهبي في « السير» (٣/ ٣٧٧) : « قد كان يُضرب بشجاعته المثل» .

ملكنـــا هذه الدنيـــا القرونـــا ... وأخضعهـا جـــدود خالدونـــا

وسطَّرنا صحـــائف من ضيـــاء ... فما نسي الزمـــان ولا نسينـــا

بنينا حقبـــة في الأرض مُلكـــًا ... يُدَعِّمُـــهُ شـــباب طامحونـــا

شـــباب ذلَّلُـــوا سُبُل المعـــالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينـــا

تعهـــدهم فأنبتـــهم نباتـــًا ... كريمًا طاب في الدنيا غصونـــا

إذا شهـدوا الوغى كانـوا كمـــاة ... يدكُّون المعاقل والحصونـــا

شباب لم تُحطِّمــه الليالـــي ... ولم يُسلم إلى الخصم العرينـــا

وإن جنّ المســـــاء فلا تراهـــم ... من الإشفاق إلا ساجدينـــا

كذلك أخرج الإســـلام قومـــي ... شبابا مخلصًا حـــرًا أمينـــا

* * *

(١) « تهذيب ابن عساكر » (٧/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) .

زُهْرَة بن الحَوِّية التميمي : فاتح ما بين القادسية والمدائن وقاتل الجالينوس أحد ملوك الفرس :

زهرة وما أدرك ما زهرة . . . واللَّه إن خبره أطيب من أريج الزهور . . الصحابي الجليل . . . الشاب الذي تول قيادة الجيوش في عهد عمر ، وبذل جهده في محاربة المرتدين من أهل البحرين حتى عادوا إلى الإسلام .

ويذكر التاريخ بكل الفخر لزهرة قيادته لميسرة المسلمين في معركة القادسية ، وكان لبلاء زهرة وثباته أثر كبير في انتصار المسلمين على الفرس في تلك المعركة ، لذلك كان من بين خمسة وعشرين بطلاً فضَّلهم سعد في العطاء ، لبلائهم في القادسية بلاءً مشرِّفًا .

ولما انكشف أهل الفرس أمر سعد زهرة بمطاردتهم ، فخرج على رأس المقدمة في آثارهم ، فأدرك الجالينوس يحمي انسحاب قوات فارس عند «الخرَّارة» فدهمه زهرة ومن معه ، فحمل على الجالينوس ، وهو لا يعرفه ، فطاعنه ، فاختلفا ضربتين ، ثم قتله زهرة ، وانهزم عن جالينوس أصحابه ، وأخذ زهرة سلبه ، وكان عليه ياراقان ـ أساور تلبس في العضد ـ ومُلْبان قُرْطان ، وإن حصان زهرة يومئذ ما عِنانه إلا حبل مضفور ، وما حزامه إلا شعر منسوج ، وحين عاد زهرة من المطاردة ، كان قد تدَّرع بما كان على جالينوس ، فعرفه الأسرة الذين كانوا عند سعد ، وقالوا : هذا سَلَبَ جالينوس ، فقال له سعد : هل أعانك عليه أحد ؟ قال : نعم ، قال : من؟ قال : اللَّه ، وكان زهرة يومئذ شاب له ذؤابة ، وقد سُوِّد في الجاهلية وحسن بلاؤه في الإسلام ، وغضب سعد أن تسرَّع زهرة فلبس ما كان على جالينوس ، فنزعه عنه وقال : ألا انتظرت إذني[1] .

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٥٦٧) ، (٣/ ٥٦٨) .

وكتب زهرة إلىٰ عمر في هذا الشأن ، فكتب عمر بن الخطاب إلىٰ سعد في شأن زهرة : « أنا أعلم بزهرة منك . . . تَعْمِدِ إلىٰ مثل زهرة وقد صَلِي بمثل ما صَلِي به ، وقد بقي عليك من حربك ما بقي ، تكسر قرنه وتفسد قلبه ؟! أمض له سلبه وفضِّله علىٰ أصحابه عند العطاء بخمسمائة . . . » .

وكان زهرة علىٰ مقدمة الجيش الذي فتح ما بين القادسية والمدائن ، وقد نجح زهرة في هذا نجاحًا باهرًا يدعوا إلىٰ الإعجاب الشديد ببطولته النادرة التي تجعله في مصاف أبطال الحروب في التاريخ . . . وأعانه علىٰ ذلك شبابه وحيويته وإيمانه ، فرضي اللَّه عن زهرة ، فلرب يوم من أيام المسلمين ، قد حَسُن فيه بلاؤه ، وعظم فيه غناؤه ، ولرب خيل للمشركين قد هزمها ، وسرية لهم قد أغارها وقرية من قراهم قد افتتحها .

محمد بن القاسم الثقفي : فاتح السند والهند وعمره سبعة عشر عاماً:

للَّه دره من عبقري تمسك بذروة سنام الإسلام ، أرسله الحجاج لغزو السند فأتىٰ « فنزبور » ففتحها ، ثم « أرمائيل » ففتحها ، ثم حاصر «الديبل» وبها معبد الهنادكة الأكبر « البد » وفتح المدينة عُنوة ، وهرب ملكها داهر ، وسار إلىٰ « النيرون » فصالحه أهلها ، وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها ، وصالحه أهل « سربيدس » ثم سار إلىٰ « سهبان » ففتحها ، ثم صالحه علىٰ «سدوستان» وسار إلىٰ بلاد الملك « راسل » ملك قصة من الهند ، وهناك التقىٰ مع « داهر » وقُتِل داهر ، وقتل المسلمون رجال داهر كيف شاءوا ، ولَمَّا قُتِل داهر ، غلب محمد علىٰ بلاد السند ، ففتح « رأور » عُنوة ، وسار شمالاً حتىٰ فتح « برهمنآباد » وبها المنهزمون من أصحاب داهر ، ففتحها

محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرَّبها ، ثم سار إلى « ساوندري » فصالحه أهلها ، ثم صالح أهل « بسمد » ، وسار عنها إلى « الرور » فحاصرها شهور ، ثم فتحها صلحًا ، ثم صار إلى « السكة » ففتحها ، ثم سار إلى مدينة « المُلتان » أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونها ، وبها صنم يعظمه الهنود ، وتحج إليه من أقصى بلدانها ، ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، فامتنعت عليه شهوراً ، وقاتله أهلها فانهزموا ، ولما قطع مدخل الماء الذي يشربون منه ، نزلوا على حكمه ، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية ، وسبى سدنة « البد » وهم ستة آلاف ، وكثرت الغنائم والأموال حتى قال الحجاج « شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر »(١) .

وفتح محمد « الزور » و« النعرور » و« البيلمان » و« سرشت » وفتح «الكيرج» واستعد لفتح مملكة « قنوج » أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال إلا أنه عُزِل وهو يستعد لفتح قنوج ومعه عشرة آلاف فارس .

فللَّه در الشاب الضخم ، الذي سارت بذكره الركبان ، ولم يكن له نظير في عصره . . . الشاب الذي فتح السند والهند وعمرة سبع عشرة سنة .

قال فيه حمزة الحنفي :

إن المروءة والسماحة والنـــدى لمحمد بن القاســم بن محمــدِ
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤدداً من مولــدِ

---

(١) « فتوح البلدان » للبلاذري (ص٤٢٧) ، و« الكامل » لابن الأثير (٤/ ٢٠٦) ، و« مقدمة ابن خلدون » (٣/ ٦٠ ـ ٦١) .

وقال فيه يزيد بن الأعجم :

ساس الجيوش لسبع عشـرة حجة ولِداته عن ذاك في أشغـالِ
فغدت بهم أهواؤهم وسمـت بـه هِمَمُ الملوك وسَوْرَةُ الأبطـالِ[1]

ومحمد بن المنكدر على الطريق :

قال سفيان : تعبَّد ابن المنكدر ، وهو غلام .

وعمر بن عبد العزيز اشتهر بالعلم والعقل في المدينة المنورة مع حداثة سنِّه :

جمع القرآن ـ رحمه اللَّه ـ وهو صغير ، بكى وهو غلام صغير فسألته أمه عن سر بكائه ، قال : ذكرت الموت .

وعن العتبي قال : إن أول ما استبين من عمر بن عبد العزيز ، أن أباه وَلِيَ مِصر ، وهو حديث السن يُشَكُّ في بلوغه ، فأراد إخراجه ، فقال : يا أبت ، أوَ غير ذلك ؟ لعله يكون أنفع لي ولك : تُرَحِّلُني إلى المدينة ، فأقعد إلى فقهاء أهلها ، وأتأدَّب بآدابهم ، فوجَّهه إلى المدينة ، فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سنِّه »[2] .

وجعل اللَّه لعمر وزيراً من أهله عبد الملك ابنه :

ولد سنة ٨٢ هـ ، ومات سنة ١٠١ هـ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره ، مات شابًا في زهرة شبابه ، زهرة نضرة لم تعرف آثام الحياة ، ماءً صافيًا يتدفق حكمة وزهدًا .

---

(١) انظر : كتاب « محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند » ، للواء الركن محمود شيت خطاب ، دار قتيبة .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٥/ ١١٦ـ١١٧) .

وينشأ ناشـــئ الفتيــــان منّا على ما كـــان عــوّده أبــوه

نعم الفتى المكتهل ، الذي كان قائدًا مع أبيه لأمة انحرفت عن السبيل ، كان عونًا لأبيه ، ولمّا يتجاوز السادسة عشرة ، كان ـ رحمه اللَّه ـ ابن أم ولد ، قد أُعجب به والده أيما إعجاب .

قال ابن رجب الحنبلي : لقد كان ـ رحمه اللَّه ـ مع حداثة سنه ، مجتهدًا في العبادة ، ومع قدرته على الدنيا وتمكنه منها ، راغبًا مؤثرًا للزهادة ، فعسى اللَّه أن يجعل في سماع أخباره لأحد من جنسه أسوة ، لعل أحدًا كريمًا من أبناء الدنيا تأخذه بذلك حميَّة على نفسه ونخوة ، وأيضًا ففي ذكر أمثال أخبار هذا السيد الجليل مع سنِّه ، توبيخ لمن جاوز سنَّه وهو بطَّال ، ولمن كان بعيدًا عن أسباب الدنيا وهو إليها ميَّال »[1] .

روى الحافظ أبو نعيم في « حلية الأولياء » عن بعض مشيخة أهل الشام قال : كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك .

وروى الإمام أبوعبيد القاسم بن سلام بسنده في كتاب « فضائل القرآن » عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان ـ وهو ابن أخي عمر ابن عبد العزيز ـ قال : وفدت إلى سليمـــان بن عبد الملك ، ومعنا عمر بن عبد العزيز ، فنزلت على ابنه عبد الملك ، وهو عزب ، فكنت معه في بيت ، فصلينا العشاء ، وأوى كل رجل منا إلى فراشة ، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه ، ثم قام يصلي ، حتى ذهب بي النوم ، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآيـــة : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا

---

(١) « سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز » لابن رجب الحنبلي (ص٢٨ ـ ٢٩) دار ابن حزم .

يُوعَدُونَ ﴾ [١] ، فيبكي ، ثم يرجع إليها ، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك ، حتىٰ قلت : سيقتله البكاء ، فلما رأيت ذلك قلت : لا إله إلا اللَّه والحمد للَّه ، كالمستيقظ من النوم ، لأقطع ذلك عليه ، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حسًا ، ـ رحمه اللَّه ـ .

وفي كتاب الدورقي « مناقب عمر بن عبد العزيز » : أن عمر بن عبد العزيز جمع الناس واستشارهم في رد مظالم الحَجَّاج ، فكان كلما استشار رجلاً قال له : يا أمير المؤمنين ، ذاك أمر كان في غير سلطانك ولا ولايتك ، فكان كلما قال رجل ذلك أقامه ، حتىٰ خلص بابنه عبد الملك ، فقال له ابنه عبد الملك : يا أبهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجَّاج إن لم يردَّها أن يُشركه فيها .

فقال عمر : لو لا أنك ابني لقلتُ : إنك أفقه الناس .

وفي رواية : قال عبد الملك : أرىٰ أن تردَّها ، فإن لم تفعل كنت شريكًا لمن أخذها .

وعن ميمون بن مهران قال : دخلت علىٰ عبد الملك ، فحضر طعامه ، فأتي بقَلْية مدنية وهي عظام اللحم ، ثم أتي بثريدة قد مُلئت خبزًا وشحمًا ، ثم أتي بزبد وتمر ، فقلتُ : لو كلَّمت أمير المؤمنين يخصّك منه بخاصة ، فقال : إني لأرجو أن يكون أوفىٰ حظًا عند اللَّه من ذلك ، فقلت لنفسي : أنت لأبيك ، ودخل عليه مرة أخرىٰ ، فإذا بين يديه مائدة عليها ثلاثة أرغفة وقصعة فيها خل وزيت .

***

---

(١) سورة الشعراء الآيتان (٢٠٥ ـ ٢٠٦) .

ما تُغني سعة جوفي إن لم أردّ فيه الغضب :

عن إسماعيل بن أبي الحكم قال : غضب عمر بن عبد العزيز يومًا فاشتد به غضبه ـ وكان فيه حِدَّة ـ وعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حاضر ، فلما سكن غضبه ، قال : يا أمير المؤمنين ! أنت في قدر نعمة اللَّه عليك فهو موضعك الذي وضعك اللَّه به وما ولاَّك من أمر عباده ، يبلغ بك الغضب ما أرئ ؟ قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب يا عبد الملك ؟ قال : ما تغني سعة جوفي إن لم أردَّ فيه الغضب ، حتئ لا يظهر منه شيء أكرهه ، قال : وكان له بُطَيْن ـ رحمه اللَّه تعالئ ـ .

وعن الدورقي أنه قال لأبيه : لا والذي أكرمك بما أكرمك به ، إنْ ملأني غضب قط .

والمعنئ : ما ملأني الغضب قط .

وعن أبي الدنيا : أن عمر بن عبد العزيز أمر غلامه بأمر ، فغضب عمر ، فقال له عبد الملك : يا أبتاه ! وما هذا الغضب والاختلاط ؟! فقال عمر : إنك لتتحلَّم يا عبد الملك ؟ فقال له عبد الملك : لا واللَّه ما هو التحلُّم ولكن الحِلم .

قال ابن رجب الحنبلي : ومراد عبد الملك ـ رحمه اللَّه ـ : أن الحلم عنده صفه لازمة له ، وهو مجبول عليها ، ولا يحتاج أن يتعاطاه ويتكلفه من غير أن يكون عنده حقيقة .

قال عمر بن عبد العزيز : لولا أن يكون زُيِّن لي من أمر عبد الملك ما يُزَيَّنُ في عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : جلس عمر بن عبد العزيز يومًا للناس ، فلما انتصف النهار ضجر وعلَّ وملَّ ، فقال للناس : شأنكم ، حتئ

أنصرف إليكم ، فدخل يستريح ساعة ، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه ، قالوا : دخل ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فلما دخل ، قال : يا أمير المؤمنين! ما أدخلك ؟ قال : أردت أن أستريح ساعة ، قال : أَوَ أَمِنْتَ الموت أن يأتَيك ، ورعيتك ينتظرونك وأنت محْتَجِب عنهم ؟ فقام عمر من ساعته وخرج إلى الناس .

وروى أبو بكر الآجري : أنه لما دُفن سليمان بن عبد الملك ، خطب الناس ونزل ، ثم ذهب يتبوَّأ مقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ لك أن تعيش إلى الظهر ؟! قال : أُدْن مني أي بُني ، فدنا منه والتزمه وقبَّل بين عينيه ، وقال : الحمد اللَّه الذي أخرج من صُلبي من يُعينني على ديني ، فخرج فلم يُقِل ، وأمر مناديًا أن ينادي : ألا من كان له مظلمة فليرفعها .

وعن يحيى بن إسماعيل قال : مات ابن لعمر بن عبد العزيز فجاء عمر فقعد عند رأسه وكشف الثوب عن وجهه ، فجعل ينظر إليه ويستدمع ، فجاء عبد الملك ابنه ، فقال : أشَغَلك يا أمير المؤمنين ، ما أقبل من الموت إليك ؟! بل وهو في شغل عمَّا حلَّ لديك ، فكأن قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك .

فبكى عمر ثم قال : رحمك اللَّه يا بني ، فواللَّه إنك لعظيم البركة ـ ما علمتك ـ على أبيك ، نافع الموعظة لمن وَعَظْتَ ، وايم اللَّه ، إن كان الذي رأيتَ من جزعي على أخيك ، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله ، فكان الذي رأيت .

وجمع عمر بن العزيز قُرَّاء الشام وفيهم ابن أبي زكريا الخزاعي ، فقال : إني قد جمعتكم لأمر : قد أهمَّتني هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي ، ما ترون فيها ؟ قالوا : ما نرى وزرها إلا على من غصبها قال : فقال

عبد الملك : ما أرىٰ من قَدر علىٰ أن يردَّها فلم يردَّها والذي غصبها إلا سواء ، فقال : صدقت يا بُني ، ثم قال : الحمد اللَّه الذي جعل لي وزيرًا من أهلي عبد الملك ابني .

وقال عمر بن العزيز يومًا لمولاه مزاحم : إن هؤلاء القوم - يعني بني عمه الخلفاء الذين كانوا من قبله - قد أعطونا عطايا ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك صار إليَّ ، وليس عليَّ فيما دون اللَّه محاسب .

فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين هل تدري كم عيالك ، هم كذا وكذا؟!

فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويقول : أَكِلُهُم إلىٰ اللَّه عز وجل ، ثم انطلق مزاحم من ساعته في وجهه ذلك ، حتىٰ استأذن علىٰ عبد الملك بن عمر ، فأذن له ، وقد اضطجع للقائلة .

فقال له عبد الملك : ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حَدَثَ مِنْ حَدَث ؟

قال : أشد الحدث عليك وعلىٰ بني أبيك .

قال : وما ذاك ؟ قال : دعاني أمير المؤمنين ، فذكر له ما قال عمر .

فقال عبد الملك : فما قُلْتَ له ؟

فقال : قلت : يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم عيالك ، هم كذا وكذا؟!

قال : فما قال لك ؟

قال : جعل يستدمع ويقول أَكِلُهُم للَّه عز وجل .

فقال عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يا مزاحم ، ثم وثب وانطلق عبد الملك إلىٰ باب عمر ، فاستأذن عليه ، فقال الآذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة .

فقال : استأذنِ لي لا أُمَّ لك ، قال : فسمع عمر الكلام ، فقال : ما هذا ؟
قال : عبد الملك ، قال : ائذن له .

فدخل عليه وقد اضطجع للقايلة ؟ فقال : ما حاجتك يا بُني هذه الساعة ؟

قال : حديث حدثنيه مزاحم .

قال : فأين وقع رأيك من ذلك ؟

قال : وقع رأيي على إنفاذه .

قال : فرفع عمر يديه وقال : الحمد اللّه الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ، نعم يا بني أصلي الظهر ، ثم اصعد على المنبر وأردها علانية على رءوس الناس .

فقال عبد الملك : ومَنْ لك بالظهر يا أمير المؤمنين ، ومَنْ لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر ؟

فقال عمر : قد تفرَّق الناس ورجعوا للقائلة .

فقال عبد الملك : تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس ، ففعل مثلما قال عبد الملك ، فجعل يرددها فما زال كذلك حتى نودي لصلاة الظهر .

والمراد من هذه الحكاية : أن عبد الملك حثَّه على فعل ذلك وعلى المبادرة إليه ، حين عزم عليه ، خشية أن تنفسخ عزيمته عن ذلك إن أخره إلى صلاة الظهر أو يموت قبل فعله .

وروى أبو نعيم بإسناده أن عبد الملك دخل على أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقًا لم تُحْيِه وباطلاً لم تُمِتْه؟! .

وفي رواية : ماذا أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم

تُمِتْها وسنة لم تُحْيِها ؟

هوان نفسه عليه في ذات اللّه :

قال ميمون بن مهران : قال عبد الملك بن عمر لأبيه يومًا : يا أبه ، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فواللّه ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك .

وقال الربيع بن سبْرة : قال عمر بن العزيز يومًا : واللّه لوددت لو عدلت يومًا واحدًا ، وأن اللّه توفّى نفسي .

فقال ابنه عبد الملك : وأنا واللّه لوَدِدْتُ لو عَدَلْت فُواق ناقه ، وأن اللّه توفّى نفسي .

فقال عمر : آللّه الذي لا إله إلا هو ؟ فقال عبد الملك : اللّه لا إله إلا هو ، ولو جاشت بي وبك القدور .

فقال عمر : جزاك اللّه خيراً .

قال ابن رجب : « العارفون باللّه المحبون للّه ، يرضون بما تقضيه مقاديره ، وإن كانت شاقة على النفوس مؤلمة لها ، ويتلذذون بذلك ، ولا سيما إن كان أذاهم في تنفيذ أوامر اللّه والدعاء إلى طاعة اللّه ، وكان هذا مقام عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك ـ رضي اللّه عنه ـ »[1] .

وقال عمر بن العزيز لعبد الملك : ما كنت أحبُّ أن أراه فيك إلا قد رأيته ، إلا شيئًا واحد .

قال : ما هو ؟ قال : مَوْتُك .

قال : أراكه اللّه ، فأصابه الطاعون في خلافة أبيه فمات قبل أبيه ،

---

(١) « سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز » (ص٦٤) .

ووقف عمر على قبره وقال : رحمك اللّه يا بني ، فلقد كنت برّا بأبيك ، وما زلت منذ وهبك اللّه لي مسروراً ، ولا واللّه ما كنت أشد سروراً ولا أرجى لحظّي من اللّه فيك ، منذ وضعتُك في الموضع الذي صيَّرك اللّه إليه ، فرحمك اللَّه ، وغفر ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئه ورحم كل شافع يشفع لك من شاهد وغائب ، رضينا بقضاء اللّه ، وسلّمنا لأمره ، والحمد للّه رب العالمين » .

قال سيَّار بن الحكم خادم عمر : « قال ابن لعمر بن عبد العزيز يقال له : عبد الملك - وكان يفضل على أبيه عمر - يا أبَه ، أقم الحق ولو ساعة من نهار .

وروى الدوري بإسناده له : أن عمر قال لابنه عبد الملك ذات يوم : يا عبد الملك ، إني أخبرك خبراً : لا واللّه إنْ رأيت فتىً ماشيًا قط أنسك منك نسكًا ولا أفقه فقهًا ولا أقرأ منك ، ولا أبعد من صبوة في صغير ولا كبير[1] .

فتى الفتيان وسيد العباد والرهبان ، السختياني أيوب بن كيسان :

قال عنه الحسن : أيوب سيد شباب أهل البصرة .

وقال عنه الحسن أيضًا : سيد الفتيان .

وهذا سفيان بن عيينة ، لَقِيَ ستة وثمانين من التابعين ، وكان يقول : ما رأيت مثل أيوب ، كان - رحمه اللّه - آية في شبابه ، وامتد به العمر حتى حجَّ أربعين حجة ، وكل أفعاله عجب .

---

(١) « سيرة عبد الملك بن عمر » (ص٧٦) ، و« الصبوة » : جهلة الفتوة واللهو من الغزل ومنه التصابي .

مالك بن أنس يجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة :

قال عنه الذهبي : « طلب العلم وهو حدث ، وتأهَّل للفُتيا ، وجلس للإفادة وله إحدىٰ وعشرون سنة وحدَّث عنه جماعة وهو حي شاب طريّ»[1] .

للَّه دره من إمام . . . سيط العلم بلحمه ودمه منذ صغره . . . تقول له أمه منذ الصغر : اذهب فاكتب العلم . . . اذهب إلىٰ ربيعه فتعلَّم من أدبه قبل علمه .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ حريصًا منذ صباه علىٰ استحفاظ ما يكتب ، حتىٰ أنه بعد سماع الدرس وكتابته يتبع ظلال الأشجار ، يستعيد ما تلقَّىٰ ، ولقد رأته أخته كذلك ، فذكرته لأبيها ، فقال لها : يا بُنَّية ، إنه يحفظ أحاديث رسول اللَّه ﷺ .

وجاء في المدارك : كان لي أخ في سن أبي شهاب ، فألقىٰ أبي علينا مسألة ، فأصاب أخي ، وأخطأت ، فقال لي أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت ، وانقطعت إلىٰ ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية ثماني سنين) فلم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل في كمي تمرًا ، وأناوله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ ، فقولوا : مشغول .

وكان مالك قد اتَّخذ تُبَّانا[2] محشوّا للجلوس علىٰ باب ابن هرمز ، يتقي به برد حجر هناك ، وقيل : بل من برد صخر المسجد ، وفيه

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤٩ ـ ٥٥) .

(٢) « التُّبَّان : السراويل الصغير .

كان مجلس ابن هرمز »[١] .

قال مالك : « كنت آتي نافعًا نصف النهار ، وما تظلني الشجرة من الشمس ، أتحيَّنُ خروجه . . .

وكنت آتي ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل »[٢] .

الشافعي ناصر السنة وهوشاب :

رحل يطلب العلم وهو صغير ، نشأ يتيمًا وما كان له هم إلا العلم .

قال - رحمه اللَّه - لم يكن لي مال ، فكنت أطلب الحديث في الحداثة ، فكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها » .

قال الشافعي - رحمه اللَّه - : أتيت مالك بن أنس وأنا ابن ثلاثة عشر سنة ، وكان ابن عم لي والي المدينة ، فكلم لي مالكًا ، فأتيت لأقرأ عليه ، فقال : اطلب من يقرأ لك ، فقلت أنا أقرأ . قال : فقرأت عليه ، وكان ربما قال لشيء قد مر : أعد حديث كذا ، فأعيده حفظًا ، فكأنه أعجبه ، ثم سألته عن مسألة فأجابني ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، فقال : أنت يجب أن تكون قاضيًا » .

قال الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لكتاب « الرسالة » للشافعي :

« نبغ الشافعي في الحجاز ، وكان إلى علمائه مرجع الرواية والسنة ، وكانوا أساطين العلم في فقه القرآن ، ولم يكن الكثير منهم أهل لسن وجدل ، وكادوا يعجزون عن مناظرة أهل الرأي ، فجاء هذا الشاب يناظر وينافح ، ويعرف كيف يقوم بحجته ، وكيف يُلزم أهل الرأي وجوب اتباع

---

(١) مالك لمحمد أبي زهرة (ص٢٤ - ٢٥) ، طبع دار الفكر العربي ، « المدارك » (١/ ١١٦) .
(٢) « الديباج المذهب » (١/ ٩٩) .

السنة ، وكيف يفصِّل للناس طرق فهم الكتاب ، وكيف يدلُّهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض . . . حتى سمَّاه أهل مكة « ناصر الحديث » ، وتواترت أخباره إلى علماء الإسلام في عصره ، فكانوا يفدون إلى مكة للحج يناظرونه ، ويأخذون عنه حياة شيوخه ، حتى أن أحمد بن حنبل جلس معه مرة ، فجاء أحد إخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عيينة ـ شيخ الشافعي ـ ويجلس إلى هذا الفتى .

فقال له أحمد : اسكت ، إنك إن فاتك حديث بعلوّ وجدته بنزول ، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده ، ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب اللَّه من هذا الفتى »[١] .

ولقد جلس للإفتاء وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وملأ طباق الأرض علمًا .

الثوري آتاه اللَّه الحُكم صبيًا فما ظنك بشبابه ؟! :

قال الذهبي : كان يُنَوَّه بذكر الثوري في صغره ، من أجل فرط ذكائه وحفظه ، وحَدَّث وهو شاب »[٢] .

قال ابن مهدي : رأى أبوإسحاق السبيعي سفيان الثوري مُقبلاً ، فقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[٣] [٤] .

قال يحيى بن أيوب العابد : حدثنا أبو المثنى فقال : سمعتهم بمرو

---

(١) مقدمة كتاب « الرسالة للشافعي » بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر .
(٢) « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٣٦) .
(٣) سورة مريم الآية (١٢) .
(٤) « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٣٦) .

يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري ، فخرجت أنظر إليه ، فإذا هو غلام قد بقل وجهه »[١] .

وسفيان بن عيينة شيخ علماء الحجاز :

قال الشافعي : لولا مالك وابن عيينة لضاع علم الحجاز . . .

قال ابن عيينة : أول من جالست : عبد الكريم أبو أمية ، وأنا ابن خمسة عشرة سنة .

قال : وقرأت القرآن وأنا ابن أربعة عشرة سنة .

للَّه در إمامنا ابن عيينة نشأ في طاعة اللَّه ـ كان يذهب وهو غلام معه ألواح طويلة إلىٰ عمر بن دينار ، وفي أُذنه قُرط ، أو شنف »[٢] .

إمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

عن إبراهيم بن شماس قال : كنت أعرف أحمد بن حنبل وهوغلام ، وهو يحيي الليل[٣] .

قال الإمام أحمد : « كنت ربما أردت البكور في الحديث ، فتأخذ أمي بثيابي ، وتقول : حتىٰ يؤذِّن الناس ، أو حتىٰ يصبحوا ، وكنت ربما بكَّرت إلىٰ مجلس أبي بكر بن عيَّاش وغيره »[٤] .

والزعفراني شيخ الفقهاء والمحدثين :

لما قدم الشافعي ، قرأ عليه الزعفراني الكتب كلها إلا كتابين « كتاب

---

(١) بقل وجهه ، وأبقل : خرج شعره .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤٦٢) ، والشّنف : ما يُعَلَّقُ من الحُلِي في أعلىٰ الأذن ، والقُرط ما يُعَلَّقُ في أسفلها .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٢٢٨) .

(٤) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٥٠) .

المناسك » و« كتاب الصلاة » وما كان بعد في وجه الزعفراني شعرة .

قال الزعفراني : لما قرأت «الرسالة على الشافعي » قال لي : من أي العرب أنت ؟

قلت : لست بعربيّ ، وما أنا إلا من قرية يُقال لها الزعفرانية .

قال : أنت سيد هذه القرية [١] .

وبندار محمد بن بشار :

قال بندار : كتب عني خمسة قرون ، وحدَّثت وأنا ابن ثماني عشرة سنة .

البخاري أستاذ الأستاذين ... الفذ في صباه فكيف شبابه ؟!

أُلهم البخاري حفظ الحديث وهو في الكُتَّاب ابن عشر سنين :

قال البخاري ـ رحمه اللّه ـ : « لما طعنت في ست عشرة سنة ، كنت قد حفظت كُتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء[٢] ، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة ، فلما حججت رجع أخي بها ، وتخلَّفت في طلب الحديث »[٣] .

وقال : « لما طعنت في ثماني عشرة ، جعلت أُصنِّف قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم »[٤] .

---

(١) « السير » (١٢/ ٢٦٤) .
(٢) يعني أصحاب الرأي .
(٣) « تاريخ بغداد » ، و« تهذيب الكمال » (١١٦٩) ، و« طبقات الشافعية » (٢/ ٢١٦) ، و«السير» (١٢/ ٣٩٣) .
(٤) « تاريخ بغداد » (٢/ ٧) .

وكان شيخه السُّرْماري يُجلسه وهو صغير على حجره ويقول : من أراد أن ينظر إلى فقيه بحقِّه وصدْقه فلينظر إلى محمد بن إسماعيل » .

كان ـ رحمه اللَّه ـ وهو شاب ـ فضله على العلماء كفضل الرجال على النساء .

قال حاشد : كنا يومًا عند إسحاق بن راهويه ، وعمرو بن زرارة وهو يستملي على أبي عبد اللَّه البخاري ، وأصحاب الحديث يكتبون عنه ، وإسحاق يقول : هو أبصر مني ، وكان عبد اللَّه إذ ذاك شابًا .

للَّه در البخاري الكبش النطاح أو البازل ـ الكامل ـ كما سمَّاه أبو بكر ابن أبي شيبة ـ يصنِّف « التاريخ الكبير » في « المدينة » عند قبر الرسول ﷺ ، وهو ابن ثماني عشرة سنة . . . كتاب « التاريخ الكبير » الذي قال عنه الحافظ ابن عقدة : لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث ، لما استغنى عن تاريخ محمد بن إسماعيل .

ولما قدم البصرة وهو شاب ، نُودي : يا أهل العلم لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري ، فاجتمع إليه من الغد المحدِّثون والحفاظ والفقهاء والنظارة ، حتى اجتمع قريب من كذا ألف ألف نفس ، فجلس أبو عبد اللَّه للإملاء ، فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : يا أهل البصرة ، أنا شاب وقد سألتموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها ـ يعني ليست عندكم ـ يقول في كل حديث : هذا الحديث عندكم كذا فأما من رواية فلان ـ يعني التي يسوقها ـ فليست عندكم ، فتعجَّب الناس .

* * *

الحافظ أحمد بن الفرات الرازي عُدّ من الحُفّاظ وهو شاب أمرد ، ويُذكرُ بالحفظ وله ثمان عشرة سنة :

قال عنه الذهبي في « السير » (١٢/ ٤٨١) : طلب العلم في الصغر ، وعُدَّ من الحفاظ وهو شاب أمرد » .

قال أحمد بن الفرات : كتبتُ الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : « ذُكرت بالحفظ ، وليَ ثماني عشرة سنة ، وسُمِّيت : الرُّويزي الحافظ »(١) .

قال أبو مسعود الرازي أحمد بن الفرات : « كتبت الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة وذُكرت بالحفظ ولي ثمان عشرة سنة »(٢) .

للَّه دره . . . قال عنه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : « ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول اللَّه ﷺ من أبي مسعود الرازي » .

وأبو زرعة الرازي أشهر في الدنيا من الدنيا وهو شاب :

طلب الحديث وهو حَدَث ، وارتحل في طلب الحديث من الري ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وأقام في الكوفة عشرة أشهر ، ثم رجع إلى الري ، ثم خرج في رحلته الثانية ، وغاب عن وطنه أربع عشرة سنة ، وجلس للتحديث وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة »(٣) .

* * *

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٤٨٥) ، و« الوافي بالوفيات » (٤/ ٢٩٤) .
والرُّويزي : تصغير الرازي .

(٢) « تذكرة الحفاظ » (٢/ ٥٤٤ـ٥٤٥) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٦٦ـ٧٨) .

وأبو زرعة الدمشقي شيخ الشباب :

أُعجب أبو مسهر بمجالسة أبي زرعة إياه صغيراً .

وقال عنه ريحانة الشام أحمد بن أبي الحواريّ : «هو شيخ الشباب»[١] .

الجنيد سيد الطائفة :

قال الجنيد ـ رحمه اللّه ـ : « كنت أفتي في حلقة أبي ثور الكلبي ولي عشرون سنة »[٢] .

والتستري :

« وسهل بن عبد اللّه التستري ساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين، وكانت تُلقى مشكلات المسائل على العلماء ، ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن اثنتي عشرة سنة »[٣] .

الكندي العجب العجاب :

وشيخ العربية والحنفية ، وشيخ القراءات ، تاج الدين أبو اليمن زيد ابن الحسن .

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٣٤) : « حفظ القرآن وهو صغير مّيز وقرأ بالروايات العشرة وله عشرة أعوام ، وهذا شيء ما تهيَّأ لأحد قبله .

والنوويّ وما أدراك ما النوويّ ؟! :

خير مثال لشاب أفنى شبابه في طاعة اللّه . . . نشأ منذ نشأ في طاعة

---

(١) « تذكره الحُفَّاظ » للذهبي (٢/ ٦٢٤) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٦٨) .

(٣) « أنباء نجباء الأبناء » (ص١١٩١) .

اللَّه . وقال عنه الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي : رأيت الشيخ محيي الدين - وهو ابن عشرة سنين - بنوىٰ ، والصبيان يكرهونه علىٰ اللعب معهم ، وهو يهرب منهم ، ويبكي لإكراههم ، ويقرأ القرآن في تلك الحال ، فوقع في قلبي محبته »(١) .

هذي حياته وهو غلام ، فكيف كان شبابه ؟! .

وابن تيمية نشأ حين نشأ في حجور العلماء :

أسلم علىٰ يديه يهودي وهوما بعد صبي يذهب إلىٰ الكُتَّاب كما قال الحافظ عمر البزَّار في كتابه « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية »(٢) .

قال الحافظ ابن عبد الهادي عن شيخه ابن تيمية : « سمع « مسند أحمد » مرات ، وسمع الكتب الستة والأجزاء و« معجم الطبراني الكبير » ، وعُني بالحديث ، وقرأ ونسخ ، وتعلَّم الخط ، والحساب في المكتب ، وحفظ القرآن ، وأقبل علىٰ الفقه ، وقرأ العربية علىٰ ابن عبد القوي ، ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتىٰ فهم النحو ، وأقبل علىٰ التفسير إقبالاً كليًا حاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك .

هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه »(٣) .

---

(١) « تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين » لعلاء الدين بن العطَّار ، حققه مشهور حسن سليمان ، (ص٤٣ ـ ٤٤) ، نشر دار الصميعي .

(٢) انظر : « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » للحافظ عمر البزَّار ، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي (ص١٦ ـ ١٧) .

(٣) « العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام بن تيمية » ، للحافظ ابن عبد الهادي ، دار الكتب العلمية (ص٣) .

السلطان محمد الفاتح الأنموذج لشباب هذه الأمة :

حين تخطَّى العاشرة من عمره عيَّنه والده واليًا على مقاطعة أماسيا ، ثم قائدًا عامًا لمنطقة مانيسيا ، وفي سنة (٨٤٨هـ) استدعى السلطان مراد ابنه الأمير محمدًا لتسليمه مقاليد السلطنة في « أدرنة » عاصمة الدولة العثمانية آنذاك ، ولم يكن الأمير محمد في ذلك قد أكمل الرابعة عشرة من عمره .

واستمر الأمير محمد في إدارة شئون السلطنة عامًا كاملاً ثم أرسل إلى والده السلطان مراد ليتولى من جديد مقاليد السلطنة ، ولكن السلطان مراد اعتذر بحاجته الماسة إلى الراحة .

فما كان من الأمير إلا أن أرسل رسالة إلى والده يقول فيها : « إن كنت تصرُّ على أن أبقى على رأس الدولة فإني أذكِّرك يا والدي بما أوجبه اللَّه على المسلمين من حق الطاعة لوليّ أمرهم ، ولهذا فإني آمرك أن تسرع بالقدوم إلى أدرنة ، لقيادة جيوش المسلمين » ، وذرفت عينا السلطان مراد فرحًا بابنه ، وتنحى له الأمير محمد عن مقاليد السلطنة حتى وفاته سنة (٨٥٥هـ)، وتولى السلطان محمد الفاتح أمور السلطنة سنة (٨٥٥ هـ) ، أي وسنُّه عشرون سنة .

ويحقق اللَّه على يديه وهو ابن الثانية والعشرين أملاً طالما راود قلوب المسلمين وهو فتح القسطنطينية ، يومها قال : « يا أبنائي ، هاأنا ذا مستعد للموت في سبيل اللَّه ، فمن رغب في الشهادة فليلحق بي » .

محمد فاتح الدنيا وما طمعت ... نفس له برخيص الفتح والسَّلَبِ
كأن وثبته للّه دفق هُدى ... يفجِّر النور في وادٍ وفي هضَبِ
كأنما أنبتت أسيافه ورَوَتْ ... وردًا وعضَّتْ على الأشواك والغَرَبِ
وصارت الأرض روضًا من أزاهره ... طلائع الحق من صيد ومن نُجُبِ

وفي سن الرابعة والعشرين يهزم جيوش الحلف الصليبي المكونة من ملك المجر وملك الصرب .

ويحاصر بلغراد ويدخلها وهو في سن الخامسة والعشرين ، ويفتح أثينا وبلاد اليونان وهو في السابعة والعشرين من عمره ، ويُكمل السيطرة على جنوب شبه جزيرة المورة وهو في الثامنة والعشرين من عمره .

ويؤدِّب فرسان القديس يوحنا ، وجيوش ألبانيا ، وقوات نابولي ، ولَمَّا يُكمل الثلاثين من عمره .

وفي الثلاثين من عمره يُنهي آخر معقل صليبي في بلاد الأناضول وهو مملكة « طرابوزون » وكان سقوطها كوقع الصاعقة على نصارى أوربا .

وفي سن الحادية والثلاثين من عمره يضم رومانيا إلى الدولة العثمانية .

وفي سن الثانية والثلاثين يضم البوسنة إلى ملك الخلافة العثمانية .

وفي السادسة والثلاثين من عمره يضم قونية عاصمة سلطنة « قرمان » السلجوقية .

أيها الفاتح . . . سلام اللَّه عليك . . . قدر ما حفظت مفاتيح المدائن وضيَّعناها نحن ، في ظلِّك ظَلّ السيف مصباحًا مضيئًا . . . والآن يصدأ السيف في جرابه بعد أن شُلَّت الأيدي المخنَّثة .

رحم اللَّه شبابًا صدق فيهم قول الشاعر :

وقفوا على هام الزمان رجالاً ... يتوثَّبون تطلُّعًا ونضالاً

وحي السماء يجيش في أعماقهم ... ونداؤه من فوقه يتعالى

باعوا النفوس لربهم واستمسكوا ... بكتابه ... واستقبلوا الأهوالا

فامتد في شرق البلاد وغربها ... نور تتيه به الحياة جمالاً

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم ... أُسدٌ تُخَلِّفُ بعدها أشبالاً

رجـــل قلبه معلـــق

فـــي

المســـاجـد

« إذا سمعتم حيّ على الصلاة ولم تروني
في الصف ، فاطلبوني في المقبرة »

« الشيرازي »

رجل قلبه معلق فى المساجد

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(١)] .

« النور الطليق ، الشائع في السموات والأرض ، الفائض في السموات والأرض ، يتجلىٰ ويتبلور في بيوت اللَّه التي تتصل فيها القلوب باللَّه ، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه ، وتتجرد له وتؤثره علىٰ كل مغريات الحياة .

تلك البيوت أذن اللَّه أن تُرفع ـ وإذن اللَّه هو أمر للنفاذ ـ فهي مرفوعة قائمة ، وهي مطهرة رفيعة ، يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السموات والأرض .

وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السنيّ الوضيء ، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم اللَّه ، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهبة »[(٢)] .

● **المسجد :**

نرشف من حسنه فيض الهدىٰ المترقرق المنساب ، هنا الألق السني ، هنا النور الخلاّب ، الطهر في لألائها ، والنور في أنحائها ، هنا تسجد الأرواح ، هنا عطر الأرواح ينشق لا الزهر ، هنا الطهر يفوح عبيره

---

(١) سورة النور الآيات (٣٦ـ٣٨) .

(٢) « الظلال » (٤/ ٢٥٢٠)

الوثاب . . . المسجد . . . المكان المجنحّ بالطهر حتى غداً أزكى من الزهر غذّته النطف ، هنا يفيض الإيمان وطهره حتى يترع منه كل الوجود . . . منبع الرحمة . . . يشتاق المصلين لبابه . . . يشتاق الراكعون لرحابه . . . يشتاق المتضرعون لقبابه .

• **المساجد :**

هذه البقاع الأرضية التي تنضّرها السماء وترف عليها الملائكة على تعاقب الجديدين واختلاف الملوَيْن[١] بأجنحة من نور . . . هذه الأماكن المقدسة التي تشهد تربتها كل يوم خمس مرات هذه الجباه الساجدة الضارعة لبارئها ، وهذه الأصلاب الراكعة المنحنية على التسبيح لخالقها عز وجل ، وهذه المساجد بمآذنها السامقة رمزاً لعلو هامة المسلم وشموخه على الزمان والمكان . . . هذه المهابط لرحمة اللَّه ورضوانه على ظهر هذا الكوكب الذي تئنت أجواؤه بخطايا البشرية ، هذه المساجد التي يُهرع إليها من مادية الزمان والمكان فيخلع الإنسان أرسانه على أبوابها ، ويجد السكينة والطمأنينة بين رحابها .

يقول الرافعي - رحمه اللَّه - :

« عرفت واللَّه من معنى المسجد ما لم أعرف ، حتى كأني لم أدخله من قبل ، انكشف لي المسجد في نوره الروحي عن معان أدخلتني من الدنيا في دنيا على حدة ، فما المسجد بناء ولا مكان كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب فإن في الحياة أسباب الزيغ

---

(١) الملوين : الليل والنهار .

والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد ، إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر وبراءة القلب وروحانية النفس ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة . مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعارالطهر الذي يسمى الوضوء كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد ، ثم يستوي الجميع في هذا المسجد استواءً واحدًا ، ويقفون موقفًا واحدًا ، ويخشعون خشوعًا واحدًا ، ويكونون جميعًا في نفسية واحدة ، بل يخرون إلى الأرض جميعًا ساجدين للَّه ، فليس لرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ، ومن ثمّ فليس لذات على ذات سلطان ، وهل تحقق الإنسانية وحدتها في الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمري أين يجد العالم صوابه إلا ههنا ؟ فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع ، هو فكر واحد لكل الرءوس ، ومن ثمّ فهو حل واحد لكل المشاكل ، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدارنه لا تدخله »[1] .

● من هذه المساجد ينطلق نشيد السماء العلوي المقدس « اللَّه أكبر » هذا الدعاء الذي تتجاوب أصداؤه بين الجوارح المؤمنة فتهتز له حبات القلوب الخاشعة مع كل صلاة ، بل مع كل خفقة من خفقات الأفئدة .

« اللَّه أكبر » نداء المساجد من فوق هامات المآذن حين تصبح وحين تظهر وحين تمسي .

---

(١) « وحي القلم » للرافعي (١/ ٣٤٨) .

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوّي كلمة الروح « اللّه أكبر » ويشعر المسلم في أجواء المسجد شعورًا نديًا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقه تسح بها على قلبه لينضر من يُبس ، ويرقّ من غلظة ، والجالس في المسجد يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويحس في المكان بقايا أحلام ، تنكشف له أعماقه منسكبًا فيها روح المسجد ، فتعتريه حالة روحانية تستكين فيها هادئة وادعة .

• يحس الإنسان وكأن سرج المسجد وقناديله ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه ، وقد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه، ومعناه الذي ليس منه ، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق المتخيل ، هنا في المسجد تلمس الروح معاني كلام اللّه ، يفيض عليها بمثل الندى ، فإذا هي ترف رفيفًا ، وإذا هي كالزهرة التي مسّها الطل .

هنا في المسجد يتلقى القلب الآيات والعظات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه ، هنا يهتز المكان والزمان ، كأنما مُحيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعًا على طبيعتة الأرضية .

هذا هو المسجد في خاطري وشعوري .

هنا السموات تبدو قرب طالبها   هنا الرحاب فضـــاء حين يلتمس

هنا الطهارة تحيــا في أماكنها   لا الطيب يبلى ولا الأصداء تندرس

قال رسـول اللّه ﷺ : « **أحـب البـــلاد إلى اللّـــه مســـاجدها** ،

وأبغض البلاد إلى الله أسواقها »[١] .

• وقال رسول الله ﷺ : « **خير البقاع المساجد ، وشر البقاع الأسواق** »[٢] .

• وقال رسول الله ﷺ : « **المسجد بيت كل مؤمن** »[٣] .

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٧٠) : « قوله (معلق في المساجد) هكذا في « الصحيحين » ، وظاهره أنه من التعليق كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد كالقنديل مثلاً إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإنْ كان جسده خارجًا عنه ، ويدل عليه رواية الجوزقي (كأنما قلبه معلق في المسجد) ويحتمل أن يكون من العلاقة وهي شدة الحب ، ويدل عليه رواية أحمد «معلق بالمساجد» وكذا رواية سلمان « من حبها » . . . . ومناسبتها للركن الثاني من الترجمة وهو فضل المساجد ظاهرة ، وللأول[٤] من جهة ما دلّ عليه من الملازمة للمسجد واستمرار الكون فيه بالقلب وإنْ عرض للجسد عارض .

• وقال رسول الله ﷺ : « **من بني لله مسجدًا ، بني الله له بيتًا في الجنة** »[٥] .

• وقال رسول الله ﷺ : « **سبع يجري للعبد أجرهن ، وهو في قبره بعد موته : من علّم علمًا ، أو أجرى نهارًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلاً ، أو بنى**

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ، وأحمد والحاكم في «المستدرك» عن جبير بن مطعم .

(٢) حسن : رواه الطبراني في « الكبير» ، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٢٦٦) .

(٣) حسن : رواه أبو نعيم في « الحلية » والقضاعي عن سلمان ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٧٨) .

(٤) باب : من جلس في المسجد ينتظر الصلاة .

(٥) صحيح : رواه ابن ماجه عن علي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦١٢٧) .

مسجداً ، أو ورّث مصحفاً ، أوْ ترك ولداً يستغفر له بعد موته »[١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد ، لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرف** »[٢] .

• وعن ابن مسعود مرفوعًا : « **سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون في المساجد حلقاً حلقاً ، إمامهم الدنيا فلا تجالسوهم ، فإنه ليس للَّه فيهم حاجة** »[٣] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : «**من غدا إلى المسجد وراح ، أعدّ اللَّه له نزلاً من الجنة كلما غدا وراح** »[٤] .

وانظر إلىٰ سيد البشر وتعلقه بالمسجد قال عنه جابر بن سمرة ـ رضي اللَّه عنه ـ : « **كان ﷺ إذا صلىّ الغـــداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشـــمس**»[٥] .

وانظر إلىٰ حرصه الشديد ﷺ علىٰ حضور صلاة الجماعة في المسجد وهو في مرض الموت : روىٰ البخاري ، عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة، قال : دخلت علىٰ عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ فقلت : ألا تحدثيني عن مرض رسول اللَّه ﷺ ؟ قالت : بلىٰ ، ثقل النبي ﷺ فقال : « **أصلى الناس ؟** » قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، قال : « **ضعوا لي ماء في المِخْضب** »[٦] قالت : ففعلنا ، فاغتسل فذهب لينوء[٧] فأغمي عليه ، ثم أفاق ﷺ فقال : « **أصلى الناس ؟** »،

---

(١) حسن : رواه البزار ، وسمويه عن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٦٠٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٩٦) .

(٣) صحيح : رواه الطبراني وأبوإسحاق المزكي في « الفوائد المنتخبة » وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» (٣/ ١٥١) حديث رقم (١١٦٣) .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٥) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي والنسائي .

(٦) المخضب : الإجانة .

(٧) أي ليقوم ، لفظًا ومعنىً .

قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه ، قال : « **ضعوا لي ماء في المخضب** » قال : فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « **أصلى الناس ؟** » قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه ، فقال ﷺ : فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « **أصلى الناس ؟** » فقلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه ، والناس عكوف في المسجد ، ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ بأن يصلي بالناس ، فأتاه الرسول فقال : إن رسول اللَّه ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس ، فقال أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ وكان رجلاً رقيقًا ـ يا عمر ، صل بالناس ، فقال له عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : أنت أحق بذلك . فصلى أبو بكر تلك الأيام . . . » الحديث .

فانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى أي مدى كان رسول اللَّه ﷺ حريصًا على حضور الجماعة في المسجد ، وكيف أنه يغشى عليه ثلاث مرات فإذا أفاق اغتسل ليتمكن من الذهاب إلى المسجد ، فيجد نفسه غير قادر على الذهاب إلى المسجد فيرسل إلى الصديق كي يصلي بالناس . . .

ولما وجد في نفسه خفة يخرج إلى المسجد . . . فكيف كانت الخفّة .

قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ . . . « . . . فوجد النبي ﷺ من نفسه خفّة ، فخرج يُهادى بين رجُلَيْن ، كأني أنظر رجليْه تخطان[1] من الوجع » .

لم يكن ﷺ يتمكن من المشي إلاّ اعتمادًا على رجُلَيْن ، وحتى بعد ذلك ، لم يكن يقدر على تمكين رجليه على الأرض ؛ نظرًا لشدة ضعفه ، لكنه مع هذا كله خرج إلى صلاة الجماعة في المسجد .

---

(١) أي لم يكن يقدر على رفعهما من الأرض .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « ثلاثة في ضمان اللّه عز وجل : رجل خرج إلى مسجد من مساجد اللّه عز وجل ، ورجل خرج غازيًا في سبيل اللّه تعالى ، ورجل خرج حاجًا »(١) .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « ثلاثة كلهم ضامن على اللّه : رجل خرج غازيًا في سبيل اللّه فهو ضامن على اللّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة ، أوْ يردّه بما نال من أجر أو غنيمة ، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على اللّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر ، ورجل دخل بيته بسلام ، فهو ضامن على اللّه »(٢) .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمسًا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة ؛ لم يخط خطوة إلا رفعه اللّه بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، وتُصلي الملائكة عليه ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه ، يقولون : اللّهم اغفر له ، اللّهم ارحمه ، اللّهم تب عليه ، ما لم يُوذ فيه أو يُحدث فيه »(٣) .

• قال رسول اللَّه ﷺ : «من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة ، فأجره كأجر الحاج المْحِرم ، ومن خرج إلى تسبيح الضحى ، لا ينْصبُه إلا إياه ، فأجره كأجر المعتمِر ، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين »(٤) .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في « الحلية » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٦٠٠) وفي « صحيح الجامع » رقم (٣٠٤٦) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود ، وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم في « المستدرك » عن أبي أمامة ، وصححه الحاكم والألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠٤٨) .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٤) حسن : رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٢٨) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من سمع النداء فلم يأته ، فلا صلاة له إلا من عُذر** »[١] .

مَنْ قلبه معلق بالمساجد :

أحرص الناس على الصلاة جماعة في المساجد ، ونشيده وبساتين قلبه هذه الأحاديث النبوية التي يحرص على معانيها أشد من حرصه على حياته :

• « **من صلى العشاء في جماعة ، فكأنما قام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح في جماعة ، فكأنما صلى الليل كله** »[٢] .

• « **من صلى الفجر في جماعة ، ثم قعد يذكر اللَّه حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين ، كانت له كأجر حجة ، وعمرة تامة ، تامة ، تامة** »[٣] .

• « **من صلى للَّه أربعين يوماً في جماعة ، يدرك التكبيرة الأولى ، كُتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق** »[٤] .

ولكم ضرب علماء السلف وعبّاده أروع وأنصع الأمثلة لحرصهم على صلاة الجماعة في المسجد .

• فهذا سيد التابعين سعيد بن المسيب ـ رحمه اللَّه ـ يقول : ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة » .

وقال : ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين ، وما نظرت في قفا رجل

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه وابن حبان ، الحاكم عن أنس ، وصححه الحاكم والألباني .
(٢) رواه أحمد ، ومسلم عن عثمان .
(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٤٦) .
(٤) حسن : رواه الترمذي عن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٦٥) .

في الصلاة منذ خمسين سنة[١] .

وعن عثمان بن حكيم : سمعت سعيد بن المسيب يقول : ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلاّ وأنا في المسجد[٢] ، قال الذهبي : إسناده ثابت .

وعن ابن شهاب : قلت لسعيد بن المسيب : لو تبديت ، وذكرت له البادية وعيشها والغنم ، فقال : فكيف بشهود العتمة[٣] .

وعن بشر بن عاصم قال : قلت لسعيد بن المسيب : يا عم ، ألا تخرج فتأكل اليوم مع قومك ؟ قال : معاذ اللَّه يا ابن أخي ، أدع خمسًا وعشرين صلاة خمس صلوات ؟!

● وعن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب أنه اشتكى عينه ، فقالوا : لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة ، لوجدت لذلك خفّة ، قال : فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح[٤] .

وعن برد مولى ابن المسيب قال : ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد .

● وقال الأوزاعي : كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها كانت لأحد من التابعين ، لم تفته الصلاة في جماعة أربعين سنة ، عشرين منها لم ينظر في أقفية الناس .

قال سعيد : ما نظرت في أقفاء قوم سبقوني بالصلاة منذ عشرين سنة .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة .

---

(١) « الحلية » (٢/ ١٦٢) .
(٢) « الحلية » (٢/ ١٦٣) .
(٣) « الطبقات الكبرى » لابن سعد (٥/ ١٣١) .
(٤) « الطبقات » لابن سعد (٥/ ١٣٢) ، و« الحلية » (٢/ ١٧٣) .
العقيق : موضع ناحية المدينة فيه عيون ونخل .

ولله در سيد التابعين ابن المسيب القائل :

« ما دخل عليّ وقت صلاة إلاّ وقد أخذت أهُبتها ، ولا دخل عليّ قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق »[١] .

وإمامه وقدوته في ذلك رسول اللَّه ﷺ الذي كانت قرة عينه في الصلاة وسلفه الصالح في ذلك الأمير الشريف عدي بن حاتم الطائي الصحابي الجليل .

قال عدي ـ رضي اللَّه عنه ـ : ما دخل وقت صلاة حتىٰ أشتاق إليها .

وعنه : ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت ، إلا وأنا علىٰ وضوء[٢] .

• ورویٰ ابن سعد في « الطبقات » ، عن سليمان بن موسىٰ قال : «رأيت مؤذن عمر بن العزيز وهو خليفة بُخناصرة[٣] يسلم علىٰ بابه : السلام عليك أمير المؤمنين ، ورحمة اللَّه ، فما يقضي حتىٰ يخرج إلىٰ الصلاة »[٤] .

• حضور صلاة الفجر ليلة الزواج :

انظر إلىٰ الصحابي الجليل الحارث بن حسّان ، تزوَّج في ليلة من الليالي ، فحضر صلاة الفجر مع الجماعة روىٰ الإمام الطبراني عن عنبسة ابن الأزهر قال: « تزوج الحارث بن حسان ـ وكان له صحبة ـ ، فقيل له : أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة ؟ فقال : واللَّه إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمع لامرأة سوء »[٥] .

---

(١) « الحلية » (٢/ ٩٥ـ٩٦) .

(٢) « السير » (٣/ ١٦٤) .

(٣) خُناصرة : بليدة من أعمال حلب نحو البادية .

(٤) « الطبقات الكبرىٰ » (٥/ ٣٥٩) .

(٥) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢/ ٤١) : رواه الطبراني في « الكبير » بإسناد حسن .

• ويحرصون على صلاة الجماعة في المسجد وهم مرضى :

للَّه درهم من مرضى . . . لا ، بل واللَّه نحن المرضى . . . مرضى القلوب .

روى مسلم عن عبد اللَّه بن مسعود : « ولقد رأيتنا وما يتخلفّ عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يُؤتى به يتهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف » .

• عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، أنه كان يُحمل وهو مريض إلى المسجد »[١] .

للَّه درك من إمام علم ، وليس هذا فحسب ، بل كان يأمر بحمله في اليوم المطير إلى المسجد ، حيث كانت تجتمع له رخصتان للتخلف عن المسجد ، وهما : المطر والمرض .

فعن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، أنه كان يأمرهم أن يحملوه في الطين والمطر إلى المسجد وهو مريض[٢] .

• ومعلق القلب في المساجد يحرص على الذهاب إليها في أصعب الظروف :

قيل لسعيد بن المسيب : إن طارقًا يريد قتلك ؛ فتغيّبْ ، فقال : أبحيث لا يقدر اللَّه عليّ ؟ فيقل له : اجلس في بيتك ، فقال : أسمع : حيّ على الفلاح ، ولا أجيب ؟![٣] .

---

(١) « المصنف » لابن أبي شيبة (١/ ٣٥٠) .
(٢) « الزهد » لابن المبارك (ص١٤١) ، و« الطبقات الكبرى » لابن سعد (٦/ ١٧٢) .
(٣) « تفسير القرطبي » (١٨/ ٢٥١) .

• الحرص على الموت في حالة انتظار الجماعة :

انظر - رحمك اللَّه - إلىٰ حرص أبي عبد الرحمن السلمي ، أن يأتيه الموت وهو فىٰ انتظار الصلاة في المسجد ، ولذا رفض الانتقال من المسجد إلىٰ فراشه لّما حضرته المنيّة .

عن عطاء بن السائب قال : دخلنا علىٰ أبي عبد الرحمن السلمي وهو يُقضىٰ - أي ينزع - في المسجد ، فقلنا له : لو تحولت إلىٰ الفراش فإنه أوثر ، قال : حدثني فلان أن النبي ﷺ قال : « **لا يزال أحدكم في صلاة ما دام في مصلاه ينتظر الصلاة** »[1] .

وفي رواية ابن سعد : « **والملائكة تقول : اللّهم اغفر له ، اللّهم ارحمه** » .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : « فأريد أن أموت وأنا في مسجدي »[2] .

• من قلبه معلق في المساجد يحرص على الصلاة في أول وقتها في المسجد :

لحديث رسول اللَّه ﷺ : « **أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها** »[3] .

وقول رسول اللَّه ﷺ : « **أحب الأعمال إلى اللّه الصلاة لوقتها ، ثم برّ الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل اللّه** »[4] .

وقول رسول اللَّه ﷺ : « **أفضل العمل الصلاة لوقتها ، والجهاد في سبيل اللّه** »[5] .

---

(١) « الزهد » لابن المبارك (١٤١ - ١٤٢) .

(٢) « الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٦/ ١٧٤ - ١٧٥) .

(٣) حسن : رواه أحمد في « مسنده » ، وأبو داود ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (١/ ١١١) .

(٤) رواه أحمد ، والبخاري ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي عن ابن مسعود .

(٥) صحيح : رواه البيهقي في « الشعب » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٤٨٩) ، و« صحيح الجامع » رقم (١١٣٤) .

وقول رسول اللَّه ﷺ : « **إذا سمعت النداء فأجب داعي اللَّه** »[١] .

ويحرص على التكبيرة الأولى :

لحرصهم على حديث رسول اللَّه ﷺ : « **مَن صلى للَّه أربعين يومًا في جماعة ، يدرك التكبيرة الأولى ، كُتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق**» .

قال الشيخ محمد إسماعيل المقدم ـ حفظه اللَّه ـ : « وقد لوحظ تأثير عجيب ، وبركة عظيمة في دين الذين راموا تطبيق هذا الحديث ، وكان سببًا في تغيير مجرى حياة كثير من الشباب طبّقوه ، إلى الاستقامة على ما يرضي اللَّه عز وجل »[٢] .

وقد « كان السلف إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام عزّوا أنفسهم ثلاثة أيام ، وإذا فاتتهم الجماعة عزوا أنفسهم سبعة أيام »[٣] .

قال القاري معلقًا : « وكأنهم ما فاتتهم الجمعة ، وإلا عزوا أنفسهم سبعين يومًا » .

• وكان منهم من يبكي عندما تفوته تكبيرة الإحرام مع الجماعة ، ومنهم الذي يمرض إذا فاتته الصلاة مع الجماعة ، ومنهم القائل ـ وقد قارب التسعين ـ : « لم أصل الفريضة منفردًا إلا مرتين ، وكأني لم أصلهما » .

قال وكيع بن الجراح عن الإمام العظيم سليمان بن مهران (الأعمش) : كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن كعب بن عجرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » .

(٢) « الصلاة لماذا » لشيخنا محمد إسماعيل المقدم (١٩٤) ـ دار العقيدة .

(٣) « تحفة الأحوذي » (٢/ ٤٥) .

ولِلَّه در إبراهيم التيمي حيث يقول : « إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولىٰ ، فاغسل يدك منه »[١] .

ولِلَّه در القائل : نعم من يسمع داعي الفلاح ولا يجيب !!!

لا يُصنَع الأبطال إلا في مساجدنا الفساحْ
في روضة القرآن في ظل الأحاديث الصحاحْ
شعب بغير عقيدة ورق يذريه الرياح
من خان « حي على الصلاة » يخون « حيّ على الكفاح »

يا ابن آدم إذا هانت عليك صلاتك فأي شيء يعزّ عليك من دينك ؟!

مَن قلبه معلق في المساجد أول من يغدو إليها :

عن ميثم ـ رضي اللَّه عنه ـ رجل من أصحاب النبي ﷺ ـ قال : بلغني «أن المَلَك يغدو برايته مع أوّل من يغدو إلىٰ المسجد ، فلا يزال بها معه ، حتىٰ يرجع فيدخل بها منزله ، وأن الشيطان يغدو برايته إلىٰ السوق مع أول من يغدو ، فلا يزال معه حتىٰ يرجع فيدخلها منزله »[٢] .

كيف لا يحرص علىٰ هذا العز والسؤدد . . . أن يرافقه ملك برايته ، وله مع هذا فضل آخر .

فعن أبي أمامة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من توضأ ثم أتى المسجد ، فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم جلس حتى يصلي الفجر ، كُتبت**

(١) «الحلية » (٤/ ٢١٥) .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي عاصم ، وأبو نعيم ، والمنذري في « الترغيب والترهيب » ، وقال ابن حجر : وهذا موقوف « صحيح السند » « الإصابة في تمييز الصحابة » (٦/ ١٤٨) ، وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣) ، وله حكم الرفع .

صلاته يومئذ في صلاة الأبرار ، وكُتب في وفد الرحمن »[١] .

• وهو أشد الناس حرصًا على التبكير لصلاة الجمعة .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من غسّل يوم الجمعة واغتسل ، ثم بكّر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ، وأنصت ولم يلغ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد ، عمل سنة ؛ أجر صيامها وقيامها** » .

وقال ﷺ : « **احضروا الجمعة وادنوا من الإمام ، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتي يؤخر في الجنة وإنْ دخلها** »[٢] .

ويحرص على أن يكون أول من تكتبه الملائكة يوم الجمعة :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة ، فيكتبون الأول والثاني والثالث ، حتى إذا خرج الإمام رفعت الصحف** »[٣] .

• من قلبه معلق في المساجد في ذمة اللَّه ، وهو من أهل الجنة ، وله من الأجر خير من الدنيا وما فيها :

وقال ﷺ : « **بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة** »[٤] .

وقال ﷺ : « **من صلى الصبح في جماعة ، فهو في ذمة اللَّه ، فمن أخفر ذمة اللَّه ، كبّه اللَّه في النار لوجهه** »[٥] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان والحاكم عن أوس بن أوس ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في « سننه » ، والحاكم عن سمرة ، وصححه الألباني .

(٣) حسن : رواه أحمد عن أبي أمامة ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٩٨٣) .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، والترمذي عن بريدة ، وابن ماجه والحاكم عن أنس وعن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٨٢٣) .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من صلىّ البَرْدَيْن دخل الجنة** »[1] أي : صلاة العصر والصبح .

وقاله ﷺ : « **ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها** »[2] .

• مَنْ قلبه معلق في المساجد ليس له هم إلا انتظار الصلاة في المساجد :

يعلم أن الكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، يعلم قول اللَّه لنبيه ﷺ : « **من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه** » .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلكم على ما يكفر اللَّه به من الخطايا ، ويزيد في الحسنات ؟ إسباغ الوضوء على المكروهات ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة** »[3] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلكم على ما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط** »[4] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة**»[5] .

وقال سيد ولد آدم ﷺ : « **القاعد على الصلاة كالقانت ، ويُكتب من المُصلين ، من حين يخرج من بيته حتى يرجع إلى بيته** »[6] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي موسى .

(٢) صحيح : رواه الترمذي والنسائي عن عائشة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٥١١) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦١٧) .

(٤) رواه أحمد ومالك ومسلم ، والترمذي ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح : رواه النسائي عن أنس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٣١٣) .

(٦) صحيح : رواه ابن حبان في « صحيحه » عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٤٣٧) .

● وقال ﷺ : « **من صلى وجلس ينتظر الصلاة ، لم يزل في صلاة حتى تأتيه الصلاة التي يلاقيها** »(١)

● وقال ﷺ : «**من كان في المسجد ينتظر الصلاة ، فهو في الصلاة ما لم يحدث** »(٢) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المرء في صلاة ما انتظرها** »(٣) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه؛ لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة** » . رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

● وقال ﷺ : « **لا يزال العبد في الصلاة ما دام في المسجد ينتظر الصلاة ما لم يُحدث** »(٤) .

وأي خير وشرف أغلى من أن تصلي الملائكة على مَنْ قلبه معلق في المساجد :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ، ما لم يُحدث أو يقم : اللَّه اغفر له ، اللَّهم ارحمه** »(٥) .

من قلبه معلق بالمساجد يحرص على الصف الأول وميامن الصفوف:

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا (٦) عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه،**

(١) صحيح : رواه النسائي عن عبد اللَّه بن سلام ، وأبي هريرة ، وصححه الألباني .
(٢) صحيح : رواه أحمد ، والنسائي ، وابن حبان عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني .
(٣) صحيح : رواه عبد بن حميد عن جابر ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٨٨) .
(٤) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي هريرة .
(٥) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني .
(٦) أي يقترعوا .

ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبْواً »[١] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **إن اللّه وملائكته يصلون على الصف الأول** »[٢] وفي رواية : الصفوف الأولى .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **لو تعلمون ما في الصف الأول : ما كانت إلا قرعة** »[٣] .

• ويحرص على الذكر بعد الصلاة :

قال رسول اللّه ﷺ : « **من سبّح للّه في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد اللّه ثلاثاً وثلاثين ، وكبرّ اللّه ثلاثاً وثلاثين ، فتلك تسع وتسعون ، وقال تمام المائة : لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمدُ : وهو على كل شيء قدير ، غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر** » . رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

• ويخرج إلى المساجد لصلاة الضحى لينال أجر المعتمر :

قال رسول اللّه ﷺ : « **من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه**[٤] **إلا إياه ، فأجره كأجر المعتمر ، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين** »[٥] .

فمن كان كتابه في عليين ، وهو من وفد الرحمن ، ومن يصلي عليه اللّه والملائكة ، ومن يرافقه الملك فأي رجل فوقه .

---

(١) رواه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه والحاكم عن البراء ، وابن ماجه عن عبد الرحمن ابن عوف ، والطبراني عن النعمان بن بشير .

(٣) رواه مسلم ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٤) أي يدفعه ويتعبه .

(٥) حسن : رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٢٨) .

• ومن تعلّق قلوبهم بالمساجد كانت لهم الأحوال العجيبة :

• وأي شأن من شئون سلفنا الصالح لم يكن عجيباً .

• نقل البخاري عن الأسود ، أنه إذا فاتته الجماعة ذهب إلى مسجد آخر(١) .

• ويوصون أبناءهم بملازمة المسجد :

قال أبو الدرداء لابنه : يا بني ، ليكن المسجد بيتك ، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **إن المساجد بيوت المتقين ، فمن كانت المساجد بيوته ، ضمن اللّه له بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى الجنة** »(٢) .

• مساءلة الابن عن حضور صلاة الجماعة :

عن مجاهد قال : « سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ـ قال : لا أعلمه إلاّ ممن شهد بدراً ـ قال لابنه : أدركت الصلاة معنا ؟ قال : أدركت التكبيرة الأولى ؟ قال : لا ، قال : لما فاتك منها خير من مائة ناقة ، كلها سود العين »(٣) .

• تأديب الابن على التأخر عن صلاة الجماعة :

ذكر الذهبي في « السير » (٥/ ١١٦) : « عن يعقوب عن أبيه ، أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه عمر إلى المدينة ، يتأدب بها ، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده ، وكان يلزمه الصلوات ، فأبطأ يومًا عن الصلاة ، فقال : ما حبسك ؟ قال : كانت مُرجِّلتي تُسكِّنُ شَعري ، فقال : بلغ من تسكين شعرك ، أن تؤثره على الصلاة ، وكتب بذلك إلى والده ، فبعث

---

(١) قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٣١) : إسناده صحيح .

(٢) إسناده صحيح : انظر : « الزهد » لهناد بن السري (٢/ ٣٦٢) .

(٣) « المصنف » لعبد الرزاق ، كتاب الصلاة ، باب : فضل الصلاة في جماعة (١/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩) .

عبد العزيز رسولاً إليه ، فما كلّمه حتىٰ حلق شعره » .

وولاة أمر يحملون الناس على الجماعة في المساجد حملاً :

فهذا فاروق الإسلام عمر بن الخطاب كان يتفقد الناس في صلاة الجماعة ، فقد روىٰ مالك ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة : أن عمر ابن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح ، وأن عمر بن الخطاب غدًا إلىٰ السوق ، ومسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي ، فمرّ علىٰ الشفاء أم سليمان ، فقال لها : لم أر سليمان في الصبح ، فقالت : إنه بات يصلي ، فغلبته عيناه ، فقال عمر : لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة ، أحبّ إليّ من أن أقوم ليلة »[(١)] .

● وعن هشيم عن أبيه ، قال : « فقد عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ رجلاً في صلاة الصبح ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : أين كنت؟ فقال : كنتُ مريضًا ، ولولا أن رسولك أتاني لما خرجت .

فقال عمر : فإن كنت خارجًا إلىٰ أحد ، فاخرج للصلاة »[(٢)] .

وروىٰ ابن سعد ، عن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، قال : «جاء عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ إلىٰ سعيد بن يربوع ؛ إلىٰ منزله ، فعزّاه بذهاب بصره ، وقال : لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول اللَّه ﷺ قال : ليس لي قائد ، قال : فنحن نبعث إليك بقائد ، فبعث إليه بغلام من السبي » .

● قال ثابت بن الحجاج : « خرج عمر بن الخطاب إلىٰ الصلاة ، فاستقبل الناس ، فأمر المؤذن فقام وقال : واللَّه ، لا ننتظر لصلاتنا أحدًا ،

(١) «الموطأ» ، كتاب صلاة الجماعة ، باب : ما جاء في العتمة والصبح (١/ ١٣١) .
(٢) « المصنف » لابن أبي شيبة .

فلما قضى صلاته ، أقبل على الناس ، ثم قال : ما بال أقوام يتخلفون ، يتخلف بتخلفهم آخرون ، والله لقد هممت أن أرسل إليهم ، فيجأ[١] في أعناقهم ، ثم يقال : اشهدوا الصلاة »[٢] .

● وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يمر في الطريق مناديًا : « الصلاة ، الصلاة » يوقظ الناس لصلاة الفجر ، وكان ـ رضي الله عنه ـ يفعل ذلك كل يوم » .

روى ابن سعد « عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ ، يحدث عن خروج عليّ اليوم الذي طعن فيه من بيته ، حيث يقول : « فلما خرج من الباب نادى : أيها الناس ، الصلاة الصلاة ، كذلك كان يفعل في كل يوم ، ومعه درّته يوقظ الناس »[٣] .

من رياض السلف :

● عن نافع أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة ، أحيا بقية ليلته[٤] .

● وعبد الله بن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ كان يسمى حمام المسجد .

● والربيع بن خُثيم كان يقول : إني لآنس بصوت عصفور المسجد عن أنسي بزوجتي .

● «وكان ـ رحمه الله ـ بعدما سقط شقه يهادى بين رجلين إلى مسجد

---

(١) أي يضرب أعناقهم .
(٢) « كنز العمال » (٨/ ٢٥٢) .
(٣) « الطبقات الكبرى » (٣/ ٣٦ـ٣٧) .
(٤) « الحلية » (١/ ٣٠٣) ، ورجاله ثقات .

قومه ، وكان أصحاب عبد اللَّه بن مسعود يقولون : يا أبا يزيد ، لقد رخّص اللَّه لك ، لو صليت في بيتك ، فيقول : إنه كما تقولون ، ولكني سمعته ينادي : حيّ على الفلاح ، فمن سمع منكم : حيّ على الفلاح ، فليجبه ولو زحفًا ، ولو حبواً .

• وعن أبي حيان التيمي عن أبيه ، قال : أصاب الربيع الفالج ، فكان يحمل إلى الصلاة ، فقيل له : إنه قد رخص لك .

قال : قد علمت ، ولكن أسمع النداء بالفلاح »[١] .

• وكان يحيى بن القطان إذا ذكر الأعمش قال : كان من النساك ، وكان محافظًا على الصلاة في الجماعة ، وعلى الصف الأول .

قال يحيى : وهو علامة الإسلام .

وكان يحيى يلتمس الحائط حتى يقوم في الصف الأول »[٢] .

• **ومفتي الحرم شيخ الإسلام أبو محمد عطاء بن أبي رباح**: قال عنه ابن جريج : « كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس صلاة »[٣] .

• **والإمام القدوة أبو الحارث عامر بن عبد اللَّه بن الزبير** : قال عنه مصعب : « سمع عامرٌ المؤذن ، وهو يجود بنفسه ، فقال : خذوا بيدي ، فقيل : إنك عليل ، قال : أسمع داعي اللَّه فلا أجيبه ! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب ، فركع ركعة ، ثم مات »[٤] .

• **وثابت البناني الإمام الرباني** : الذي قال عنه أستاذه وشيخه أنس بن

---

(١) « الحلية » (٢/ ١٣٣ ، ١١٤) .

(٢) « حلية الأولياء » (٥/ ٤٩ـ ٥٠) .

(٣) « السير » (٥/ ٨٤) .

(٤) « السير » (٥/ ٢٢٠) .

مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتًا مفتاح من مفاتيح الخير .

قال عنه ابن شوذب : ربما مشينا مع ثابت البناني ، فلا يمر بمسجد إلا دخل فصلى فيه .

وقال حميد : كنا نأتي أنس بن مالك ومعنا ثابت ، فكلما مرّ بمسجد صلى فيه ، فكنا نأتي أنسًا فيقول : أين ثابت ؟ أين ثابت ؟ إن ثابتًا دويبة أحبها .

وعن حرمى قال : استعان رجل بثابت البناني على القاضي في حاجة ، فجعل لا يمر بمسجد إلا نزل فصلى ، حتى انتهى إلى القاضي وقد ختمت القماطر ، فكلمه في حاجة الرجل فقضاها ، فأقبل ثابت على الرجل فقال : لعلّه شق عليك ما رأيت ، قال : نعم ، قال : ما صليت صلاة إلا طلبت إلى اللَّه تعالى في حاجتك[١] .

• والإمام القدوة ربيعة بن يزيد أبو شعيب الإيادي الدمشقي القصير:

قال أبو مسهر : حدثنا عبد الرحمن بن عامر : سمعت ربيعة بن يزيد يقول : ما أذّن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة ، إلا وأنا في المسجد ، إلا أن أكون مريضًا أو مسافرًا[٢] .

• والإمام الكبير مُقرئ العصر أبو بكر عاصم بن أبي النجود :

قال زياد بن أيوب : « حدثنا أبو بكر قال : كان عاصم إذا صلى ينتصب كأنه عود ، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر ، وكان عابدًا خيّرا ، يصلي أبدًا ، ربما أتى حاجة ، فإذا رأى مسجدًا قال : مِلْ بنا

(١) « حلية الأولياء » بتصرف (٢/ ٣١٨ـ٣٢٧) .
(٢) « السير» (٥/ ٢٣٩ـ٢٤٠) .

فإن حاجتنا لا تفوت ، ثم يدخل فيصلي »[١] .

• **والزاهد القدوة كُرْز بن وبرة** : كان لا ينزل منزلاً إلا ابتنى فيه مسجدًا فيصلي فيه .

• **وشيخ الإسلام الرباني أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي** :

قال عنه معمر مؤذنه : صلى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة ، وسمعته يقرأ : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾[٢] ، قال : فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾[٣] ، جعل يرددها حتى خف أهل المسجد فانصرفوا ، قال : فخرجت وتركته ، قال : وعدوت لأذان الفجر ، فنظرت فإذا هو في مقامه ، قال: فسمعت ، فإذا هو فيها لم يجزها وهو يقول : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ .

قال ابن سعد : « كان سليمان التيمي من العباد المجتهدين كثير الحديث، ثقة ، يصلي الليل كله بوضوء عشاء الآخرة ، وكان هو وابنه يدوران بالليل في المساجد ، فيصليان في هذا المسجد مرّة ، وفي هذا المسجد مرة ، حتى يصبحا »[٤] .

• **وسفيان الثوري الإمام المرضي** :

قال عنه ابن وهب : رأيت سفيان في الحرم بعد المغرب صلى ، ثم سجد سجدة ، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء .

وقال علي بن الفضيل : رأيت الثوري ساجدًا ، فطفت سبعة أسابيع قبل أن يرفع رأسه .

---

(١) « السير » (٥/ ٢٥٩) .

(٢) سورة الملك الآية (١) .

(٣) سورة الملك الآية (٢٧) .

(٤) « السير» (٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢) .

• وشيخ الإسلام حمّاد بن سلمة :

قال عنه يونس بن محمد المؤدب : مات حمّاد بن سلمة في الصلاة في المسجد[1] .

رحم اللَّه من كانت خاتمته في الصلاة في المسجد ، ومن كان على حال لقى اللَّه عليها .

• والإمام الرباني بشر بن منصور الذي قال عنه تلميذه عبد الرحمن بن مهدي : لم أر مثله .

قال أسيد بن جعفر ابن أخيه : بشر بن منصور ما فاتته التكبيرة الأولى قط[2] .

• والإمام الرضي ، والزّمام القوي عبد الرحمن بن مهدي :

قال عبد الرحمن رسته : سألت ابن مهدي عن الرجل يبني بأهله ، أيترك الجماعة أيامًا ؟

قال : لا ، ولا صلاة واحدة ، وحضرته صبيحة بني على ابنته ، فخرج فأذن ، ثم مشى إلى بابهما ، فقال للجارية : قولي لهما : يخرجان إلى الصلاة ، فخرج النساء والجواري ، فقلن : سبحان اللَّه ! أي شيء هذا ؟!

فقال : لا أبرح حتى يخرجا إلى الصلاة .

فخرجا بعد ما صلىّ ، فبعث بهما إلى مسجد خارج الدرب »[3] .

قال الذهبي : هكذا كان السلف في الحرص على الخير[4] .

---

(١) « السير » (٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦) .

(٢) «الحلية » (٦/ ٢٣٩ـ٢٤٠) .

(٣) « الحلية » (٩/ ١٣) .

(٤) « السير » (٩/ ٢٠٤) .

• **راهب الكوفة الرباني : هنّاد بن السرّي :**

قال عنه أحمد بن سلمة النيسابوري الحافظ : كان هناد ـ رحمه اللَّه ـ كثير البكاء ، فرغ يومًا من القراءة لنا ، فتوضأ وجاء إلىٰ المسجد ، فصلىٰ إلىٰ الزوال وأنا معه بالمسجد ، ثم رجع إلىٰ منزله فتوضأ ، وجاء فصلىٰ بنا الظهر ، وأخذ يقرأ في المصحف حتىٰ صلىٰ المغرب .

قال : فقلت لبعض جيرانه : ما أصبره علىٰ العبادة .

فقال : هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة ، فكيف لو رأيت عبادته بالليل .

وكان يقال له : راهب الكوفة[1] .

• **ولقمان هذه الأمة** :الآخذ بالألزم والأقوم ، المؤثر للأدوم والأعمّ، أبو عبد الرحمن **حاتم الأصمّ** :

قال ـ رحمه اللَّه ـ : « فاتتني الصلاة في الجماعة ، فعزاني أبوإسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف ، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا »[2] .

• **والإمام المزني شيخ الشافعية** :كان ـ رحمه اللَّه ـ إذا فاتته صلاة الجماعة ، صلىٰ تلك الصلاة خمسًا وعشرين مرة[3] .

• **والإمام المحدث مسند عصره أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم .**

قال عنه الحاكم : « بلغني أنه أذّن سبعين سنة في مسجده »[4] .

---

(١) « السير » (١١/ ٤٦٥ـ٤٦٦) .

(٢) « الإحياء » (١/ ١٧٧) .

(٣) « السير » (١٢/ ٤٩٢ـ٤٩٧) .

(٤) « الأنساب » للسمعاني (١/ ٢٩٥) ، و« السير » (١٥/ ٤٥٥) .

هذا والله المعلق قلبه في المساجد . . . يؤذن سبعين سنة !! وقد قال رسول الله ﷺ : « **من أذن اثنتي عشرة سنة ، وجبت له الجنة ، وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة ، وبإقامة ثلاثون حسنة** »[١] .

• والإمام القدوة أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي :

كان به وجع الخاصرة ، فكان إذا أصابه أقعده عن الحركة ، فكان إذا نودي للصلاة ، يحمل على ظهر رجل ، فقيل له : لو خففت على نفسك؟ قال : إذا سمعتم حيّ على الصلاة ولم تروني في الصف ، فاطلبوني في المقبرة[٢] .

• والشيخ الصادق القدوة أبو العباس ابن الطّلاية :

قال عنه السمعاني : « شيخ كبير أفنى عمره في العبادة والقيام والصيام، لعله ما صرف ساعة من عمره إلاّ في عبادة ، وانحنى حتى لا يتبين قيامه من ركوعه إلا بيسير »[٣] .

قال أبو المظفر ابن الجوزي : « سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم ، أن السلطان مسعودًا لما أتى بغداد كان يحب زيارة العلماء والصالحين ، فالتمس حضور ابن الطلاية فقال للرسول : أنا في هذا المسجد ، أنتظر داعي الله في النهار خمس مرات ، فذهب الرسول ، فقال السلطان : أنا أولى بالمشي إليه ، فزاره فرآه يصلي الضحى ، وكان يطوّلها يصليها بثمانية أجزاء ، فصلى معه بعضها ، فقال له الخادم : السلطان قائم

---

(١) صحيح : رواه بن ماجه والحاكم عن ابن عمر، وصححه الحاكم والألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٧٨) .

(٢) « السير » (١٦/ ٣٤٦) .

(٣) « الأنساب » للسمعاني (٨/ ٣٧) .

على رأسك ، فقال : أين مسعود ؟ قال : ها أنا .

قال : يا مسعود ، اعدل ، وادعُ لي ، اللَّه أكبر ، ثم دخل في الصلاة فبكى السلطان ، وكتب ورقة بخطه بإزالة المكوس والضرائب وتاب توبة صادقة »[1] .

ولله در من قال :

أحِنُّ اشتياقاً للمساجد لا إلى ... قُصُورٍ وفُرْشٍ بالطِّراز موشَّحُ
وفيها اعتزال لذّ في جانب الهوى ... مجاورةُ الأسفار للصدر تَشرحُ
فإن شئت تفسيراً مُرادَ مُحقِّقٍ ... وإن شئت توحيداً به المرء يُفلحُ
وإن رُمْت كُتْبًا للحديث وشرحِه ... وَجَدت ولم يَعْدوك أُنسٌ ومَرْبحُ
وإنْ رُمْت آداباً وتاريخ من مضى ... وجدتَ وطاب الوقت والفكْرُ يَسْرَحُ
وإنْ رُمت كُتْبَ الفقه أو كُتْبَ أصله ... تناولت أحكاماً بها القلبُ يَفرحُ
وتسلَمُ من قيلٍ وقالَ ومنْ أذى ... جليسٍ ومنْ واشٍ يَنِمُّ ويَجْرَحُ
أصلي اشتياقًا للعليّ لعلني ... أجد قرة للعين فيها وأفلح
أعاشر فيها الصادقين وركبهم ... أجالسهم والهجر للغير أمنَحُ
والمكثُ فيها عز قلبي حياته ... حياة لأجل الغالي بالدون أسمحُ

قال ربيعة بن عبد الرحمن : المروءة في الحضر : الإدمان إلى المساجد ، وتلاوة القرآن ، وكثرة الإخوان في اللَّه عز وجل »[2] .

وفي رواية عنه : « أما التي في الحضر : فتلاوة القرآن ، ولزوم

---

(١) « السير » (٢٠/ ٢٦٢) ، و« مرآه الزمان » (٨/ ١٣٢) .

(٢) « روضة العقلاء » لابن حبان (ص٢٣٢) ، و« التمهيد » (٢٣/ ١٧٨) .

المساجد ، وعفاف الفرج »[١] .

• كان أبو الليث الطرسوسي يُعزّىٰ ، فقيل له : ما شأنه ؟ قالوا : فاتته صلاة الجماعة[٢] .

• أغرب من الخيال أمر ضمام بن إسماعيل :

عن نعيم بن حماد قال : جاء ضمام بن إسماعيل إلىٰ المسجد وقد صلىٰ الناس وفاتته الصلاة ، فجعل علىٰ نفسه ألا يخرج من المسجد حتىٰ يلقىٰ اللَّه ، قال : فجعله بيته حتىٰ مات »[٣] .

الحفار الغرناطي يخرج إلى الجماعة يهادى بين رجلين نحواً من عامين:

هو محمد بن علي بن محمد الأنصاري الحَفّار الغرناطي .

قال عنه ابن الخطيب : قد بقي الحفار نحواً من عامين أو أزيد يخرج للصوات الخمس يُهادىٰ بين رجلين لشيء كان برجله حتىٰ كان بعض أصحابه يقول : الحفّار حجة اللَّه علىٰ مَنْ لم يحضر الجماعة[٤] .

الحملاني : صلى أربعين سنة إمامًا ، ما ترك صلاة واحدة في جماعة:

الفقيه حاتم الحملانيّ اليمني العلامة الزاهد ، كان إمامًا يقتدىٰ به ، وهو أستاذ أهل زمانه في الفقه والأصُولَيْن .

قال عنه تلميذه الزاهد الشهير إبراهيم الكينعيّ : صلىٰ حاتم زهاء

---

(١) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (٢/ ٦٤٥) .
(٢) « تاريخ واسط » (١٧٤) لبحشل .
(٣) « العلل » لأحمد بن حنبل رقم (٥٠٣٣) .
(٤) « الدرر الكامنة » (٤/ ١٩٩) .

أربعين سنة إمامًا ، ما ترك صلاة واحدة في جماعة ، ولا سجد للسهو في جميع هذه المدة إلا ست مرات ، وكان لا يدع البكاء في الصلاة مطلقًا انتهىٰ وقال في « الطبقات » : روىٰ الثقة أنه قبضت روحه وهو يصلي صلاة التسبيح مستلقيًا من المرض[1] .

مدين بن أحمد بن محمد الحميري المغربي المالكي :

قال عنه السخاوي في « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٠ ـ ١٥٢) : « نعم الشيخ كان : جلالة وسمتًا ووقارًا وبهاء وعقلاً ومراقبة وملازمة للطاعة واتباعًا للسنة وجمعًا للناس علىٰ ذكر اللَّه وطاعته واقتدارًا علىٰ العبادة . . .

وقد مكث دهرًا إلىٰ حين وفاته لا تفوته التكبيرة الأولىٰ من صلاة الصبح ويمكث في مصلاه وهو علىٰ طهارة إلىٰ أن يركع الضحىٰ وربما جلس بعد ذلك » .

أبو السعود الكازوروني أول الناس دخولاً المسجد وآخرهم خروجًا :

« يحيىٰ بن أحمد الكازوروني المدني الزبيري إمام الشافعية بطيبة الطيّبة كان فاضلاً ذا همة عالية ونفس مطمئنة وخشية للَّه تعالىٰ ، والتورّع في كثير من أمور الدنيا والتقلل منها .

لزم صلاة الجماعة بالمسجد النبوي بحيث لا يفوته فرض إلا لعذر ، وكان لا يخرج من المسجد إلا آخر الناس خصوصًا بعد صلاة العشاء ويقول :

أحب أن أكون آخر الناس خروجًا وأولهم دخولاً »[1] .

* * *

(١) « ملحق البدر الطالع » (١/ ٦٧) .

(٢) « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » لفضل اللَّه المحبيّ (١/ ١١٨ ـ ١١٩) .

سيبويه : لا يتخلف عن صلاة الجماعة في الصف الأول بالأزهر :

محمد بن أحمد بن سلامة الشافعي البصير ، الشهير بسيبويه ، اشتهر بالعربية .

كان عزبًا لا يخرج من الجامع الأزهر إلا إذا تعطلت فسقية[١] الجامع ، فيخرج لأقرب مكان لقضاء الحاجة .

لم يتخلف في سائر الأوقات عن صلاة الجماعة في الصفّ الأول بالأزهر ، ويقوم فيه من النصف الآخر ، ولا يزال يتهجد حتى يصلي الصبح مع الجماعة ، وبعدها يقرأ الناس عليه في القراءات إلى طلوع الشمس فيذهب حينئذ إلى فسقية الجامع ويتوضأ ويجلس للتدريس إلى قبيل الظهر هذا دأبه طول عمره إلى أن نقله اللَّه إلى دار كرامته[٢] .

القاضي حسين بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يخرج للجماعة وله من العمر اثنتين وتسعين سنة :

هو خليفة شيخ الإسلام وابنه والقاضي في الدرعية ، أخذ عنه من القضاة عدد كثير .

كان قل ثقل آخر عمره ، فكان يخرج لصلاة الجماعة يتهادى بين رجلين حتى يقام في الصف وله من العمر نحو اثنتين وتسعين سنة[٣] .

* * *

---

(١) حوض الماء المعد للسقيا والوضوء .

(٢) « خلاصة الأثر » (٣/ ٣٧٥-٣٧٦) .

(٣) « المختار المصون من أعلام القرون » لمحمد بن حسن بن عقيل موسى (٣/ ١٩١١) نقلاً عن «عنوان المجد في تاريخ نجد » لعثمان بن بشر النجدي .

حفصة بنت سيرين مكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو قائلة :

أم الهذيل - رحمها اللَّه - التي فاقت الرجال في شوقها إلىٰ الصلاة ولزومها لمسجد بيتها .

مكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو قائلة ، وكانت تدخل مسجدها فتصلي فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، ولا تزال فيه حتىٰ يرتفع النهار فتركع ، ثم تخرج فيكون عند ذلك وضوءها ونومها .

وكان الهذيل ابنها يجمع الحطب في الصيف فيكسره ويأخذ القصب فيفلقه ، فإذا وجدت حفصة أمه بردًا في الشتاء جاء بالكانون فوضعه خلفها وهي في مصلاها ، ثم يقعد فيقد بذلك الحطب وقودًا لا يؤذيها دخانه ويدفئها »[1] .

لئن كـان النســـــاء كما ذكرنا لفُضّلت النســاء على الرجــال

* * *

(١) « مختصر قيام الليل » للمروزي (ص١٩) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٢٤-٢٥-٢٦) .

رجلان تحابا

في اللــــه

لا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا

رجلان تحابا في الله

التحاب في اللّه تعالىٰ والأخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات ، وهي البقيّة مما يلتذ به في دار الدينا .

للّه ما أحلى محبة كانت قبل الوجود :

عن عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « **الأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** »[1] .

قال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه اللّه ـ : « ومعنىٰ هذا الحديث : الإخبار عن مبدأ كون الأرواح وتقدمها الأجساد . . . وأعلم النبي ﷺ أنها خلقت علىٰ ائتلاف واختلاف فتأتلف الأجساد في الدنيا وتختلف علىٰ حسب ما وقع في مبدأ الخِلقة » حب فياض رائق عذب جميل أعلىٰ من كل رابطة تمتُّ إلىٰ الأرض . . . رفرفة أرواح أحبت ربها فألقىٰ المحبة بينها .

ولقد امتن اللّه علىٰ نبيه ﷺ بالألفة والحب بين أصحابه قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[3] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) سورة الأنفال الآية (٦٣) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٠٣) .

للّه ما أحلاها من نعمة وأعظمها منّة :

وللَّه در أبي علي الكاتب المصري حيث يقول : « روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها ، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها ، وتبدو عليهم وإن ستروها »[١] .

« وليس الحب إلا ما نشأ عليه القلب ونما ، ورُبي في أرض المودة وسما » .

ومهما طاب المثمر طابت الثمرة . . . ولا أطيب من الحب في اللَّه فما ظنك بالثمرة : « قال اللَّه تعالى : **حُقّتْ محبتي للمتحابين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتواصلين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتناصحين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتزاورين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتباذلين فيّ .**

المتحابون فيّ على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء »[٢] .

وقال اللَّه تعالى : « **وجبت محبتي للمتحابين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتباذلين فيّ ، والمتزاورين فيّ** »[٣] .

وقال اللَّه تعالى : « **حُقّت محبتي على المتحابين ، أظلهم في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلي** »[٤] .

---

(١) « البداية والنهاية » (١١/ ٢٢٨) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، والطبراني في « الكبير » ، والحاكم في « المستدرك » وصححه ، عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٢١) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، والطبراني في « الكبير » ، والحاكم في « المستدرك » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٣١) ، و« تخريج المشكاة » (٥٠١١) .

(٤) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٢٠) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي ، يوم لا ظل إلا ظلي** »[(١)] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن المتحابين باللَّه في ظل العرش** »[(٢)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في اللَّه ، وتبغض في اللَّه** »[(٣)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أوثق عرى الإيمان الموالاة في اللَّه ، والمعاداة في اللَّه، والحب في اللَّه ، والبغض في اللَّه عز وجل** »[(٤)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **قال اللَّه تعالى : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء** »[(٥)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أحب للَّه ، وأبغض للَّه ، وأعطى للَّه ، ومنع للَّه، فقد استكمل الإيمان** »[(٦)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**ما تحابّ اثنان في اللَّه تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه** »[(٧)] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٩٣٧) .

(٣) حسن : روه أحمد ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن البراء ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٠٠٩) .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن عباس ، والطيالسي ، والحاكم ، والطبراني في «الكبير» و« الأوسط » عن ابن مسعود ، وأحمد وابن أبي شيبة ، وابن نصر عن البراء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٣٩) .

(٥) صحيح : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣١٢) .

(٦) صحيح : رواه أبو داود ، والضياء في « المختارة » عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٨٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٩٦٥) .

(٧) صحيح : رواه البخاري في « الأدب » ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن أنس ، =

وقال رسول الله ﷺ : « **ما أحب عبد عبداً لله ، إلا أكرم ربه** »(١) .

وقال رسول الله ﷺ : «**من أحب أن يجد طعم الإيمان ، فليحب المرء ، لا يحبه إلا لله** »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « **من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان ، فليحب المرء لا يحبه إلا لله** »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « **ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار** »(٤) .

هذا فيمن يحب رجلاً في الله وربما لم يخبره بذلك ، فكيف إذا تحاب رجلان وأعلم كلاً منهما الآخر بذلك :

قال رسول الله ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه أنه يحبه**»(٥) .

وقال رسول الله ﷺ : « **إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله ، فليخبره أنه يحبه لله** »(٦) .

= وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٤٥٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٥٩٤) .

(١) حسن : رواه أحمد في « مسنده » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٢٥٦) ، و« تخريج المشكاة » (٥٠٢٢) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٥١٦) .

(٢) حسن : رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ، ورواه أحمد والبزار ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٥٨) .

(٣) حسن : رواه أحمد ، والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه ابن نصر ، والبزار ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٣٠٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٦٢٨٨) .

(٤) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أنس .

(٥) صحيح : رواه أحمد ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن حبان والحاكم عن المقداد بن معدي كرب ، وابن حبان عن أنس ، والبخاري في « الأدب » عن رجل من الصحابة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٧٩) .

(٦) صحيح : رواه أحمد ، والضياء في « المختارة » عن أبي ذر ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » =

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المرء مع من أحب** »[١] .

وأي شرف بعد هذا الشرف الذي يتحفنا به رسول اللَّه ﷺ حيث يقول : «**وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ، ولم يروني** »[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل**»[٣] .

وللَّه در الشاعر حين يقول :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم   لا يستوون كما لا يستوي الشجرُ

هذا له ثمـــر حلـو مذاقتــه   وذاك ليـــس له طعـمٌ ولا ثَمَـــرُ

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **إن من عباد اللَّه لعباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء** » قيل : من هم لعلنا نحبهم ؟ قال : « **هم قوم تحابوا بروح اللَّه على غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، وهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلى ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**[٤] »[٥] .

= وابن وهب في « الجامع » وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٨١) .

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن أنس ، والبخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد عن أنس ، ورواه مالك ، وأحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٣) إسناده صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » ، ورواه هنَّاد بن السري في «الزهد» ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأخرجه أبو داود والطبراني وأبو نعيم في « الحلية » ، وقال ابن كثير : إسناده جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الطبري .

(٤) سورة يونس الآية (٦٢) .

(٥) إسناده حسن : لا بأس به في الشواهد ، رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » ، وأحمد في «المسند» من طريق ابن أبي الدنيا ، وابن المبارك في « الزهد » وقال المنذري : رواه أحمد =

وعن أبي مالك الأشعري ، أن رسول اللَّه ﷺ أقبل على الناس بوجهه فقال : « **يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن للّه عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من اللّه** » ، فقال أعرابي : يا رسول اللَّه انعتهم لنا ، جَلِّهم لنا ، فتبسّم رسول اللَّه ﷺ لقول الأعرابي ، وقال : « **هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى اللّه عز وجل وتَصَافَوْا ، يضع اللّه عز وجل لهم منابر من نور ليجلسهم عليها ، فيجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »[(١)] .

قال كعب الأحبار : « في الجنة عمود من ياقوتة حمراء ، في أعلاه سبعون غرفة ، هي منازل المتحابين في اللَّه ، مكتوب في جباههم (المتحابون في اللَّه) إذا أشرف الرجل منهم على أهل الجنة ، أضاء لأهل الجنة ، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فيقولون : هذا الرجل من المتحابين في اللَّه » .

وقال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ : « عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار : ﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** ﴾؟[(٢)] .

وقال ابن السماك عند موته : « اللّهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك .

= وأبو يعلى بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وأورده الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) ، وقال : رواه كله أحمد والطبراني بنحوه وزاد « على منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، ورجاله وثقوا .

(١) إسناده حسن : أخرجه هنَّاد في « الزهد» ، وأبو نعيم في « الحلية » .

(٢) سورة الشعراء الآيتان (١٠٠ ـ ١٠١) .

وقال الفضيل في بعض كلامه : هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأي عمل عملته ؟ بأي شهوة تركتها ؟ بأي غيظ كتمته ؟ بأي رحم قاطع وصلتها ؟ بأي زلة لأخيك غفرتها ؟ بأي قريب باعدته في اللَّه ؟ بأي بعيد قاربته في اللَّه ؟

وقال مجاهد : المتحابون في اللَّه إذا التقوا فكشر بعضهم إلىٰ بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس .

وقال الفضيل : « نظر الرجل إلىٰ وجه أخيه علىٰ المودة والرحمة عبادة»[1] .

الحب في اللَّه :

وحد الحب في اللَّه : هو كل حب لولا الإيمان باللَّه واليوم الآخر لم يُتصور وجوده فهو حب في اللَّه ، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان باللَّه لم تك تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في اللَّه فذلك وإن دقّ فهو عزيز .

قال الحريري : « تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتىٰ رقّ الدين ، وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتىٰ ذهب الوفاء ، وفي الثالث بالمروءة حتىٰ ذهبت المروءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة »[2] .

وأعلىٰ الحب في اللَّه أن يحب المرء للَّه في اللَّه لا لينال منه علمًا أو عملاً أو يتوسل به إلىٰ أمر وراء ذاته وهذا أعلىٰ الدرجات وهو أرقها وأغمضها .

فمن أحب إنسانًا حبًا شديدًا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثني عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلىٰ رضا محبوبه ، حتىٰ قال بقية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه .

---

(١) « الإحياء » (٢/ ١٧٥) .

(٢) « الإحياء » (٢/ ١٧٩) .

حقوق الأخوة والصحبة :

للَّه در علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : « يا بني ! إذا عرضت لك إلىٰ صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤنة مانك ، واصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها ، وإن رأىٰ منك حسنة عدّها ، وإن رأىٰ سيئة سدّها ، اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكتّ ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إن قلت صدّق قولك ، وإن حاولتما أمرًا أمّرك ، وإن تنازعتما آثرك .

قال ابن أكثم : قال المأمون : فأين هذا ؟ فقيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال : لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحدًا . اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين .

ولأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء والتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال :

عن عبادة بن الصامت ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **قال اللَّه تعالى : حَقَتْ محبتي للمتباذلين فيّ** »(١) .

وللَّه در هلال بن العلاء بن عمر الباهلي :

مَلأْتُ يدي مِنَ الدنيـا مــــراراً … فما طمع العواذلُ في اقتصادي
ولا وجـبتْ عليّ زكــاة مـــال … وهـل تجبُ الزكاةُ على الجَـوادِ(٢)

---

(١) إسناده صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤/ ١١٦) رقم (٤١٩٦) .
(٢) « روضة العقلاء » لابن حبان (ص٢٣٨) .

والمواساة بالمال مع الإخوان على ثلاث مراتب :

أدناها : أن تقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداءً ولم تحوجه إلى السؤال ، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

رأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان ، فسأل عنهما فقيل : هما صديقان ، فقال : ما بال أحدهما فقير والآخر غني ؟؟

الثالثة : وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[1] .

وقال اللَّه عز وجل : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾[2] .

أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نعلي ، لأنه أضافه إلى نفسه .

الإسعاف بالجاه :

الإسعاف بالجاه هو ألطف الصنائع موقعًا ، وربما كان أعظم من المال نفعًا ، قال بعض البلغاء : من علامة الإقبال : اصطناع الرجال .

وبذل الجاه أحد الحباءين[3] .

---

(١) سورة الحشر الآية (٩) .

(٢) سورة الشورى الآية (٣٨) .

(٣) الحباءين : العطاءين .

والجاه هو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون ، فإن أوطأه[1] ، اتسع بكثرة الأنصار والشيع ، وإن قبضه ، انقطع بنفور الغاشية والتبع ، فهو بالبذل ينمو ويزيد ، وبالكف ينقص ويبيد .

وعلىٰ من أُسعد بجاهه ثلاثة حقوق :

الأول : أن يستسهل المعونة مسرورًا ولا يستثقلها كارهًا .

الثاني : مجانبة الاستطالة ، وترك الامتنان ، فأضيق الناس طريقًا وأقلهم صديقًا ، من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

والثالث : ألا يقرن بمشكور سعيه تقريعًا بذنب، ولا توبيخًا علىٰ هفوة .

ولله در سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ في إيثاره العجيب :

لما هاجر عبد الرحمن بن عوف إلىٰ المدينة فقيرًا ، لا شيء له ، آخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ، فعرض عليه سعد أن يشاطره نعمته ، وأن يطلق له أحسن زوجتيه .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك في أهلك ومالك ولكن دُلّني علىٰ السوق .

قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : « أتىٰ علينا زمان وما يرىٰ أحد منا أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم ، وإنا في زمانٍ الدينار والدرهم أحب إلينا من أخينا المسلم »[2] .

قال سفيان بن عيينة : « سمعت مساور الوراق يحلف بالله ـ عز وجل ـ ما كنتُ أقولُ لرجل إني أحبك في الله ـ عز وجل ـ فأمنعه شيئًا من الدنيا»[3] .

---

(١) مهّده وسهّله .

(٢) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : رواه الطبراني بأسانيد بعضها حسن .

(٣) كتاب « الإخوان » لابن أبي الدنيا (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، تحقيق محمد عبد الرحمن طوالبة ، نشر دار الاعتصام .

وقال عمر بن عبد العزيز : « ما أعطيت أحداً مالاً إلا وأنا أستقله ، وإني أستحي من اللَّه - عز وجل - إن سألت اللَّه - عز وجل - لأخ من إخواني وأبخل عنه بالدنيا ، وإذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الدنيا بيدك كنت أبخل » .

وقيل لمحمد بن المنكدر : ما بقي مما يُسْتَلَذُّ ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

وقال يزيد بن عبد الملك : « إني لأستحي من اللَّه - عز وجل - أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بدينار أو درهم » .

وكان - رحمه اللَّه - يقرأ القرآن في سجدة واحدة .

وقال أحد الصالحين : « وددت أن جميع إخواني أتوني فشاركوني في معيشتي حتى يكون عيشنا عيشًا واحداً ، ولوددت أن جميع إخوني أتوني في حوائجهم ، وإني لأستحي من اللَّه - عز وجل - أن ألقى الأخ من إخواني فأدعو له بالجنة وأبخل عليه بالدنيا ، والدنيا أصغر وأحقر من أن يقال لي يوم القيامة : كنتَ كذّابًا ، لو كانت الدنيا في يدك كنتَ بها أبخل »[1] .

وقال أبو جعفر محمد بن الحسين لعبد اللَّه بن الوليد : يدْخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ويأخذ ما يريد ؟ قلنا : لا ، قال : فلستم بإخوان كما تزعمون .

ولما حضرت الوفاة سعيد بن العاص قال لبنيه : يا بني لا تفقدوا إخواني مني عندكم عين وجهي ، أجروا عليهم ما كنتُ أجري ، واصنعوا بهم ما كنت أصنع ، ولا تلجئوهم للطلب ، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائصه، وكلَّ لسانه ، وبدا الكلام في وجهه .

اكفوهم مُؤنة الطلب بالعطية قبل المسألة ، فإني لا أجد لوجه الرجل يأتي يتقلقل على فراشه ذاكراً موضعًا لحاجته ، فعدا بها عليكم لا أرى قضى

---

(١) كتاب « الإخوان » (ص٢٢٣-٢٢٤) .

حاجته عوضًا عن بذل وجهه ، فبادروهم بقضاء حوائجهم قبل أن يسبقوكم إليها بالمسألة[1] .

ودخل قوم على الحسن ـ رضي اللَّه عنه ـ فقالوا : يا أبا سعيد أصلّيْت؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ؟ قال : ومَنْ يأخذ دِينه من أهل السوق ؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم ـ رحمه اللَّه ـ وهو يريد بيت المقدس ، فقال : إني أريد أن أرافقك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أملك لشيئك منك ، قال : لا ، قال : أعجبني صدقك .

وأعطى مرة حمارًا كان لرفيقه ـ بغير إذنه ـ رجلاً رآه راجلاً ، فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك .

ورُوي أن مسروق أدان دينًا ثقيلاً ، وكان على أخيه خيثمة دين ، قال : فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم ، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم[2] .

كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء :

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ : لعشرون درهما أعطيها أخي في اللَّه أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين .

من رياض السلف :

جاء فتح الموصلي إلى صديق له ـ يُقال له عيسى التَمَّار ـ فلم يجده في المنزل ، فقال للخادم : أخرجي إليَّ كيس أخي ، فأخْرَجته له فأخذ درهمين ، وجاء عيسى إلى بيته فأخبرته الخادم بمجيء فتح وأخذه الدرهمين ، فقال : إن كنت صادقة فأنت حرَّة فنظر فإذا هي صادقة فعتقَتْ .

---

(١) كتاب « الإخوان » (ص٢١٩) .

(٢) « الإحياء » (٢/١٨٩) .

وعن مطرِّف قال : أتيت عثمان بن أبي العاص فقال لي : يا مطرِّف وَيَدَاك ملأىٰ ؟ فلما ولَّيْت أتبعني رسولاً معه صرَّة فيها أربعمائة ، فلما تيسرت ، أتيته بها ، فقال : لم أُعْطكها لآخذها منك .

وقال طعمة الجعفري : كان عمران بن موسىٰ بن طلحة يأتيني بالألف دينار والألفيْ دينار ويقول : أقسمها علىٰ إخوانك ولا تُعلمهم أنها مِن قِبَلِي .

وكان يقول : ما رأيتُك إلا رأيت لك عليَّ فضلاً بقضاء حوائجي ، قال طُعمة : وإنما قضاء حوائجه أن يُعطيني الدنانير والدراهم أقسهما علىٰ الفقهاء .

وقال منصور بن أبي الأسود : كان ليث بن أبي سُليم يأتيني بالنفقة فيقول : خذها ، فإن لم تحتج إليها فأعطها من يحتاج إليها من أهل البيت .

وكان عامر بن عبد اللَّه بن الزبير يتحيَّن العباد وهم سجود : أبا حازم ، وصفوان بن سُليم ، وسليمان بن سُحيم ، وأشباههم - فيأتيهم بالصرر فيها الدنانير والدراهم ، فيضعها عند نعالهم ، حيث يحسُّون بها ولا يشعرون بمكانه ، فيقال : ما يمنعك أن ترسل بها إليهم ، فيقول : أكره أن يتمعَّر وجهه إذا نظر إلىٰ رسولي أو إذا لقيني .

وعن زهير بن أبي خيثمة قال : استقرض أبي من الحسن بن الحرّ ألف درهم ، فلما جاء يردها عليه قال له الحسن بن الحر : اذهب فاشتر بها لزهير سُكرًا .

وعن الأعمش أن خيثمة بن عبد الرحمن وَرِث مائتي ألف فأنفقها علىٰ إخوانه[1] .

---

(١) انظر : كتاب « الإخوان » ، لابن أبي الدنيا .

وانظر إلى أريج وعطر أهل البيت :

كان أبو جعفر محمد بن علي يُجيزُ بالخمسمائة والستمائة إلى الألف ، وكان لا يملُّ من مجالسة إخوانه .

وعن الحسن بن كثير قال : شكوت إلى محمد بن علي الحاجة وجفاء إخواني .

فقال : بئس الأخ أخ يرعاك غنيًا ويقطعك فقيرًا ، ثم أمر غلامه فأخرج كيسًا فيه سبعمائة درهم فقال : استنفق هذه فإذا نفدت فأعلمني .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب ، ويكسوهم الثياب الحسنة ، ويهب لهم الدراهم : فتقول له مولاته سلمى : ما تصنع ؟ فيقول لها : يا سلمى ما يؤمَّل في الدنيا بعد المعارف والإخوان ؟

ولقي الحسن البصري بعض إخوانه ، فلما أراد أن يفارقه خلع عمامته وألبسها إياه ، وقال : إذا أتيت أهلك فبعها واستنفق ثمنها .

وكان مورِّق العجلي يأتي بالصرر فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودعها إخوانه ، ثم يلقاهم بعد ، فيقول : انتفعوا بها فهي لكم .

ولقي حكيم بن حزام عبد اللَّه بن الزبير ـ بعدما قُتل الزبير ـ فقال : كم ترك أخي عليه من الدَّيْن ؟ قال : ألفيْ ألف ، قال : عليَّ منها ألف ألف .

وقال سفيان الثوري : ما بقي أحد يدفع به عن أهل الكوفة إلا ابن سوقة ، كانت عنده عشرون ومائة ألف فقدَّمها ، وكانت له صرر فيها مال ، فإذا دخل عليه إخوانه ، قال : إخواني من احتاج إلى شيء فليأخذ ، فأخذوا واللَّه حتى نفدت عن آخرها ، فرحم اللَّه محمد بن سوقة .

وعن مطر الورَّاق قال : أتيت محمد بن واسع يومًا ، فلما رآني قال

برأسه بين رجليه فخمَّر وجهه أن أنظر إليه ، فلم يرفع رأسه ، فقمتُ ، فذهبتُ ، فلما كان بعد أيام أتاني بكيس فيه سبعمائة درهم فدفعها إليَّ وأنا في حانوتي في قنطرة حرة ، فقلت : تبعث إليَّ في حوائجك ؟ قال وأي حاجة لي ، أتيتني فظننت بك الحاجة ، فما استطعت أن أنظر إليك ، قال مطر : فقلتُ له : أنا بخير ، فقال : أنت كيف شئت !! الدراهمُ لا ترجع إلي[1].

قال الحسن : كنا نعد البخيل الذي يُقرِض أخاه !! وقال ـ رحمه اللّه ـ : ليس من المروءة أن يربح الرجل علىٰ صديقه .

وجاء رجل من السلف الصالح إلىٰ بيت صديق له ، فخرج إليه فقال : ما جاء بك ؟ قال : عليَّ أربعمائة درهم ، فدخل الدار فوزنها ، ثم خرج فأعطاه ، ثم عاد إلىٰ الدار باكيًا ، فقالت زوجته : هلاَّ تعللت عليه ، إذا كان إعطاؤه يشق عليك ؟ فقال : إنما أبكي لأني لم اتفقَّد حاله ، فاحتاج أن يقول ذلك !![2] .

قال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ في اللّه عز وجل ، فقلت له يومًا : أعطني دراهم ، فقال : كم تريد ؟ فسقط من عيني ، وخرجت أُخوّته من قلبي بقوله : كم تريد ؟[3] .

الحق الثاني : إطعام الإخوان وكسوتهم :

قال علي ـ رضي اللّه عنه ـ : لأن أجمع نفرًا من أصحابي علىٰ صاعٍ أو صاعَيْن من طعام أحب إلىٰ من أخرج إلىٰ سوقكم فأعتق نسمة .

---

(١) انظر : كتاب « الإخوان » (ص٢١٦ ـ ٢١٧) .
(٢) « التبصرة » ، لابن الجوزي (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) .
(٣) « التبصرة » ، لابن الجوزي (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .

ولِلَّه در أبي سليمان الداراني حين يقول : « لو أن الدنيا كلها لي في لقمة ، ثم جاءني أخ لأحببت أن أضعها في فيه »[(١)] .

وما أحلىٰ أبا سليمان وأطيبه حين يقول : إني لألقم اللقمة أخًا من إخواني فأجد طعمها في حلقي[(٢)] .

ودخل مالك بن دينار ومحمد بن واسع منزل الحسن وكان غائبًا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل ، فقال له مالك : كُفَّ يدك حتىٰ يجيء صاحب البيت ، فلم يلتفت محمد إلىٰ قوله ، وأقبل علىٰ الأكل ـ وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقًا ـ فدخل الحسن وقال : يا مويلك، هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضا حتىٰ ظهرت أنت وأصحابك ، أشار بهذا إلىٰ أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة ، كيف وقد قال تعالىٰ : ﴿ **أو صديقكم** ﴾ ، وقال : ﴿ **أو ما ملكتم مفاتحه** ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلىٰ أخيه ويفوِّض له التصرف كما يريد[(٣)] .

وكان أبو جعفر محمد بن علي يدعوا نفرًا من إخوانه كل جمعة فيطعمهم الطعام الطيب ، ويطيبهم ، ويَبخِّرهم ، ويروحون إلىٰ المسجد من منزله[(٤)] .

ولِلَّه در الإمـام أحمـد بن حنبل حين يقول : لو أن الدنيا جمعت حتىٰ تكون في مقدار لقمـة ، ثم أخـذها امرؤ مسـلم فوضعها في فم أخيه

---

(١) كتاب « الإخوان » ، (ص٢٣٥) .
(٢) « الإحياء » (٢/ ١٩٠) .
(٣) « الإحياء » (٢/ ١٩٠) .
(٤) كتاب « الإخوان » (ص٢٣٠) .

المسلم لما كان مسرفًا[١] .

وتعال إلىٰ بستان الحسن البصري وأزاهيره :

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد : الرجل يذبح الشاة فيصنعها ، ويدعو عليها نفرًا من إخوانه ، قال : وأين أولئك ؟ ذهب أولئك .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما عنده ، وربما قال لبعضهم : أخرج السلة من تحت السرير ، فيخرجها فإذا فيها رطب ، فيقول : إنما ادخرته لكم .

وقال يونس بن عبيد : كنا عند الحسن البصري فأهديت إليه سلة من سكر ، ففتحها ، فلم أر سكرًا كان أحسن منه : فقال برجله : اهضموا ، أي كلوا .

وقال عن بن يونس : دخل رجل علىٰ الحسن فوجده نائمًا علىٰ سريره ، ووجد عند رأسه سلة فيها فاكهة ، ففتحها ، فجعل يأكل منها فانتبه فرأىٰ الرجل يأكل ، فقال : رحمك اللَّه ، هذا ـ واللَّه فعل الأخيار .

وكان للحسن بيت إذا فتح بابه فهو إذنه ، فجاء أعرابي فصادفه مفتوحًا ، فدخل والحسن في المذهب ، فجاء إلىٰ شيء تحت سرير الحسن فأخرجه وجعل يأكل ، فنظر إليه الحسن وجعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا سعيد ؟ فقال : ذكرني هذا أخلاق قوم قد مضوا .

أما ابن سيرين فقد قال عنه أبو خلْدَة :

دخلنا علىٰ ابن سيرين أنا وعبد اللَّه بن عوف ، فرحَّب بنا وقال : لا أدري كيف أتحفكم ؟ كل رجل منكم في بيته خبز ولحم ولكن سأطعمكم شيئًا لا أراه في بيوتكم ، فجاء بشُهْدة[٢] ، وكان يقطع بالسكين ويطعمنا .

---

(١) « طبقات الحنابلة » (١/١٠٦) .

(٢) الشَّهْد والشُّهْد هو العسل ، والشهدة أخصُّ جمع شهاد .

وقال أبو إسحاق الأقرع : رأيت عبد اللَّه بن المبارك يخرج من عند سفيان بن عيينة مسرورًا طيِّب النفس ، فقيل له في ذلك ، فقال : وما يمنعني مِنْ ذلك ؟ حدثني ابن عيينة بأربعين حديثًا وأطعمني خبيصًا[١] .

وكان ابن المبارك ـ رحمه اللَّه ـ يُطعم أصحابه في الأسفار أطايب الطعام وهو صائم[٢] .

وعن شعيب بن حرب قال : كان حمزة الزيَّات يُقرئنا القرآن ، ويطعمنا الخبيص .

قال الأعمش : وكان خيثمة يصنع الخبيص والطعام الطيب ، فيدعوا إبراهيم النخعي ويدعونا معه ، ويقول كلوا ما أشتهيه ، ما أصنعه إلا لكم» .

وعن أبي الزناد أن زيدًا قدم من سفر ، فأهدىٰ له طلحة سلال خبيص ، فجمع عليها إخوانه القراء ، فأكلوا وكساهم ثوبًا ثوبًا .

وكان سعيد بن العاص يدعوا جيرانه وجلساءه في كل يوم جمعة ، فيصنع لهم الطعام ، ويكسوهم الثياب ، فإذا أرادوا أن يتفرقوا أمر لهم بالجوائز ، وبعث إليهم[٣] .

وقدم الأشعث بن قيس من مكة ، فلما صلىٰ الفجر أمرهم فأخذوا بأبواب المسجد ، فأمر لكل من في المسجد بحُلَّة ونعلين .

وكان خيثمه يحمل صررًا فيجلس في المسجد ، فإذا رأىٰ رجلاً من أصحابه في ثياب رثة اعترض فأعطاه صرة .

وعن الأعمش قال : ربما رأيت علىٰ إبراهيم الثوب ، فأقول من

---

(١) الخَبْص : الخلْط ، والخبيص : المعمول من التمر والسمن .
(٢) « لطائف المعارف » (ص٢٦٠) ، طبع مؤسسة الريان ، ودار ابن حزم .
(٣) كتاب « الإخوان » (ص٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

كساكم؟ فيقول : خيثمة ، وربما وُلِدَ له فيسترضع خيثمة الصرة لولده .

ورأىٰ مجمع التيمي علىٰ سفيان الثوري إزارًا متخرقًا فجاء بأربعة دراهم ، فقال : اشتر بها إزارًا[١] .

الحق الثالث : الإعانة بالنفس والبدن في قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة :

وهذه أيضًا لها درجات كالمواساة بالمال ، **فأدناها** القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة .

قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي ، فإذا لم يقضها فكبِّر عليه واقرأ هذه الآية : ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾[٢] .

وقضىٰ ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاءه بهدية ، فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديته إليَّ ، فقال : خذ مالك عافاك اللَّه ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبِّر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتىٰ .

قال جعفر بن محمد : إني لأتسارع إلىٰ قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني ، هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟

وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلىٰ باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ؟ هل

---

(١) كتاب « الإخوان » (٢٤٠ـ٢٤٨) .

(٢) سورة الأنعام الآية (٣٦) .

لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه ، وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتىٰ يشفق علىٰ أخيه كما يشفق علىٰ نفسه فلا خير فيها(١) .

قال هُريم بن سفيان : كان عمرو بن قيس الملائي يمر بنا في كل جمعة ، ومعه هدية قد حملها ، يأتي بها منزل منصور بن المعتمر قال : وذلك بعد موت منصور بما شاء الله ، فلم يزل علىٰ ذلك حتىٰ مات ، قال : فبلغني أن أهله كانت تعاهدهم بنحو من ذلك بعد ما مات عمرو .

وعن بسطام التيمي قال : رأيت طلحة بن مصرِّف يخرج من زقاق ضيِّق في التيم ، فقلتُ : من أين يجيء طلحة ؟ قالوا : يأتي أم عمارة بن عمير يبرها بالنفقة والكسوة والصلة ، قال : وذلك بعد موت عمارة ببضع عشرة سنة ، قال : وكانت أم عمارة أعجمية .

وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلىٰ الاستعانة ، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها ، ولا ترىٰ لنفسك حقًا بسبب قيامك بها ، بل تتقلد مِنَّة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره ، ولا ينبغي أن تقتصر علىٰ قضاء الحاجة ، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم علىٰ الأقارب والولد .

كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا ، وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

قال رسول الله ﷺ : « **أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس ، وأحب**

---

(١) « الإحياء » (٢/ ١٩٠ـ١٩١) .

الأعمال إلى اللَّه عز وجل سرور يدخله على المسلم ، أو يكشف عنه كربة ، أو يقضي عنه دينًا ، أو يطرد عنه جوعًا ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلى من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا ، ومن كفّ غضبه ستر اللَّه عورته ، ومن كظم غيظه ، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ اللَّه قلبه رجاء يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تهيأ له أثبت اللَّه قدمه يوم تزول الأقدام ، وإن سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخل العسل »[(١)] .

قال عبد اللَّه بن عثمان شيخ البخاري : « ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي ، فإن تمَّ وإلا قمت له بمالي ، فإن تَّم وإلا استعنَّا له بالإخوان ، فإن تَّم وإلا استعنا له بالسلطان »[(٢)] .

ودخل علي بن زين العابدين بن الحُسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده ، فبكى ابن أسامة ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : عليَّ دين ، قال : وكم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار - وفي رواية سبعة عشر ألف دينار - فقال : هي عليّ »[(٣)] .

وقال الهيثم بن جميل : « جاء فضيل بن مرزوق إلى الحسن بن حي فأخبره أنه ليس عنده شيء ، فقام الحسن فأخرج ستة دراهم ، وأخبره أنه ليس عنده غيرها ، فقال : سبحان اللَّه ليس عندك غيرها وأنا آخذها ، فأخذ ثلاثة وترك ثلاثة »[(٤)] .

أرسل الحسن البصري جماعة من أصحابه في قضاء حاجة لأخ لهم ، وقال مروا بثابت البناني فخذوه معكم ، فمروا بثابت فقال : أنا معتكف ،

---

(١) صحيح : « السلسة الصحيحة » رقم (٩٠٦) .
(٢) « الآداب الشرعية » ، لابن مفلح (٢/ ١٨٩) .
(٣) « البداية والنهاية » (٩/ ١٠٥) .
(٤) « ميزان الاعتدال » للذهبي (٣/ ٣٦٢) .

فرجعوا إلى الحسن فأخبروه ، فقال لهم : قولوا له : يا أعمش أماعلمت أن سعيك في حاجة أخيك خير لك من حجة بعد حجة ، فرجعوا إلى ثابت فأخبروه ، فترك اعتكافه وخرج معهم »[١] .

● قال ابن رجب في « لطائف المعارف » :

« كان كثيرمن السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم ؛ اغتنامًا لأجر ذلك ؛ منهم : عامر بن عبد قيس ، وعمرو بن عتبة بن فرقد ، مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما ، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان .

وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره ، فيشترط عليهم أن يخدمهم ، فكان إذا رأى رجلاً يريد أن يغسل ثوبه ، قال له : هذا من شرطي ، فيغسله ، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه ، قال : هذا من شرطي : فيغسله ، فلما مات نظروا في يده ، فإذا فيها مكتوب : «مِن أهل الجنة» ، فنظروا إليها فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم .

● وكان ابن المبارك إذا أراد الحج من بلده مرو جمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج ؟ فيأخذ منهم نفقاتهم ، فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف ، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا ، ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فرد إلى كل واحد نفقته »[٢] .

إن من حقوق الإخوان عليك أن تقضي عنه دينه ، تفك حاجته ، ترفع

---

(١) « جامع العلوم والحكم » (ص٣٢١) طبعة الحلبي .
(٢) « لطائف المعارف » (ص٢٥٩ ـ ٢٦٠) .

فقره وعوزه وإن كان في المشرق وأنت في المغرب ، وبهذا تكون أخاه ويكون أخاك .

قال محمد بن خالد لأبي سليمان الداراني : « يكون الرجل بأفريقية والآخر بسمرقند وهما أخوان ؟ قال : نعم ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تكون نيَّته متى لقيه واساه فإذا كانت نيته كذلك فهو أخوه »(١) .

• زيارتهم في اللَّه :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة ؟ النبى في الجنة، والشهيد في الجنة ، والصدِّيق في الجنة ، والمولود في الجنة ، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الجنة** »(٢) .

ولله در رجال يرسل اللَّه إليهم ملائكة تخبرهم بحبه إياهم :

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **زار رجل أخًا له في قرية ، فأرصد اللّه مالكا على مدرجته ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخا لي في هذه القرية ، فقال : هل له عليك من نعمة تربُّها ؟ قال : لا إلا أني أحبه في اللّه ، قال :فإني رسول اللّه إليك أن اللّه أحبك كما أحببته**»(٣) .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **من عاد مريضـًا ، أو زار أخًا له في اللّه ، ناداه منادٍ ، أن طِبْتَ وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً** »(٤) .

---

(١) « حلية الأولياء » (٩/ ٢٧٤) .

(٢) حسن : رواه الدارقطني في « الأفراد » ، والطبراني في « الكبير » عن كعب بن عجرة ، وحسنَّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٦٠٤) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، والبخاري في « الأدب » .

(٤) حسن : رواه الترمذي ،وابن ماجه ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٦٣) .

وعن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يروي عن ربه ـ تبارك وتعالي ـ قال : « **حَقَّت محبتي على المتزاورين فيّ** »[(١)] .

وللَّه در ليث بن أبي سُلَيم حين يقول : « ما من رجل يزور أخاه لا يزوره إلا ابتغاء مرضاة اللَّه ـ عز وجل ـ وتنجيز الموعود ، والتماس ما عنده، وحفظًا لحق أخيه إلا حيَّاه كل ملك بتحية لا يحيي بها صاحبه ، ثم صاح ورق الجنة وسبَّح ، ثم قيل : هذا فلان زار أخًا له » .

أبو مسلم الخولاني ومعاذ بن جبل وأخُوَّة في اللَّه :

عن أبي مسلم الخولاني قال : أتيت مسجد أهل دمشق ، فإذا حلْقة فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ ، وإذا شاب فيهم أكحل العين برَّاق الثنايا كلما اختلفوا في شيء ردُّوه إلى الفتى ، فقلت لجليس لي : من هذا؟ قال : هذا معاذ بن جبل فجئت من العشيّ فلم يحضر ، فغدوت من الغد فلم يجيء ، فخرجت فإذا أنا بالشاب يصلي إلى سارية فركعت ثم تحولت إليه ، قال : فسلم فدنوت منه ، فقلت : إني أحبك في اللَّه تعالى ، قال : فمدّني إليه وقال : كيف قلت ؟ قلت : إني أحبك في اللَّه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **المتحابون في اللَّه على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله** »[(٢)] .

قال : فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت فذكرت حديث معاذ بن جبل فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يحكي عن ربه ـ عز وجل ـ يقول : « **حقت محبتي للمتحابين فيّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ ، وحقت محبتي للمتزاورين في ، والمتحابون في اللَّه علي منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله** »[(٣)] .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » ، وإسناده صحيح .
(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٢٣٧) .
(٣) مر تخريجه .

الفاروق يحب ألف أخ في اللّه :

قال محارب بن دثار : سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ يقول : « لقد أحببت في اللّه ـ عز وجل ـ ألف أخ كلهم أعرف اسمه ، واسم أبيه ، واسم قبيلته ، وأعرف مكان داره » .

وقال محارب : حيث قال : « أعرف مكان داره » علمت أنه كان يزورهم ويأتيهم[١] .

وقال عمر بن حَطَّان : أحببت ألف أخ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته ومكان داره[٢] .

قال أبو سليمان الداراني : قد يعملون بطاعة اللّه عز وجل ، ويتعاونون علىٰ أمره ، ولا يكونون إخوانًا حتىٰ يتزاوروا ويتباذلوا[٣] .

وقال معروف الكرخي : امش ميلاً صل جماعة ، امش ميلين صل جمعة ، امش ثلاثة أميال عده مريضًا ، امش أربعة أميال شيع جنازة ، امش خمسة أميال شيِّع حاجًّا أو مُعتمراً ، امش ستة أميال شيِّع غازيًا في سبيل اللّه ، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلىٰ رجل ، امش ثمانية أميال أصلح بين الناس ، امش تسعة أميال صِلْ رحمًا وقرابة ، امش عشرة أميال في حاجة عيالك ، امش أحد عشر ميلاً في معاونة أخيك ، امش بريداً ـ والبريد اثنا عشر ميلاً ـ زر أخًا في اللّه عز وجل !![٤] .

وكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه اللّه تعالىٰ ـ : (إذا بلغه عن شخص

---

(١) « كتاب الإخوان » لابن أبي الدنيا (ص١١٢) .
(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (٢/ ٢٩٩) .
(٣) « كتاب الإخوان » (ص١٢٧) .
(٤) « التبصرة » لابن الجوزي (٢/ ٣٠٠) .

صلاح أو زهد ، أو قيام بحق ، أو اتباع للأمر ، سأل عنه ، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة ، وأحب أن يعرف أحواله)[١] .

وانظر أخي إلى اتفاق القلوب على المودة :

قال مجاهد : مرَّ على عبد اللَّه بن عباس رجل فقال : إن هذا يحبني ، فقيل : أَنَّى علِمْتَ ذلك ؟ قال : إني أحبه . . .

قال عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل : « لَمَّا أُطلق أبي من المحنة ، خشي أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه ، فرحل أبي إليه ، فلما بلغ الريّ دخل إلى مسجد ، فجاء مطر كأفواه القرب ، فلما كانت العتمة قالوا له : اخرج من المسجد فإنا نريد أن نغلقه ، فقال لهم : هذا مسجد اللَّه وأنا عبد اللَّه ، فقيل له أيما أحب إليك أن تخرج أو نجرَّ برجلك ؟ قال أحمد : فقلت : سلامًا ، فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق فلا أدري أين أضع رجلي ، ولا أين أتوجه ، فإذا رجل قد خرج من داره فقال لي : يا هذا أين تمرُّ في هذا الوقت ؟ فقلت : لا أدري أين أمرُّ : فقال لي : ادخل ! فأدخلني دارًا ونزع ثيابي ، وأعطوني ثيابًا جافة وتطهرت للصلاة ، فدخلت إلى بيت فيه كانون فحم ولبود ومائدة منصوبة ، فقيل لي : كُلْ ، فأكلت معهم ، فقال لي : من أين أنت ؟ فقلت : أنا من بغداد فقال لي : تعرف رجلاً يُقال له أحمد ابن حنبل ؟ فقلت : أنا أحمد بن حنبل ، فقال لي : وأنا إسحق بن راهويه »[٢] .

وفي أحمد بن حنبل قال إسحاق : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام .

---

(١) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٢١٨) .

(٢) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٣٨٠) .

ولله در القائل :

قد يقطع الرحـــم القريب وتُكفر النعمـــاء ولا كتقـــارب القلبين
يُدْي الهوى هذا ويُدْي ذا الهـدى فإذا همـــا نفسٌ تـــرى نفسيْن[١]

تحفة النفس للنفس :

زيارة الأخ في الله هي تحفة النفس للنفس ، ليست مناخًا للبطَّالين الفارغين أو ملجأً للمتعطلين ، بل هي مجالس قدسية لا يطؤها المسرفون ، وأفضل الإخوان رجل مكنك من نفسه حتىٰ تزرع فيه خيراً ، فإنه نعم العون لك علىٰ كمالك .

قال أبو عبيد القاسم : « زرت أحمد بن حنبل في بيته ، فأجلسني في صدر داره وجلس دوني ، فقلت : يا أبا عبد الله ، أليس يقال : صاحب البيت أحق بصدر بيته ؟

فقال : نعم ! يقعد ويُقعد من يريد ، قال : فقلت في نفسي : خذ إليك يا أبا عبيد فائدة ، قال : ثم قلت له : يا أبا عبد الله ، لو كنت آتيك علىٰ نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم ، فقال : لا تقل ، إن لي إخوانًا لا ألقاهم إلا في كل سنة مرة أنا أوثق بمودتهم ممن ألقىٰ كل يوم .

قال : قلت : هذه أخرىٰ يا أبا عبيد ، فلما أردت القيام ، قام معي ، فقلت : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فقال : قال الشعبي : من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلىٰ باب الدار وتأخذ بركابه ، قال : فقلت : يا أبا عبيد هذه الثالثة ، قال : فمشىٰ معي إلىٰ باب الدار وأخذ بركابي »[٢] .

***

(١) « العقد الفريد » لابن عبد ربه (٢/ ٣١٩) .
(٢) « مناقب الإمام أحمد » (ص١١٣) .

يغسل رجل أخيه :

روىٰ الخطيب البغدادي في « تاريخه » عن النقاش أنه قال : « بلغني أن بعض أصحاب محمد بن غالب أبي جعفر المقرئ جاء في يوم وحل وطين، فقال له : كيف أشكر هاتين الرجلين اللتين تعبتا إليَّ في مثل هذا اليوم لتكسباني الثواب ؟ ثم قام بنفسه فاستقىٰ له الماء وغسل رجليْه!(١) .

حق الأخ على اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى :

أما السكوت ، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته ، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله .

وليسكن عن أسراره التي بثها إليه ، ولا يبثها إلىٰ غيره ألبتة ولا إلىٰ أخص أصدقائه ، ولا يكشف منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن .

قالوا : صدور الأحرار قبور الأسرار .

وقيل لرجل : كيف حفظك للسر ؟ قال : أستره وأستر أني أستره .

قال ابن المعتز :

ومستودعي سِـــرّا تبوَّأت كتمه ... فأودعته صـدري فصـــار له قبرا

وقال آخر :

والسِرُّ في صــــدري كثـاوٍ بقبره ... لأني أرى المقبـــور ينتظر النشرا
ولكنــي أنســـاه حتى كأننـــي ... بما كان منه لم أُحِطْ ساعة خُبرًا
ولو جاز كتم الســـرِّ بيني وبينه ... عن السر والأحشاء لم تعلم السرًّا

(١) « تاريخ بغداد » (٣/ ١٤٣).

وأفشى بعضهم سراً له إلى أخيه ثم قال له : حفظت ؟ فقال : بل نسيت .

قال أبو سعيد الثوري : إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ، ثم دسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيراً وكتم سرَّك فاصحبه .

ومن السكوت أن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بَلَّغَكَ ، وليعلم أن من طلب مُنَزَّها عن كل عيب اعتزل عن الخلق كافة ، ولن يجد من يصاحبه أصلاً ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ ، فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساوئ والعيوب .

قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات ، وقال الفضيل : الفتوة : العفو عن زلات الإخوان .

قال الشافعي - رحمه الله - : « ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه، ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل ، وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله ، فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضى أُخُوَّتك أولى .

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه : « **لا تحسَّسُوا ولا تجسَّسُوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً** » .

فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين ، ويكفيك تنبيهًا على كمال الرتبة في ستر القبيح ، وإظهار الجميل أن الله تعالى وُصف به في الدعاء قيل : يا مَنْ أظهر الجميل وستر القبيح ، والمرضيُّ عند الله من تخلَّق بأخلاقه فإنه ستَّار العيوب وغفَّار الذنوب ومتجاوز عن العبيد ،

فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك .

كيف تصنع إذا رأيت أخاك نائمًا وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ أتستره وتغطيه ؟ أم تكشف عورته ؟ فما بالك تسمع الكلمة في أخيك فتزيد عليها وتسيغها بأعظم منها فالأخ من يعلم منك ما يعلم اللَّه ، ثم يستر عليك كما يستره اللَّه .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] .

وأقل درجات الأُخُوَّة أن تعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، ولا شك أنك تنتظر منه ستر العورة والسكوت عن المساوئ والعيوب ، ولو ظهر لك منه نقيض ما تنتظره اشتد عليه غيظك وغضبك ، فما أبعدك إذا كنت تنتظر منه ما لا تضمره له ولا تعزم عليه لأجله ، وويل لك في نص كتاب اللَّه حيث قال : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾[2] .

وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية ، واصحب من كل صدق الأخوة ثابتًا عنده على اختلاف الأحوال عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه ، وللَّه در القائل :

وترى الكريم إذا تصرَّم وصلُه ... يخفي القبيح ويظهر الإحسانَ
وترى اللئيم إذا تقضَّى وصلُه ... يخفي الجميل ويظهر البهتانا

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أنس .
(٢) سورة المطففين الآيات (١ : ٣) .

السكوت عن مماراته وجداله :

فالمماراة والمنافسة عين التدابر والتقاطع ، فإن التقاطع يقع أولاً بالآراء ، ثم بالأقوال ، ثم بالأبدان ، وقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد اللَّه إخوانًا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله ، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »(١) ، وأشد الاحتقار المماراة .

وقال بعض السلف : من لاحىٰ الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته .

وقال عبد اللَّه بن الحسن : إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم .

وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصَّر في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

وعلىٰ الجملة ، فلا باعث علىٰ المماراة إلا إظهار التميز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه باظهار جهله ، وهذا يشتمل علىٰ التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحق والجهل ، ولا معنىٰ للمعاداة إلا هذا ، فكيف تضامنه الإخوه والمصافاة ؟ »(٢) .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه** »(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس .
(٢) « الإحياء » (٢/ ١٩٥-١٩٦) .
(٣) حسن : رواه أبو داود ، والضياء في « المختارة » عن أبي أمامة ، وحسنَّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٤٦٤) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه ، إلا أُوتوا الجدل**»[١] .

وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حدٍّ لم يروا السؤال أصلاً ، وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه ، بل قالوا : ينبغي أن يقوم ولا يسأل .

وقال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول : أعطني من مالك شيئًا ، فكان يلقي إليَّ كيسه فآخذ منه ما أريد ، فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء ، فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي .

وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالاً ، فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء .

واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل .

قال أبو عثمان الحيري : « موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم »[٢] .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق بالمحاب :

« **بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور** »[٣] .

فمن ذلك : « أن يتودد إليه بلسانه ، ويتفقده في أحواله التي يجب أن يُتفقد فيها ، وكذا جملة أحواله التي يكرهها بلسانه وأفعاله ينبغي أن يظهر كراهتها ، وجملة أحواله التي يُسرُّ بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها ، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء .

(١) حسن : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٣٣) ، و« المشكاة » (١٨٠) ، و« صحيح الترغيب » رقم (١٣٧) .
(٢) « الإحياء » (٢/ ١٩٦) .
(٣) « الإحياء » (٢/ ١٩٦) .

• ومن ذلك أن يخبره بمحبته له :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه فليُعْلِمْه أنه يحبه** »[١] .

وقال ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه في اللَّه فليعلمه ، فإنه أبقى في الأُلفة ، وأثبت في المودة** »[٢] .

وقال ﷺ : « **إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله ، فليخبره أنه يحبه للَّه**»[٣] ، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب ، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف .

• ومن ذلك أن يدعوه بأحب الأسماء إليه في غيبته وحضوره :

قال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسِّع له في المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليه .

• ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده :

فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح ، فإن إخفاء ذلك محض الحسد .

• ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك ، بل على نيَّته وإن لم يتم ذلك :

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة .

---

(١) سبق تخريجه ، وهو صحيح .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » عن مجاهد مرسلاً ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١١٩٩) ، و« صحيح الجامع » رقم (٢٨٠) .

(٣) سبق تخريجه .

• وأعظم من ذلك الذب عنه في غيبته مهما قُصد بسوء أو تُعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض :

فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة ، وتبكيت المتعنِّت وتغليظ القول عليه وقد قال رسول اللَّه ﷺ : «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، وعرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا ـ وأشار إلى القلب ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »[١] .

وهذا من الانثلام والخذلان ، فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله تمزيق لحمه .

فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحمك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفاع عنك ! وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبَّهه اللَّه تعالى بأكل لحوم الميتة فقال : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا** ﴾[٢] ا . هـ . من « إحياء علوم الدين » .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من ذب عن عرض أخيه بالغيبة ، كان حقًا على اللَّه أن يعتقه من النار** »[٣] .

وقال ﷺ : « **من رد عن عرض أخيه ، كان له حجابًا من النار** »[٤] .

وقال ﷺ : «**من رد عن عرض أخيه،رد اللَّه عن وجهه النار يوم القيامة** »[٥] .

---

(١) رواه البخاري « صحيح الجامع » .

(٢) سورة الحجرات الآية (١٢) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » عن أسماء بنت يزيد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٤٠) ، و« غاية المرام » (٤٣١) .

(٤) صحيح : رواه البيهقي في « سننه » عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في « غاية المرام » رقم (٤٣١) ، وصححه في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٦٣) .

(٥) صحيح : رواه أحمد والترمذي عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٦٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من نصر أخاه بالغيب ، نصره اللّه في الدنيا والآخرة** »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موطن يُنتقص فيه من عرضه ، ويُنتهك فيه من حرمته ، إلاخذله اللّه تعالى في موطن يحب فيه نصرته ، وما من أحد ينصر مسلمًا يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته ، إلا نصره اللّه في موطن يحب فيه نصرته** »[٢] .

- **ومن حق الأخ ألا ترفع صوتك عليه ولا تخاطبه إلا بما يفقه :**
- **التعليم والنصيحة :**

فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، فإن كنت غنيًا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا وعليك بنصحه ، وإن استنصحك فاجتهد في ذلك .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن الدين النصيحة للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنما الدين النصح** »[٤] ، وقال رسول اللَّه ﷺ :

---

(١) حسن : رواه البيهقي في « السنن » ، والضياء عن أنس ؛ وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٧٤) .

(٢) حسن : رواه أحمد وأبو داود ، والضياء في « المختارة » عن جابر وأبي طلحة بن سهل ، ورواه الطبراني في « الأوسط » عن جابر وأبي أيوب الأنصاري وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٦٩٠) .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري ، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة ، وأحمد عن ابن عباس .

(٤) صحيح : رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٣٢٤) .

« **الدين النصيحة** »[1] ، وقال رسول اللَّه ﷺ : « « **المستشار مؤتمن** »[2] ، وينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطَّلع عليه أحد ، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة ، إذ قال رسول اللَّه ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن** »[3] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكُفُّ عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه** »[4] .

وقال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ : « من وعظ أخاه سراً فقط نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » .

قال ذو النون : « ألا تصحب مع اللَّه إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة» .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات :

وهفوة الصديق لا تخلوا إما :

ـ أن تكون في دينه بارتكاب معصية .

ـ أو في حقك بتقصيره في الأخوة .

---

(١) صحيح : رواه البخاري في « التاريخ » عن ثوبان ، والبزار عن ابن عمر ، وابن نصر عن أبي عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٤١٧) .

(٢) رواه أصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة ، والترمذي عن أم سلمة ، وابن ماجه عن ابن مسعود ، والبخاري في « الأدب » والطحاوي والبيهقي في « الشعب » عن أبي هريرة ، وأحمد والدارمي وابن حبان عن أبي مسعود الأنصاري وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٦٤١) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » ، والضياء عن أنس ، وهو في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٣١) .

(٤) حسن : رواه البخاري في « الأدب » ، وأبو داود في « سننه » عن أبي هريرة ، وابن وهب في «الجامع» ، هو في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٣٢) .

أما ما يكون في الدين ـ :

من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ، ويعيد إلىٰ الصلاح والورع حاله ، فإن لم تقدر وبقي مصرّا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته :

١ ـ فذهب أبو ذر ـ رضي اللّٰه عنه ـ إلىٰ الانقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته ، ورأىٰ ذلك من مقتضىٰ الحب في اللّٰه والبغض في اللّٰه وهذا هو أحد المعنيين في قوله ﷺ : «**اجتمعا عليه وتفرقا عليه**» ، أي أنه إذا أحدث أحدهما ما لا يرضي اللّٰه فارقه الآخر ، فإذا عاد إلىٰ اللّٰه وإلىٰ ما يرضي اللّٰه عاد إليه ، فيكون حب اللّٰه هو العلة ، يدور معها ترابطهم وجوداً وعدمًا .

٢ ـ وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلىٰ خلافه ، فقال أبو الدرداء : إذا تغيَّر أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوَّج مرة ويستقيم أخرىٰ .

وقال إبراهيم النخعي : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً .

حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة ، فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ؟ فقال : أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلىٰ ما كان عليه .

وطريقة أبي ذر أحسن وأسلم وطريقة أبي الدرداء ألطف وأفقه :

أما كونها ألطف فلما فيها من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلىٰ

الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع عن الصحبة أصر واستمر .

وأما كونها أفقه فمن حيث أن الأخوة عقد ينزل منزل القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشدُّ من فقر المال ، فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من أشد النوائب .

والقريب ينبغي أن لا يهجر من أجل معصيته ، حتى يُقام له بواجب النصيحة ، وذلك لأجل قرابته ، قال اللَّه تعالى لنبيه في عشيرته : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[1] ، ولم يقل إني برئ منكم ، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب ، ولهذا أشار أبو الدرداء لما قيل : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي ، وأخوة الدين أوكد من إخوة القرابة .

وكذلك التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان ، كما أن مقارفة العصيان من محابه ، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، « انتهى ملخصاً من إحياء علوم الدين » .

ـ أما هفواته وتقصيره في حقك ـ :

فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه ، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء ، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة ، فالعتاب في السر خير من القطيعة ، والتعريض به خير من التصريح ، والمكاتبة خير من المشافهة ، والاحتمال خير من الكل .

بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصوَّر تمهيد عذر فيه قريب

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢١٦) .

أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرًا ، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذر فلا تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك .

قال الشافعي : « من استرضي فلم يرضي فهو شيطان » ، فاسترضي قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانًا إن لم تقبل .

قال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثًا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة .

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقد قيل :

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر

فالعمر أقصر من معا تبه الخليل على الغِيَر

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبًا كان أو صادقًا فاقبل عذره .

نعم . . . إنه لا مُبَّرأ من سهو وزلل ، ولا سليم من نقص أو خلل ، ومَنَ رام سليمًا من هفوة ، والتمس بريئًا من نُبوة ، فقد تعدىٰ علىٰ الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه ، وكان من وجود بغيه بعيدًا ، وصار باقتراحه فردًا وحيدًا .

وقد قالت الحكماء : « لا صديق لمن أراد صديقًا لا عيب فيه » .

وقيل لأحدهم : هل من أحد لا عيب فيه ؟ قال : من لا موت له .

وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم : حسن المحضر ، واحتمال الزلة ، وقلة الملال ، قال ابن الرومي :

فعذرك مبسوطٌ لذنب مقدّم وودك مقبولٌ بأهل ومرْحبِ

ولو بَلَّغَتْني عنك أذني أقمتُها — لدىَّ مقام الكاشح [(١)] المتكذِّبِ
فلستُ بتقليب اللسان مصارمًا — خليلاً إذا ما القلب لم يتقلَّب

وإذا كان الإغضاء حتمًا ، والصفح كرمًا ، ترتَّب بحسب الهفوة وتنزَّل بقدر الذنب ، والهفوات نوعان : صغائر وكبائر :

فالصغائر : مغفورة ، والنفوس بها معذورة ، فالعتب مستقبح .

وأما الكبائر فنوعان :

الأول : أن يهفو بها خاطئا ، ويزل بها ساهيًا ، فالحرج فيها مرفوع ، والعتب عليها موضوع ، لأن هفوة الخاطئ هدر ، ولومه هذر .

قال بعض الحكماء : لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه .

والثاني : أن يعتمد ما اجترم من كبائره ، ويقصد ما اجترح من سيئاته فهذا الأخ الذي استحدث نَبْوة وتغيُّرًا ، واستجدَّ جفوة وتذكرًا ، وأبدىٰ صفحة عقوقه ، واطَّرح لازم حقوقه ، وعدل عن بر الإخاء إلىٰ جفوة الأعداء لا تقابله علىٰ الجفوة ، ولا تعاقبه علىٰ الهفوة ، ولا تقابل العقوق بالعقوق ، لا بالفضل أخذت ولا إلىٰ العفو أخلدت ، وقد علمت أن نفسك قد تطغىٰ عليك فترديك ، وأن جسمك قد يسقم عليك فيؤلمك ويؤذيك وهما أخص بك وأحنىٰ عليك من غيرك من صديق قد تميز بذاته ، وانفصل بأدواته ، فتريد من غيرك لنفسك ما لا تجده من نفسك لنفسك ، وهذا عين المحال ومحض الجهل ، فلا تتخذ عدوًا واحدًا والواحد كثير ، واتخذ ألف صديق والألف قليل ، واعلم أن العفو والعقوبة بمنزلة الجود والبخل ، فتمسك بأيهما شئت .

فإذا كان الأمر علىٰ ما وصفت ، فمن حقوق الصفح : الكشف عن

---

(١) العدو البغيض .

سبب الهفوة ، ليعرف الداء فيعالجه ، ولا يخلوا حال السبب من أن يكون لملل أو زلل ، فإن كان لملل ، فمودات المَلول ظل الغمام ، وحلم النيام ، وإن كان لسبب لُوحظت أسبابه ، فإن كان لها مدخل في التأويل ، وشبهة تؤول إلىٰ جميل ، حمله علىٰ أجمل تأويل ، وصرفه إلىٰ أحسن جهة .

مر علىٰ خالد بن صفوان صديقان له ، فعرَّج عليه أحدهما ، وطواه الآخر ، فقيل له في ذلك ، فقال : نعم ، عرَّج علينا هذا بفضله ، وطوانا هذا بثقته بنا .

فإن لم يكن للزلل في التأويل مدخل ، نظر حاله بعد الزلل ، فإن ظهر ندمه ، وبان خجله، فالندم توبة ، والخجل إنابة ، ولا ذنب لتائب ، ولا لوم علىٰ منيب ، ولا يُكَلَّفُ عذراً عما سلف ، فيلجأ إلىٰ ذل التحريف ، أو خجل التعنيف ، وشفيع المذنب إقراره ، وتوبته اعتذاره ، ومن لم يتقبل التوبة عظمت خطيئته ، ومن لم يحسن إلىٰ التائب قبحت إساءته ، والكريم من أوسع بالمغفرة ، إذا ضاقت بالذنب المعذرة ، وإن عجَّل العذر قبل توبته، وقدم التنصل قبل إنابته ، فالعذر توبة ، والتنصل إنابة ، فلا يكشف عن باطن عذره ، ولا يُعَنَّفُ بظاهر عذره ، وشافع المذنب خضوعه إلىٰ عذره .

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن برَّ عندك فيما قال أو فَجَرَا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلَّك من يعصيك مستترا

وإن ترك نفسه في الزلل ، ولم يتداركه بعذره وتنصله ، فلا ينفعك حاله عن أمور ثلاث :

أحدها : أن يكون قد كف عن سيئ عمله ، وأقلع عن سالف الزلل ، فالكف إحدىٰ التوبتين ، والإقلاع أحد العذرين ، فكن أنت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك ، فقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ :

المحسن على المسيء أمير .

الثاني : أن يكون قد وقف على ما أسلف من الزلل ، غير تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البرأين ، وكفه عن الزيادة إحدى الحسنيين ، صلاح شطره الآخر ، وإياك وإرجاءه ، فإن الإرجاء يفسد شطره صلاحه ، والتلافي يصلح شطر فساده .

الثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام ، فهذا هو الداء العضال ، فإن أمكن استدراكه ، وتأنّي استصلاحه ، وذلك باستنزاله عنه إنْ علا ، وبإرغابه إنْ دنا ، وبعتابه إن ساوى فذاك ، وإلا فآخر الداء العياء الكيّ ومَنْ بلغَت به الأعذار إلى غايتها ، فلا لائمة عليه .

الحق السادس : الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته :

« الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعوا لنفسك ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات ، كتب اللَّه له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة** »[1] .

وقال ﷺ : « **دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يُرَدّ** »[2] .

وقال ﷺ : « **دعاء المرء المسلم مستجاب لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه مَلَكٌ مُوَكّلٌ به ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك : آمين ، ولك بمثل ذلك** »[3] .

---

(١) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » عن عبادة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٢٦) وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢١٠) : وإسناده جيد .

(٢) صحيح : رواه البزار عن عمران بن حصين ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم(١٣٣٩)، و« صحيح الجامع » رقم (٣٣٧٩) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم وابن ماجه عن أبي الدرداء .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **دعوة الرجل لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، وملك عند رأسه يقول : آمين ولك بمثل ذلك** »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب ، إلا قال الملك : ولك بمثل** »[٢] .

وقال ﷺ : « **من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله** »[٣] .

وكان أبو الدرداء ـ رضي اللَّه عنه ـ يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم[٤] .

وكان الإمام يحيىٰ بن سعيد القطان يدعو لألف إنسان كل يوم .

وقال القاضي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي : قال لي أحمد بن حنبل : أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم سحراً[٥] .

وروىٰ الخطيب البغدادي في ترجمة الطيب إسماعيل أبي حمدون أحد القراء المشهورين قال : « كان لأبي حمدون صحيفة فيها مكتوب ثلاثمائة من أصدقائه ، وكان يدعو لهم كل ليلة ، فتركهم ليلة فنام ، فقيل له في نومه : يا أبا حمدون : لِمَ لْم تسرج مصابيحك الليلة ، قال : فقعد فأسرج ، وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتىٰ فرغ »[٦] .

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : « وأين مثل الأخ الصالح ؟

---

(١) صحيح : رواه أبو بكر في « الغيلانيات » عن أم كرز ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٣٨٢) .

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٤٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة .

(٣) رواه مسلم ، وأبو داود عن أبي الدرداء .

(٤) « الإحياء » (٢/ ٢٠٢) .

(٥) « السير » (١١/ ٢٢٧) .

(٦) « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٦١) .

أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون مما خلفت ، وهو منفرد بحزنك ، مهتم مما قدمت وما صرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرىٰ »[١] ، نعم يدعو لك وأنت بين أطباق الثرىٰ ويدخل من دعائه علىٰ قبرك من الأنوار مثل الجبال .

حقوق الأخوة في القلب :

من حق الأخ علىٰ أخيه في اللَّه عز وجل الوفاء والإخلاص في محبته ، وحسن الظن به ، والتواضع لإخوانه ، ويسيء الظن بنفسه .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص :

ومعنىٰ الوفاء : الثبات علىٰ الحب وإدامته إلىٰ الموت معه ، وبعد الموت ، ومع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، وقال بعضهم ، قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة .

ومن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل علىٰ الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلىٰ كل من يتعلق به ، حتىٰ الكلب الذي علىٰ باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب .

ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين علىٰ بر كما يحسد متواخيين في اللَّه ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما »[٢] .

---

(١) « الإحياء » (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .

(٢) « الإحياء » (٢/ ٢٠٣) .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما تواد اثنان في اللَّه فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما** »[١] .

قال بشر الحافي : إذا قصر العبد في طاعة اللَّه سلبه اللَّه من يؤنسه .

وقال ابن المبارك : ألذ الأشياء مجالسة الإخوان .

ومن ثمرات المودة في اللَّه أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا ، وكيف يحسده وكلٌّ ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته .

ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه ، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم ، قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء أنت تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها ... سِوى فرقة الأحباب هيِّنةَ الخَطْبِ

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يُخَيَّلُ إلي أن حسرتهم ذهبت من قلبي .

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه .

ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه .

قال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك .

---

(١) صحيح : رواه البخاري في « الأدب المفرد » عن أنس ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٦٣٧) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٦٠٣) .

من تمام الوفاء النصح للَّه :

قال الغزالي : « اعلم أن ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعي ـ رضي اللَّه عنه ـ آخىٰ محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول : ما يقيمني بمصر غيره ، فاعتلَّ محمد فعاده الشافعي ـ رحمه اللَّه تعالىٰ ـ فقال :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني فبرئت من نظري إليه

فظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوِّض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها ـ رضي اللَّه تعالىٰ عنه ـ : إلىٰ من نجلسُ بعدك يا أبا عبد اللَّه ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم ـ وهوعند رأسه ـ ليومي إليه ، فقال الشافعي : سبحان اللَّه أيُشَكُّ في هذا ؟ أبو يعقوب البويطي ؟ فانكسر لها محمد ، ومال أصحابه إلىٰ البويطي مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلىٰ الزهد والورع ، فنصح الشافعي للَّه وللمسلمين ، وترك المداهنة ، ولم يُؤثر رضا الخلق علىٰ رضا اللَّه تعالىٰ ، فلم توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ، ورجع إلىٰ مذهب أبيه ودرس كتاب مالك ـ رحمه اللَّه ـ وهو من كبار أصحاب مالك ـ رحمه اللَّه ـ وآثر البويطي الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة ، واشتغل بالعبادة ، فصنف كتاب« الأم » الذي يُنسَبُ الآن إلىٰ الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنَّفه البويطي ، ولكن لم يذكر نفسه فيه ، ولم ينسبه إلىٰ نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرَّف وأظهر ، والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح للَّه »[1] .

---

(١) « الإحياء » (٢/ ٢٠٤) .

حسن الظن بأخيه :

قال اللَّه عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾[١] .

وقال النبي ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث** »[٢] .

كما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئ أخيك ، فكذاك يجب عليك السكوت بقلبك ، وذلك بترك إساءة الظن ، فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضًا ، وحَدُّهُ أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكنك أن تحمله على سهو ونسيان إن أمكن .

قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ : « ولاتظنَنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً » .

لقد نظر عبد اللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ يومًا إلى الكعبة فقال : «ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والمؤمن أعظم حرمة منك » ، نعم . . . والمؤمن أعظم حرمة منك وأن يظن به إلا خيراً . . .

قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً ، فوهبت له شيئًا بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزل ، فخلوت به يومًا وقلت له : ضع رجلك على خدي فأبى ، فقلت له : لابد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنتُ أجد في باطني .

قال الرقي : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية[٣] .

قال الربيع بن سليمان : « دخلت على الشافعي وهو

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٢) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود .

(٣) « لطائف المعارف » للسهرودي (ص٢٨٣) .

مريـض ، فقلت له : قوّىٰ اللَّه ضعفـك ، فقال : لو قوّىٰ ضعفـي قتلني ، فقلت : واللَّه ما أردت إلا الخيـر ، قال : أعلـم أنك لو شتمتـني لم تُـرد إلا الخير »[1] .

التواضع لإخوانه ، وإساءة الظن بنفسه :

ومن حقوق الأخوة القلبية أن يتواضع لإخوانه ، ويسيء الظن بنفسه ، فإذا رآهم خيراً من نفسه ، يكون هو خيراً منهم .

قال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خيراً مني ، قيل : وكيف ذلك؟ قال : كلهم يرىٰ لي الفضل عليه ، ومن فضّلني علىٰ نفسه فهو خيراً مني ، ومهما رأي الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه ، وهذا في عموم المسلمين مذموم .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »[2] .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف :

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، ويرفهه عن أن يحّمله شيئاً من أعبائه وتمام التخفيف بطيّ بساط التكليف حتىٰ لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه .

قال الجنيد : ما تواخىٰ اثنان في اللَّه فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلاّ لعلَّة في أحدهما .

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلي مداراة وألجأك إلىٰ اعتذار .

---

(١) « مناقب الشافعي » للرازي (ص٢٧٤) .

(٢) جزء من حديث صحيح .

وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف ، يزور أحدهما أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه ، وقالوا : من سقطت كُلفته دامت أُلفته ومن خفَّت مُؤنته دامت مودته .

قال جعفر الصادق ـ رحمه اللَّه ـ : أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحفظ منه ، وأخفُّهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي .

وقال آخر : لا تصحب إلاَّ من يتوب عنك إذا أذنبت ، ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه ، وهذا منتهى الكمال وهو نادر وقليل ، فعلى المرء أن يقوم بهذه الشروط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مؤاخيًا في اللَّه وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط .

حقوق أخرى على الجوارح :

١ ـ البصر :

فحق الإخوان على البصر : أن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك ، وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك .

٢ ـ السمع :

وأما السمع فبأن تسمع كلامه متلذذًا بسماعه ومصدقًا به ومظهرًا للاستبشار به ، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرارة ولا منازعة ومداخلة واعتراض ، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون .

٣ ـ اليدان :

وأما اليدان : فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد .

٤ ـ الرجلان :

وأما الرجلان : فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين ، ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ، ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ، ويقوم لهم إذا أقبلوا ، ولا يقعد إلا بقعودهم ، ويقعد متواضعًا حيث يقعد.

ومهما تم الاتحاد خفَّ حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة ، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف ، فإذا تم الاتحاد انطوىٰ بساط التكلفة بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه ، لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب .

ومهما صفت القلوب استغنىٰ عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلىٰ صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلىٰ الخالق لزم الاستقامة ظاهرًا وباطنًا ، وزين باطنه بالحب للَّه ولخلقه ، وزين ظاهره بالعبادة للَّه والخدمة لعباده فإنها أعلىٰ أنواع الخدمة للَّه ، إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويُدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة»[1] .

مواقف أغرب من الخيال :

قال أبو إياس : إذا اصطحب الرجلان فتقدم أحدهما ، فقد أساء الصحبة .

وقال عبد اللَّه بن قيس : من حق الصاحب علىٰ الصاحب ، إذا بالت دابته أن يقف له .

وقال محمد بن مناذر : كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شِسْعي ، فخلع نعله ، فقلت : ما تصنع ؟ قال : أواسيك في الحفاء .

(١) « إحياء علوم الدين » بتصرف (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) .

وقال بكر بن عبد اللَّه : إذا كنت مع صاحب لك فتخلف ببول فلم تقم عليه حتىٰ يقضي بوله ، فلست له بصاحب ، وإذا انقطع شسعه فقام يصلحه ، فلم تقم عليه ، فلست له بصاحب .

فداء الأخ بالنفس :

إذا صح الودُّ ، وقع فداء الأخ بالنفس :

« عن محمد بن داود قال : سمعت أبا بكر القرطبي ، وأبا عمرو الآدمي يقولان : ـ وكانا يتآخيان في اللَّه تعالىٰ ـ خرجنا من بغداد نريد الكوفة ، فلما سرنا في بعض الطريق ، إذا نحن بسبعْين رابضين علىٰ الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرو أنا أكبر منك سنًا فدعني أتقدمك ، فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك ، وجزت أنت ، فقال له أبو عمرو : نفسي ما تسامحني بهذا ، ولكن نكون جميعًا في مكان واحد ، فإن كانت حادثة كنا جميعًا ، فجازا جميعًا بين السبعين ، فلم يتحركًا ومرًّا سالمين »[١] .

أستاذ الأستاذين إبراهيم بن أدهم :

« خرج إبراهيم بن أدهم ـ رحمه اللَّه ـ في سفر ومعه ثلاثة نفر ، فدخلوا مسجدًا في بعض المفاوز ، والبرد شديد ، وليس للمسجد باب ، فلما ناموا قام إبراهيم ، فوقف علىٰ الباب إلىٰ الصباح ، فقيل له : لِمَ لمْ تنم ؟ فقال : خشيت أن يصيبكم البرد ، فقمت مقام الباب »[٢] .

يا مَنْ تنهش في أحشائي
يا مَنْ منِّي .. يا مَن جزءًا من أجزائي
يا مَنْ تبدو للجُهّال كأنك دائي

(١) « التبصرة » (٢/ ٣٠٢ـ٣٠٣) .
(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (٢/ ٣٠١ـ٣٠٢) .

إني أعلم أنك حتماً فيك شفائي
إنك مني ... أنت كأني لست أرائي
إنك مسلم تشهد أن إلهك واحد
إنك فيها من شركائي
إنك مني ... أنت كأني حين شقائي
حين جهلت طريق إلهي
من عند الألف إلى الياءِ
حين تصوّرتَ الدنيا
حِسّي وغذائي وكسائي
لكنك دوماً تطعنني.. من خلفي ومن كعب حذائي
حين أراك تقوم بهذا
يُغرقني خجلي وحيائي
ووشاة القوم إذا بانوا
تسري الطعنة في أحشائي
ابغ العزة عند إلهك ... ليس العز دمي وبكائي
وغداً من قواك يميتك ... إن أنت أهملت ندائي
يا من تنهش في أحشائي ... يا أنا

للّه در إبراهيم التيمى :

للَّه در الإمام القدوة عابد الكوفة أبو أسماء إبراهيم التيمي وخبره :

قال ابن سعد : أخبرنا علي بن محمد قال : ظلب الحجاج إبراهيم

النخعي ، فجاء الرسول فقال: أريد إبراهيم ، فقال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، ولم يستحلّ أن يدله على النخعي ، فأمر بحبسه في الديماس ، ولم يكن لهم ظل من الشمس ، ولا كِنّ من البرد ، وكان كل اثنين في سلسلة ، فتغير إبراهيم ، فعادته أمه ، فلم تعرفه ، حتى كلمها ، فمات ، فرأى الحجاج في نومه قائلاً يقول : مات في البلد الليلة رجل من أهل الجنة، فسأل ، فقالوا : مات في السجن إبراهيم التيمي ، فقال : حُلْم نزغَة من نزغات الشيطان ، وأمر به فأُلقي على الكُناسة(١) .

حقوق عامة للمسلمين وهي أيضاً للأخ :

هناك حقوق عامة للمسلمين عامة ، وهي نائلة الأخ في اللَّه خاصة منها :

١ ـ من حقوق الأخوة السلام وردّه :

ورد السلام واجب ، والسلام من تحيات الملائكة والأنبياء وشعار أهل الجنة وباب للمحبة ، وقد سئل رسول اللَّه ﷺ أي العمل خير قال : « **تُطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف** »(٢) ،قال رسول اللَّه ﷺ : «**إن أولى الناس باللَّه من بدأهم بالسلام** »(٣) .

وقال عمار بن ياسر : « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك والسلام على العالم ، والإنفاق من الإقتار » ، رواه البخاري .

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ،**

---

(١) « السير » (٥/ ٦٢) ، و« الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٦/ ٢٨٥) .

(٢) رواه البخاري .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وهو في « صحيح الجامع » رقم (٢٠١١) .

ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[١] .

قال النووي : « والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح لاستجلاب المحبة والمودة »[٢] .

ومن الحقوق العامة لكل مسلم :

قول نبينا ﷺ : « **حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد اللّه فشمته ، وإذا مرض فعُدْه ، وإذا مات فاتبعه** »[٣] .

● « وفي بيان حرمة المسلم ، وما لايجوز للمسلم أن يقع فيه مع سائر المسلمين يقول رسول اللّه ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، وولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد اللّه إخوانًا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا... ويشير إلي صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله** »[٤] .

فهذه الحقوق العامة ، وهذه الحرمة المؤكدة للمال والعرض والدم ، ثابتة بعقد الإسلام وهي تزداد تأكدًا وتوثقًا في حق الإخوان »[٥] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) « شرح مسلم » للنووي (١/ ٧٤) طبع الحلبي .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو داود بلفظ خمس ، وليس فيه « وإذا استنصحك فانصح له » .

(٤) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود .

(٥) « الحب في اللّه وحقوق الإخوة » للشيخ أحمد فريد (ص٢٦ ـ ٢٧) .

حب القلوب وتآلفها نعمة بيد اللَّه :

اعلم يا أخي أن : « الحب والبغض أمور لا قدرة للعبد في تحصيلها ولا دفعها لأنها أعمال القلوب ، والقلوب بيد اللَّه ، والتآلف بينها بنعمة من اللَّه .

قال تعالىٰ : ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾[١] .

ولكن اللَّه تعالىٰ جبل القلوب علىٰ محبة مَن يُحسن إليها والرسول ﷺ بيّن المقدمات والأسباب التي تُبنىٰ المحبة عليها وتنشأ عنها . . .

● فاثنان تحابا في اللَّه ، أي بذل كل منهما موجبات الحب للآخر ، لا لشيء إلا لوجه اللَّه .

ومن هذا أيضًا ، انطباع نفس المؤمن علىٰ محبة من يستقيم علىٰ أمر اللَّه ، وعليه ، فإن الحث في هذا الحديث علىٰ هذا الجانب الذي في مقدور الإنسان أن يفعله »[٢] .

تحابا في اللَّه :

يدل علىٰ المشاركة ، ومبادلة كل منهما صاحبه الحب في اللَّه تعالىٰ ، وهو أخص من قوله ﷺ : « **وأن يحب المرء لا يحبه إلا للّه** » ، لأن هذا حبّ من جانب واحد ، وقد لا يكون المحبوب عالمًا بمحبة الآخر له ، أمّا هنا فكل منهما محب ، ومحبوب ، وقد قال الحافظ في « الفتح » : « معناه أحب كل منهما الآخر حقيقة ، وقال كل منهما للآخر : إني أحبك في اللَّه ، فصدرًا علىٰ ذلك » .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٣) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٢٥) .

• والمحبة في اللَّه ليست لها دوافع مادية ، وإنما دافعها العامل المشترك بينهما وهو محبة كل منهما للَّه أولاً ، ثم محبته صاحبه لحبه للَّه ثانيًا ، ومحبة اللَّه دائمة بدوام اللَّه مالم يطرأ عليها ما يغيرّها ، ولا يكون إلاّ في معصية اللَّه .

محبة اللَّه أولا : وإذا كان التحاب في اللَّه لا في شيء آخر ، فهذا لا يكون إلا بعد أن يحب كل منهما اللَّه تعالىٰ ، أي أن حب اللَّه أولاً ، ثم حب العبد لمحبته للَّه ، فمحبته اللَّه هي الأولىٰ ، ومنها محبة العبد لا يحبه إلا للَّه ، وهذا إنما هو لمحبته للَّه[١] .

رجلان تحابا في اللَّه ... خرج مخرج الغالب لا الحصر :

« قوله ﷺ : « ورجلان » ظاهره اختصاص الرجال ، وكذلك بالعدد المذكور ، ولكن لا مانع من إرادة النساء إذا صحّ منهن ذلك ، أو الرجل والمرأة من ذوي المحارم ، أو غير المحارم إذا وُجد بينهما هذا الحب في اللَّه ، لحسن دينه وفضله وصلاحه ، لا لغرض من الأغراض .

وكذلك بين الزوجين الصالحين ، وكذلك لا مفهوم للعدد لأن جماعة الرجال إذا تعاهدوا علىٰ ذلك والتزموا به وأحب كل واحد مجموعهم فيما بينهم .

ولكن حيث جاء النص علىٰ الرجال لابد أن يكون للرجل فضل اختصاص ، لأن تحاب المرأتين قد يكون ألجأهما ضعف كل منهما للأخرىٰ .

• كما أن تحاب الرجل مع المرأة ولوْ من ذوي الرحم فقد يكون لاستغلال الرجل ضعف المرأة وإحساس المرأة بحاجتها إلىٰ مَن تأوي إليه ،

---

(١) انظر : كتابنا في المحبة « موارد الظمآن في محبة الرحمن » .

وتكون تحت قوامته ، ونحو ذلك مما يشوب هذا الحب في اللَّه .

فبقي وصف الرجلين لأن الغالب بحسب تساويهما واكتفاء كل منهما يجعل لجنسهما مزيد اختصاص .

وقد يستشهد للعموم بقوله ﷺ : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه** » الحديث .

فلفظة (مَن) للعموم تشمل الرجل والمرأة ولا تقتصر على جنس دون جنس ، فعُلِم أن قوله ﷺ : « **ورجلان** » خرج مخرج الغالب »[1] .

من رياض المتحابين :

• محبة خليل الرحمن عليه السلام لهذه الأمة ووصيته الغالية لها:

عن ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **لقيت إبراهيم ليلة أسرى بي ، فقال : يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان اللَّه، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر** »[2] .

فهذه وصية غالية من أب غالٍ وحبيب إلى هذه الأمة ومحب لها غاية الحب ، فهل حفظناها أم ضيّعناها .

حب الكليم موسى عليه السلام لنبينا ﷺ وشفقته على هذه الأمة :

يظهر هذا جليًا في حديث الإسراء : « ... **ثم فُرض عليّ خمسون صلاة**

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٢١) .

(٢) حسن : رواه الترمذي ، وقال حديث حسن غريب ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٠٥) و« صحيح الجامع » رقم (٥١٥٢) .

كل يوم ، فرجعت ، فمررت علي موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لاتستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عني عشراً ، فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أُمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لاتستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جرّبت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، قلت : سألت حتى استحييت منه ، ولكن أرضى وأسلّم ، فلما جاوزت ناداني منادٍ ، أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي » .

وفي هذا الحديث يظهر جليًا حب نبي اللّه موسى عليه السلام لنبينا ﷺ وشفقته على هذه الأمة .

صورة من المحبة ما مثلها صورة : محبة الرسول ﷺ والصديق ـ رضي اللّه عنه ـ :

المحبة والأخوة التي نشأت بين رسول اللّه ﷺ وبين صدّيق هـذه الأمة ـ رضي اللّه عنه ـ وأكتفي بذكر موقف من هذه المواقف التي تدل على صدق المودة والمحبة ، واختصاص المحب لما يدور في قلب أخيه الذي أحبه في اللّه عز وجل :

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي اللّه عنه ـ قال : « خطب رسول اللّه ﷺ الناس وقال : « **إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله** » ، قال : فبكى أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول اللّه ﷺ عن

عبد خُيِّر ، فكان رسول اللَّه هو المخيّر ، وكان أبو بكر أعلمنا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنّ أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ ، إلا باب أبي بكر** »[١] .

قال ابن رجب ـ رحمه اللَّه ـ :

« لما عرّض الرسول ﷺ على المنبر باختياره للقاء ربه على البقاء ولم يصرّح ، خفي المعنى على كثير ممن سمع ، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به ، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال : بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا ، فسكّن الرسول ﷺ جزعه وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر ، ليعلم الناس كلهم فضله ، ولا يقع عليه اختلاف في خلافته ، فقال : إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر »[٢] .

صورة الحب المثالية التي لا يجود بمثلها الزمان :

صورة الحب المثلى ، ما بين المهاجرين والأنصار . . . قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[٣] .

صورة خروج الأنصار للقيا إخوانهم من المهاجرين وترحابهم الغالي بهم وإيثارهم على أنفسهم ، هذا الحب الذي لا يجود بمثله الزمان ،

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي عن أبي سعيد واللفظ للبخاري .
(٢) « لطائف المعارف » (ص١٠٦) ـ دار الجيل بيرت .
(٣) سورة الحشر الآية (٩) .

ووقائعه التي هي أغرب من الخيال ، وأحلىٰ من سنة النوم لمن اكتحلت عيناه بالسهر الأيام والليالي الطوال ، فمنهم من يعرض زوجاته علىٰ أخيه أيتهن أحب ينزل له عنها . . . ما ذا بعد هذا ؟! هذا الحب لا لصنيعة سبقت من المهاجرين إليهم ، أو ليد كانت لهم عليهم إنما هو الحب في اللّٰه .

يوم اليرموك وما أدراك بقصة الحب في يوم اليرموك ؟!

ومن هذه الصور المشرقة للمحبة الصادقة : ما رواه القرطبي عن حذيفة العدوي قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه ! آه ! ، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول : آه ! آه ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلىٰ هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلىٰ ابن عمي فإذا هو قد مات »[١] .

هذا نعت الصديق فكيف بالأخ في اللّٰه :

للّٰه در الرافعي حين يقول في وصف الصديق :

« لا أريد بالصديق ذلك القرين الذي يصحبك كما يصحبك الشيطان : لا خير لك إلا في معاداته ومخالفته . . . ولا ذلك الرفيق الذي يتصنّع لك ويماسحك متىٰ كان فيك طعم العسل لأن فيه روح ذبابة . . . ولا ذلك الحبيب الذي يكون لك في همّ الحب كأنه وطن جديد وقد نفيت إليه نفي المبعدين . . . ولا ذلك الصاحب الذي يكون كجلدة الوجه : تحمّر وتصفرّ

---

(١) « تفسير القرطبي » (٦٥٠٧) .

لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها ، فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبدًا إلا على أطراف مصائبك ، كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدئ المصيبة لا من أين تبتدئ الصداقة ، ولكن الصديق هو الذي إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمّل فيها ، وإذا غاب أحسست أن جزءًا منك ليس فيك ، فسائرك يحنّ إليه ، فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك، وإذا تحوّل عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود ، وإذا مات يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت ، بل مات فيك ميت . . . ذلك هو الصديق » .

نعم الصديق نضاحة عطر تمج رشاشها على حياتك روْحًا وعبيرًا وندىٰ فما ظنك بالأخ في اللّه .

لا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا وكلك لأخيك إلا ما حرّمه اللّه ورسوله :

لقد عبّر القرآن أصدق التعبيرعن الأخ في اللّه ونعته بالنفس وليس بعد القرآن وعلو بيانه وعلو رياضه علوّ .

• قال اللّه تعالىٰ : ﴿ **فاقتلوا أنفسكم** ﴾ أي إخوانكم . . . في توبة بني إسرائيل .

• وقال تعالىٰ : ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾ أي إخوانكم .

• وقال تعالىٰ : ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا** ﴾ أي : بإخوانهم خيرًا .

• وقال تعالىٰ : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أي : إخوانكم .

لا تكتمل الصحبة حتىٰ تقول لأخيك : يا أنـــا .

(١) « السحاب الأحمر » لمصطفىٰ صادق الرافعي (ص١٣٦ ـ ١٣٧) .

ورجل دعتــــه امرأة

ذات منصب وجمال

فقال : إني أخاف الله رب العالمين

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال
فقال : إني أخاف الله رب العالمين

قوله ﷺ : «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف اللّه**» .

في رواية البخاري : « **ورجل طلبته امرأة** » ورواية دعته هي رواية مسلم وهي للبخاري أيضًا في الحدود .

قال الحافظ في « الفتح » : (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١) : « دعته ذات حسب » وهو يطلق على الأصل وعلى المال أيضًا ، وقد وصفها بأكمل الأوصاف التي جرت العادة بمزيد الرغبة بمن تحصل فيه وهو المنصب الذي يستلزمه الجاه والمال مع الجمال ، وقلّ من يجتمع ذلك فيها من النساء ، زاد ابن المبارك « إلى نفسها » ، وللبيهقي في « الشعب » من طريق أبي صالح عن أبي هريرة : « فعرضت نفسها عليه » والظاهر أنها دعته إلى الفاحشة وبه جزم القرطبي ولم يحك غيره ، وقال بعضهم : يحتمل أن تكون دعته إلى التزوج بها فخاف أن يشتغل عن العبادة بالافتتان بها ، أو خاف أن لا يقوم بحقها لشغله بالعبادة عن التكسب بما يليق بها ، والأول أظهر ، ويؤيده وجود الكناية في قوله : « إلى نفسها» .

ولو كان المراد التزويج لصرّح به ، والصبر عن الموصوفة بما ذكر من أكمل المراتب لكثرة الرغبة في مثلها وعسر تحصيلها لا سيما وقد أغنت من مشاق التوصل إليها بمراودة ونحوها » .

قوله : « **فقال : إني أخاف اللّه** » : « الظاهر أن يقول ذلك بلسانه إما ليزجرها عن الفاحشة أو ليعتذر إليها ، ويحتمل أن يقوله بقلبه ،

قال عياض : قال القرطبي : إنما يصدر ذلك عن شدة خوف من اللّه تعالىٰ ومتين تقوىٰ وحياء » .

ذات المنصب والجمال :

ذات منصب أي رفيعة الشأن ليست من سطَة الناس .

وفي رواية ذات حسب وجمال : وهذه تفسّر رواية ذات منصب .

« وأصل الحسب مأخوذ من الحساب والعدد ، لأن الحسيب يُعدد ويحسب مفاخر يعتد بها من أمجاد آبائه ومفاخر أجداده ، سواء كانت مالية ، أو معنوية فتشمل كل ما يشرف به »[1] .

أما الجمال : فإن جمال كل شيء بحسبه ، والجمال في كل جنس له مقاييسه وسماته .

قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ : « إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تمّ حسنها » .

وقالت عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ : « البياض شطر الحسن »[2] .

قال ابن القيم : ومما يستحسن في المرأة طول أربعة وهنّ : أطرافها ، وقامتها ، وشعرها ، وعنقها .

وقصر أربعة : يدها ، ورجلها ، ولسانها ، وعينها ، فلا تبذل ما في بيت زوجها ، ولا تخرج من بيتها ، ولا تسطيل بلسانها ، ولا تطمع بعينها .

وبياض أربعة : لونها ، وفرقها ، وثغرها ، وبياض عيناها ، ، وسواد أربعة : أهدابها ، وحاجبها ، وعينها ، وشعرها .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » لعطية محمد سالم (ص١٣٤) ـ مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة .

(٢) « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (ص٢٤٦) ـ دار الكتاب العربي .

وحمرة أربعة : لسانها وخدّها ، وشفتها مع لعس[1] ، وإشراب بياضها بحمرة .

ودقة أربعة : أنفها ، وبنانها وخصرها وحاجبها ، وغلظ أربعة : ساقيها ، ومعصمها ، وعجيزتها ، وذاك منها .

وسعة أربعة : جبينها ، ووجها ، وعينيها ، و صدرها ، وضيق أربعة : فمها ، ومنخرها ، وخرق أذنها ، وذاك منها فهذه أحق النساء بقول كُثيرّ .

لو أن عزّة خاصمت شمس الضحى   في الحسن عند مُوفق لقضى لها[2]

قال ثعلب :

خُزاعية الأطراف مرية الحشا   فزارية العينين طائية الفم

ومكية في الطيب والعطر دائماً   تبدت لنا بين الحطيم وزمزم

أو كما قال العطفاني : « ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، ناعمة الساقين ، ضخماء الركبتين ، لفّاء الفخذين ، ضخمة الزراعين ، رخست الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجّاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، شنباء الثغر ، محلوكة الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن »[3] .

« فإذا اجتمع لامرأة كل أو بعض هذه الصفات ، ثم هي تعرضت لرجل ودعته لنفسها ، وكفته مؤنة تذليلها وترغيبها ، وإغرائها به ، مما قد يتعذر عليه حتى الوصول إليها ورؤيتها أو التحدث معها لعلو منصبها ، ومفاخر حسبها ، واعتدادها بجمالها ، وصلفها في نفسها ، فإذا هو يراها

---

(١) اللعس : سواد مستحسن في باطن الشفة .

(٢) « روضة المحبين » (ص٢٤٧) .

(٣) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٣٥) .

بين يديه ، تقدم نفسها إليه وتطلبه هي وتدعوه إلى نفسها ، ولم يكن عليه هو إلا أن يستجيب لطلبها .

علمًا بأن ذلك لن يكون منها إلا في خلوة تامة وبعد أكيد عن الرقباء من أهل وخدم وحشم لمثلها ، أي توافرت الدواعي في جمالها وحسبها ، وانتفت الموانع من رقباء وحراس ، فلم يبق إلا وازع الإيمان وخوف اللَّه تعالى .

إنه العامل الوحيد الذي يقف أمام عوامل الإغراء هذه ، وهي عوامل تقف معها القوة الفطرية : النفس ، والهوى ، والميل الطبيعي والرغبة الجنسية ، تنهار أمامها قوة الأبطال ، وتضل فيها كل وسائل الاحتيال ، ولا يصمد أمامها إلا نوادر الرجال .

أولئك الذين يربط اللَّه على قلوبهم ، ويبصرهم عواقب أمورهم ، ويعصمهم من ذلة الشيطان ، وما ذاك إلا بالعامل الوحيد الذي هو مخافة اللَّه تعالى ، فيعلنها في ثبات وينطق بها من الأعماق : إني أخاف اللَّه رب العالمين .

هذا هو الخوف الذي يورث أمانًا فتهون أمامه كل المخاوف ، وتذوب في ظله كل الملذات ، ويكون السلطان للعقل والروح والإيمان ، وليس للعاطفة والجسد والغرائز ، هناك يتسامى ويتخطى حواجز الطبائع ، والمستوى الأدنى ، ويتعالى إلى منازل السؤدد ، حيث المرتقى الأعلى[1] .

تنبيه : قال ابن حجر في « فتح الباري » (٢/ ١٧٣) :

« ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النساء معهم فيما ذكر ، . . . حتى الرجل الذي دعته امرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٣٦) .

جميل مثلاً فامتنعت خوفًا من اللَّه مع حاجتها ، أو شاب جميل دعاه ملك إلى أن يزوجه ابنته مثلاً ، فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه » .

لماذا التنصيص على الرجل دون المرأة ؟ :

قال الشيخ عطية محمد سالم : « لماذا اقتصر الحديث على ذكر الرجل دون المرأة ؟ بينما جاء في القرآن الكريم المزواجة بينهما في مقام التعفف وحفظ الفرج وغض البصر كما قال تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾[1] .

وفي التوجيه والإرشاد كذلك : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[2] .

لقد تطلبت في مواطن عديدة بغية الوقوف على سر ذلك وحكمته فلم أعثر على ما تطمئن النفس إليه إلا أخيراً ومن حديث النفر الثلاثة[3] اتضح لي وجه المغايرة في هذا المقام ، واختصاص الرجل بالذكر دون المرأة وذلك للآتي :

أولاً : من جانب الرجل :

فإنه لا يعف حقيقة عن المرأة إلا لوجه اللَّه ، لأن دعوة المرأة إياه لا تكون إلا في خلوة من الناس ، وحالة تمكين قوية ومأمن تام ، فليس عنده من يحاذر أو يخشى ، ثم هو لا يخشى عواقب تترتب عليه هو أوعلى

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٥) .

(٢) سورة النور الآيتان (٣٠ ، ٣١) .

(٣) حديث الغار .

أهله لأن فعله ينتهي بفعلته بخلاف المرأة فإن فعلتها قد لا تنتهي عند نهاية الفعل ، فقد يمتد أثرها إلى ما بعد وقد تنجر على أهلها .

ثانيًا : من جهة المرأة :

قد تعف هي أيضًا لوجه اللَّه ولكن قد يوجد ما يشوب حقيقة كون الامتناع مخافة اللَّه لأن الفتاة في تلك القصة[1] قالت للرجل : اتق اللَّه ولا تفضنّ الخاتم إلا بحقه ، فهي قد أظهرت حقيقة تخصها وهي وجود الخاتم ، ألا وهو خاتم البكارة كالختم على الكتاب والطرد لحفظه من امتداد اليد إليه ، وهذا الخاتم هو أعز ما تحرز الفتاة ، ومن واجبها الحفاظ عليه ، ففيه الحفاظ على كيانها وذاتها ، ومريم عليها السلام عظم عليها أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ولم تك بغياً وقد تكون غير بكر ويكون الخاتم قد فضّ بحقه .

ولكنها ليست ذات زوج فتخشى الحمل ، ولو لم تخش حملاً بأن كانت تحت زوج ولا يرتاب في حملها أو تكون حاملاً بالفعل فإن خوفها من انكشاف أمرها أشد من مخافة الرجل ، لما يترتب عليها هي من سقوطها في المجتمع ، ومفارقة زوجها ، أو ما هو أكبر من ذلك مما لا يلحق الرجل منه ما يلحقها هي .

ومن هذا المنطق كان لتخصيص الرجل بالذكر موجبه لأنه إن قال : إني أخاف اللَّه رب العالمين كانت مقالته تلك صادقة ، مع إمكان وجود مثل ذلك أيضًا من المرأة ، فمن وجد منها ذلك على هذا الوصف ، كانت بلا شك مشاركة للرجل في هذا الفعل ، وكانت رفيقة له في ظل الرحمن .

ذلك أخذًا مما قرره الأصوليون : من قاعدة الإلحاق بنفي الفارق ، كما قالوا في حديث : « **من أعتق شقصاً له في عبده عتق عليه** » إنه تلحق به

---

(١) حديث الغار .

الأمة ، فمن أعتق شقصًا له في أمة عتقت عليه ، فألحقت بالعبد بنفي فارق الذكورة والأنوثة ، والإعتبار بالرفق فيهما معًا فكذلك الحال هنا تلحق المرأة بالرجل : وامرأة دعاها ذو حسب ومنصب . . . إلخ »[1] .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ما نصّه :

« ويلتحق بهذه الخصلة ، من وقع له نحوها ، كالذي دعا شابًا جميلاً لأن يزوجه ابنة له جميلة ، كثيرة الجهاز جدًا ، لينال منه الفاحشة ، فعفّ الشاب عن ذلك ، وترك المال والجمال ، وقد شاهدت ذلك .

وقال الحافظ أيضًا في « الفتح » (٢/ ١٧٣) : « ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النساء معهم فيما ذكر . . . حتىٰ الرجل الذي دعته المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل مثلاً فامتنعت خوفًا من اللَّه تعالىٰ مع حاجتها ، أو شاب جميل دعاه ملك إلىٰ أن يزوجه ابنته مثلاً فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه » .

أخي : « إن للَّه عز وجل يومًا لا ينجو من شرّه منقاد لهواه ، وإنّ أبطأ الصرعىٰ نهضة يوم القيامة صريع شهوة ، وإنّ العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفر حظًا من يطالبها بقدر ما استصحبته من الصبر ، وإن العقل معدن والفكر معول »[2] .

قال مالك بن دينار : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله .

وقال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا واستصعب قياده علىٰ الهوىٰ .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٤٠ـ١٤٢) .
(٢) « ذم الهوىٰ » لابن الجوزي (ص٢٥) .

وقال يحيىٰ بن معاذ : من أرضىٰ الجوارح في اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وقيل للمرتعش : إن فلانًا يمشي علىٰ الماء فقال : إنّ من مكّنه اللَّه من مخالفة هواه لهو أعظم من المشي علىٰ الماء .

وقال أبو علي الدقّاق : من ملك شهوته في حال شبيبته صيرّه اللَّه ملكًا في حال كهولته ، كيوسف عليه السلام : ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (١) .

قال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوخ فهو لعاب .

رب مستور سبته صبوة فتعرى ستره فانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة صار الملكا

قال حاتم الأصم : الموت الأحمر مخالفة النفس .

وقال السري السقطي : أقوىٰ الفتوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

وقال أبو محمد الجريري : من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات ، محصورًا في سجن الهوىٰ ، وحرم اللَّه علىٰ قلبه الفوائد ، فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه وإن كثر ترداده علىٰ لسانه .

وللَّه در ابن سمعون حين يقول في مجلسه : « ما سمعت قوله ﷺ : « **إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال** » ؟ ؛ فإذا كان الملك لا يدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال فكيف تدخل شواهد الحق قلبًا فيه أوصاف غيره من البشر ؟! (٢) .

---

(١) سورة يوسف الآية (٩٠) .

(٢) « ذم الهوىٰ » (ص٨٠) .

الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف عليه السلام :

قد حسن اللَّه خَلق يوسف عليه السلام وحسّن خُلقهُ :

قال ﷺ : « **أعطي يوسف شطر الحسن** »(1) .

وقال ﷺ : « **أعطي يوسف وأمّه شطر الحُسن** »(2) .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾(3) .

للَّه در نبي اللَّه يوسف ﷺ في موقفه مع امرأة العزيز ، كان مثالاً للعفّة؛ فكل الظروف من حوله كانت تدفعه دفعًا إلىٰ الفاحشة ، فقد كان شابًا عزبًا ، وقد كان غريبًا ، والغريب لا يستحي من الناس ، لأنهم لا يعرفونه ، وإنه كان عبداً لها ، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وهي سيدته ، وهي الآمرة ، فدافع الشهوة أكبر حين تكون المرأة طالبة وهي حسناء جميلة وقد غاب الرقيب وغلّقت الأبواب وهي تهدده بالسجن إن لم يفعل وتكرر التهديد منها أكثر من مرة .

قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد همَت به وهمَ بها لولا أن رأى برهان ربه ..** ﴾ ظاهر الآية قد يفهم منه مرضىٰ القلوب أن يوسف عليه الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه ، ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حين بينّ شهادة كل من له

(1) صحيح : رواه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو يعلي في « مسنده» والحاكم في « المستدرك » عن أنس وكذا رواه ابن عدي في « الكامل » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (1073) ، وفي « الصحيحة » رقم (1481) .

(2) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، ورواه ابن عدي في « الكامل » وابن عساكر ، وزاد « يعني سارة » .

(3) سورة يوسف الآية (23) .

تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة اللَّه له بذلك واعتراف إبليس بها .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم : يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود أما جزم يوسف بأنه بريئ من تلك المعصية فذكره تعالىٰ في قوله : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ وقوله : ﴿ **قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه** ﴾ .

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ **ولقد رواته عن نفسه فاستعصم** ﴾ .

وأما اعتراف زوج المرأة بذلك ففي قوله : ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ [(١)] .

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿**قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾[(٢)] .

وأما شهادة اللَّه عز وجل ببراءته ففي قوله : ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾[(٣)] .

وقد شهد اللَّه علىٰ طهارته أربع مرات :

أولها : ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

ثانيًا : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ وقد قال تعالىٰ في صفة عباد الرحمن : ﴿ **ولا يزنون** ﴾ .

---

(١) سورة يوسف الآية (٢٩) .
(٢) سورة يوسف الآيات (٢٦ : ٢٨) .
(٣) سورة يوسف الآية (٢٤) .

والرابع : قوله : ﴿ المخلصين﴾ وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل ، وأخرىٰ باسم المفعول ، فوروده باسم الفاعل يدل علىٰ كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص ، ووروده باسم المفعول يدل علىٰ أن اللَّه تعالىٰ استخلصه لنفسه ، واصطفاه لحضرته ، وعلىٰ كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ علىٰ كونه منزهًا عما أضافوه إليه . اهـ . من تفسير الرازي .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالىٰ : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[1] ، فأقرّ بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من سادات المخلصين ، بنص القرآن الكريم .

أما شهادة النسوة فقد قال تعالىٰ : ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾[2] .

قال الفخر الرازي :

« هؤلاء الذين نسبوا إلىٰ يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين اللَّه فليقبلوا شهادة اللَّه علىٰ طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس علىٰ طهارته ، ولعلّ منهم من يقول : كنا في أول الأمر تلامذة إبليس ، إلىٰ أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة ، عليه كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده ... طرائق فسقٍ ليس يحسنها بعدي

ما تأويل قوله تعالى : ﴿ وهمَّ بها .... ﴾ ؟

الجواب من وجهين :

الأول : أن المراد بهمّ يوسف بها خاطر قلبي صرفه عنه وازع التقوىٰ .

---

(١) سورة ص الآيتان (٨٢ ، ٨٣) .

(٢) سورة يوسف الآية (٥١) .

وقال بعضهم : هو الميل الطبيعي ، والشهوة الغريزية المزمونة بالتقوى ، وهذا لا معصية فيه لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف كما في الحديث عنه ﷺ : أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « **اللّهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك** » يعني ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم وقد قال ﷺ : « **من همّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة كاملة** » ، لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من اللّه وامتثالاً لأمره كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ** ... ﴾ [1] وهم بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهم يوسف هذا ، بدليل قوله :﴿ **إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا** ... ﴾[2] .

لأن قوله : « ﴿ **والله وليهما** ﴾ يدل على أن ذلك الهمّ ليس بمعصية ، لأن اتباع المعصية بولاية اللّه للعاصي ـ لو كان هذا الهمّ معصية ـ إغراء على المعصية .

بخلاف همّ امرأة العزيز فإنه همّ عزم وتصميم بدليل أنها شقت قميصه من دُبر ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها بدليل الحديث الثابت عن الرسول ﷺ : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » قالوا : يا رسول اللّه قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « **إنه كان حريصاً علي قتل صاحبه** » ، فصرّح ﷺ أن تصميمه وعزمه على قتل صاحبه معصية أدخله اللّه بسببها النار .

وأما تأويلهم همّ يوسف بأنه قارب الهمّ ولم يهمّ بالفعل ، وتأويل الهمّ بأنه همّ بضربها أو همّ بدفعها عن نفسه فكل ذلك غير ظاهر ، بل هو بعيد عن الظاهر ولا دليل عليه .

---

(١) سورة النازعات الآية (٤٠) .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٢٢) .

الثاني : وهو اختيار الشيخ أبي حيّان : أن يوسف لم يقع منه همّ أصلاً .

قال الشنقيطي : « هذا الوجه الذي اختاره أبو حيّان وغيره هو أحرىٰ الأقوال علىٰ قواعد اللغة العربية ، لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه كقوله :

﴿ **فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾[1] .

أي : إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ، لأن جواب الشرط وجواب « لولا » لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة وكقوله : ﴿ **هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ أي : إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم وعلىٰ هذا القول فمعنىٰ الآية : ﴿ **وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه** ﴾ أي : لولا أن رآه همّ بها فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف كما هو الغالب في القرآن الكريم واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾[2] .

أي : لولا أن ربطنا علىٰ قلبها لكادت تبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب لولا في قوله : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿ **وهم بها** ﴾ وإلىٰ جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون ومن أعلام البصريين المبرد ، وأبو زيد الأنصاري .

قال الشيخ أبو حيان في « البحرالمحيط » ما نصه : والذي أختاره أن

---

(١) سورة يونس الآية (٨٤) .

(٢) سورة القصص الآية (١٠) .

يوسف عليه السلام لم يقع هم بها ألبتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله .

يقول الشيخ الشنقيطي : وأما أقوال السلف : فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة ، يناقض بعضها بعضاً مع كونها قادحة في بعض فسّاق المسلمين ، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة .

ويقول الشنقيطي مرة أخري :

هذه الأقوال منقسمة إلى قسمين :

قسم لم يثبت نقله عمن نُقل عنه بسند صحيح ، وهذا لا إشكال في سقوطه .

وقسم ثبت عن بعض من ذكر ، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك فالظاهر الغالب على الظن ، المزاحم لليقين أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات لأنه لا مجال للرأي فيه ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ[1] .

الإحسان صفة يوسف عليه السلام ... يعبد الله كأنه يراه :

إن الذي يستلفت النظر كثرة تكرار صفة الإحسان ، فكان محسنًا مع ربه وأيضًا مع الناس ، فقد سمَّى الله قصته (أحسن القصص) ، ورتَّب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم في الشباب ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2] ، ووصفه السجناء بذلك ﴿ **نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[3] وبه مكَّنه الله تعالى في الأرض ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[4] ، وقال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ**

(١) « أضواء البيان » (٣/ ٤٩ - ٦٠) .
(٢) سورة يوسف الآية (٢٢) .
(٣) سورة يوسف الآية (٣٦) .
(٤) سورة يوسف الآية (٥٦) .

مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١] ، وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢] .

ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ...﴾[٣]، والإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه. . . ولهذا ما همّ يوسف المحسن بالمعصية - بل بلغ المثل الأعلى في العفة .

« لولا أن رأى برهان ربه » :

عجبًا للهوى ! « هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس؛ ولكن أين مُلكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تزد الآية على أن قالت : ﴿ **وراودته التي** ﴾ و« التي » هذه كلمة تدلّ على كل امرأة كائنة من كانت ؛ فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة ؛ وزالت الملكة من الأنثى !

وأعجب من هذه كلمة « وراودته » وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون ؛ ذاهبة إلى فن ، راجعة من فن ؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيتها ؛ تذهب وتجيء في رفق ، وهذا يصوّر حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها ؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها ؛ كما يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترفّق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها ، فمهما تتهالك على من تحبّ وجب أن يكون لهذا « الشيء الآخر » مظهر امتناع أو مظهر تحيّر أومظهر اضطراب ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة .

(١) سورة يوسف الآية (٧٨) .

(٢) سورة يوسف الآية (٩٠) .

(٣) سورة يوسف الآية (١٠٠) .

ثم قال : « عن نفسه » ليدلّ على أنها لا تطمع فيه ، ولكن في طبيعته البشرية ، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها ، وكأن الآية مصرّحة في أدب سام كل السموّ ، منزه غايه التنزيه بما معناه : « إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه وتصبيه ، مقبلة عليه ومتدللة ومبتذلة ومُنْصَبَّة من كلّ جهة ، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضة كل ذلك عَرض امرأة خلعت ـ أول ما خلعتْ ـ أمام عينيه ثوب الملك » .

ثم قال : ﴿ **وغلقت الأبواب** ﴾ ولم يقل « أغلقت » وهذا يُشعر أنها لما يئست ، ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيّل القفل الواحد أقفالاً عدّة ، وتجري من باب إلى باب ، وتضطرب يدها في الإغلاق ، كأنما تحاول سدّ الأبواب لا إغلاقها فقط .

﴿ **وقالت هيت لك** ﴾ ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده ، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانية صرفة ، متكشّفة مصرّحة ، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض ، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة عن أعلاها إلى أسفلها ، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يَبْق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثَمّ عظمة الرجولة المتمكنة في معانيها ، فقال يوسف عليه السلام ﴿ **معاذ اللَّه** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **إنه ربي أحسن مثواى** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة ، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين باللَّه ، ومعرفة الجميل ، وكراهة الظلم ، ولكنّ هذا التنبيه المترادف ثلاث مرّات لم يكسر من نزوتها ، ولم يَفْثَأْ تلك الحدّة ، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة

واحدة اجتمعت بكلّ أسبابها في زمن في مكان في رجل ، فهي فكرة محتَبَسة كأن الأبواب مغلّقة عليها أيضًا ، ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها، وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلىٰ تعبيره المعجز فيقول : ﴿ ولقد همَت به ﴾ كأنما يومئ بهذه العبارة إلىٰ أنها ترامت عليه ، وتعلّقت به ، والتجأت إلىٰ وسيلتها الأخيرة ، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم . . . !

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به في آخر محاولته، وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربّه كما وقع لها هي برهان الشيطان ، فلولا برهان ربّه لكان رجلاً من البشر في ضعفه الطبيعي .

وههنا المعجزة الكبرىٰ ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتىٰ لا يُظنّ به ، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبّان منهم ـ كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتىٰ في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مُخْيَلية متعرِّضة متكشِّفه متهالكة ، هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرىٰ شيئًا من هذا ـ هي أن يرىٰ برهان ربّه .

وهذا البرهان يُؤوِّله كل إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها كلها ؛ فإذا مثّل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام اللّٰه يراهما ، وأن أماني القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عال يسمعه اللّٰه ؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويُقبَر، وفكّر فيما يصنع الثرىٰ في جسمه هذا ، أو فكّر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكّر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في أخته أو بنته .

إذا فكّر في هذا ونحوه رأىٰ برهان ربه يطالعه فجأة ، كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعًا إلىٰ هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرىٰ برهان عينيه ؛ أترونه يتردىٰ في الهاوية حينئذ ، أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام ، وأكثر الموعظة ، وأكثر التربية ، والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان ، كلمة ﴿ **رأى برهان ربه** ﴾[1] .

للّه در عطاء بن يسار .. ما أجمل وأكمل عفته !! :ـ

خرج ـ رحمه اللّه ـ وأخوه سليمان بن يسار حاجين من المدينة ومعهم أصحاب لهم ، حتىٰ إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائمًا في المنزل يصلي ، فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة ، فلما رآها ظن أن لها حاجة فأوجز في صلاته ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قالت : نعم .

قال : ما هي ؟ قالت : قم فأَصِبْ مني فإني قد ودقْتُ[2] ولا بعل لي ، فقال : إليك عني ، لا تحرقيني ونفسك بالنار ونظر إلىٰ امرأة جميلة ، فجعلت تراوده عن نفسه وتأبىٰ إلا ما تريد فجعل عطاء يبكي ويقول : ويحك إليك عني إليك عني ، واشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي .

فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلىٰ عطاء والمرأة بين يديه تبكي ، جلس يبكي في ناحية البيت لبكائهما ولا يدري ما أبكاهما ! وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتىٰ رجل فرآهم

---

(١) « وحي القلم » لمصطفىٰ صادق الرافعي (١/ ١٠٤ـ١٠٦) دار الكتاب العربي .
(٢) ودقت : أرادت الفحل .

يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألونهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك ، قامت فخرجت وقام القوم فدخلوا فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبته ، وكان أسنّ منه ، ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء اللّه فبينا عطاء ذات ليلة نائم ، إذ استيقظ وهو يبكي !

فقال له سليمان : ما يبكيك يا أخي ؟! فاشتد بكاؤه قال : ما يبكيك يا أخي ؟!

قال : رؤيا رأيتها الليلة قال : ما هي ؟ قال : لا تخبر بها أحدًا ما دُمت حيًا ، قال : وما ذاك ؟

قال : رأيت يوسف النبي ﷺ فجئت أنظر إليه فيمن ينظر فلما رأيت حسنه بكيت ! فنظر إليّ في الناس فقال : ما يبكيك أيها الرجل ؟ قلت : بأبي أنت وأمي ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتُليت به من أمرها ، وما لقيت من السجن وفرقة الشيخ يعقوب ﷺ فبكيت من ذلك ، وجعلت أتعجّب منه فقال ﷺ : فهلاّ تعجّبت من صاحب المرأة بالأبواء ؟ فعرفت الذي أراد فبكيت ، واستيقظت باكيًا .

قال سليمان : يا أخي ! وما كان حال تلك المرأة ؟

قال : فقصّ عليه عطاء القصة فما أخبر سليمان بها أحدًا ، حتى مات عطاء وحدّث بها بعده امرأة من أهله ، وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار[1] .

* * *

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٩٨ ـ ٢٠٠) ، و« صفة الصفوة » (٢/ ٨٢ ـ ٨٤) .

تغيّر الرجال وذهب العفاف :

قال بعض المدنيين : كان الرجل يحب الفتاة فيطيف بدارها حَوْلاً يفرح إنْ رأىٰ من رآها فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدُها وتعِده فإذا التقيا لم يشْكُ حبّا ولم يُنشد شعراً ، وقام إليها كأنه قد أشهد علىٰ نكاحها أبا هريرة !! فهذا جميل بثينة ـ ولا نرضىٰ واللَّه عن طريقته ـ دخل عليه عياش بن سهل الساعدي وهو يجود بنفسه وسأله عن تشبيبه ببثينة منذ عشرين سنة !؟

فقال : هذا آخر وقت من أوقات الدنيا ، وأول وقت من أوقات الآخرة فلا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قط ، وإن كان أكثر ما نلتُ منها إلا أني كنت آخذ يدها[١] فأضعها علىٰ قلبي فأستريح إليها[٢] .

وعمر بن أبي ربيعة ، كبير شعراء الغزل ، لمّا مرض مرض الموت ، أسف عليه أخوه الحارث ، فقال له عمر : يا أخي ، إن كان أسفك لما سمعت من قولي : قلت لها وقالت لي ، فكل مملوك له حرّ إنْ كان كشف فرجًا حرامًا قط ، فقال الحارث : الحمد للَّه طيَّبت نفسي .

وليلىٰ الأخيلية ، قالت لعبد الملك بن مروان عن توبة : والذي ذهب بنفسه ، ما كلَّمني بسوء قط ، حتىٰ فرَّق بيني وبينه الموت .

إن كان هذا عفاف أهل الجاهلية فكيف بالإسلام ؟ :ـ

عن عبيدة السلماني قال : كان في الجاهلية أخوان من حي يُدعون بني

---

(١) وهذا لا يجوز له .

(٢) « ذم الهوىٰ » (٢٢٢ ـ ٢٢٣) .

كُنَّة ، أحدهما متزوج والآخر أعزب ، فقضي أن المتزوج خرج في بعض ما يخرج الناس فيه ، وبقي الآخر مع امرأة أخيه .

فخرجت ذات يوم حاسرة ، فإذا أحسن الناس وجها وأحسن الناس شعرًا ، فلمَّا علمت أنَّه قد رآها ولولت وصاحت ، وقالت بمعصمها فغطَّت وجهها ، فزاده ذلك فتنة ، فحمل الشوق على بدنه حتى لم يبق إلا رأسه وعيناه يدوران في رأسه ، وقدم الأخ فقال : يا أخي ما الذي أرىٰ بك ؟ فاعتلَّ عليه ، فقال : الشوصة ، قال الشوصة تسميها العرب اللّوىٰ وذات الجنب ، فقال له ابن عم له : لا تكذبَّنه ابعث إلي الحارث ابن كِلدة ، فإنه من أطَّب العرب ، فجيء به فلمس عروقه فإذا ساكنها ساكن وضاربها ضارب ، فقال : ما بأخيك إلا العشق ، فقال : سبحان اللَّه تقول هذا لرجل ميت ! قال : هوذا ، هل عندكم شيء من الشراب ؟ فجئ به ودعا بمسْحُط فصبَّ فيه ، وحلّ صرّة من صرارة فذرَّ فيه ثم سقاه ، ثم سقاه الثانية ، ثم سقاه الثالثة ، فانتشىٰ يغنِّي سكرًا فقال :

ألمَّـــا بي علــى الأبيـــا ... تِ من خيـــفِ أزُرْهُنـــــّهْ
غـــزالاً مـــا رأيت اليـــو ... مَ فــي دور بنـــي كُنـــّهْ
غـــزالاً أحـــور العين ... وفي منطقـــه غُنَّـــــهْ

فقال الرجل : دور قومنا فليت شعري من ؟

فقال الحارث : ليس فيه مستمع غير هذا اليوم ، ولكن أغدوا عليكم من الغد ، ففعل كفعله بالأمس ، فانتشىٰ يغنِّي سكرًا ، وكانت امرأة أخيه اسمها ريًّا فقال :

أيُّهـــا الحـي اسلمـــوا ... كي تُحيّوا وتسلَمُوا
خرجت مُزْنـــة من البحـــ ... ـــر ريّـــا تُحَمْـــحِمُ

هـي مــا كَنَّتـي[1] وتزعُــم أني لهــا حمــو

فقال الرجل لمن حضر : فأشهدكم أنها طالق ثلاثًا ليرجع إلىٰ أخي فؤاده ، فإن المرأة توجد والأخ لا يوجد ، فجاء الناس يَسْعَوْنَ : هنيئًا لك أبا فلان ، فإن فلانًا قد نزل لكم عن فلانة .

فقال من حضر : أشهدكم أنَّها عليَّ مثل أمي إن تزوجتُها .

قال عُبيدة : ما أدري أي الرجلين أكرم ؟ الأول أم الآخر ؟!

أهل العفاف أهل الحياء فاقرأ طيب أخبارهم :

ما لي ولعُبيد بن عُمير ، أفسد عليّ امرأتي ، كانت في كل ليلة عروساً فصيَّرها راهبة :

قال عبد اللَّه بن مسلم العِجْلي : كانت امرأة جميلة بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرت يومًا إلىٰ وجهها في المرآة ، فقالت لزوجها : أترىٰ أحدًا يرىٰ هذا الوجه لا يُفتن به ؟ قال : نعم .

قالت : من ؟ قال : عُبيد بن عُمير[2] .

قالت : فائذن لي فيه فلأفتننَّه ، قال : أذنتُ لك .

قال : فأتته كالمستفتية فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام ، قال : فأسفرت عن مثل فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة اللَّه ! قالت : إني قد فُتنت بك فانظر في أمري .

قال : إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك .

قالت : لاتسألني عن شيء إلا صدقتك .

قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك ، أكان يسرُّك

---

(١) الكنَّة : بفتح الكاف امرأة الابن أو الأخ .

(٢) هذا لا يجوز شرعًا ولقد ذكرته لذكر ابن الجوزي وابن القيم لهذه القصة فلعلّ لهما تأولاً واللَّه أعلم .

أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقتِ .

قال : فلو أُدخلتِ في قبرك وجلست للمساءلة ، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقتِ .

قال : فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك ، أكان يسرُّك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقتِ .

قال : فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقُلين أكان يسرُّك أني قضيت لكِ هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا .

قال : فلو وقفت بين يدي اللَّه للمساءلة أكان يسرُّك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقت .

قال : اتقي اللَّه يا أمة اللَّه ، فقد أنعم اللَّه عليك وأحسن إليك .

قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنَعتِ ؟ قالت : أنت بطَّال ونحن بطَّالون .

السري بن دينار وعظيم عفته :

قال محمد بن إسحاق : نزل السري بن دينار في دار بمصر كانت فيه امرأة جميلة تفتن الناس بجمالها ، فعلمت المرأة فقالت لأفتنَنَّه ، فلما دخلت من باب الدرب كشفت وأظهرت نفسها فقال السري : مالك ؟ قالت : هل لك في فراش وطيّ وعيش رخيّ ؟!

فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذي معاص نال منهن لذّةً ... ومات فخلاّها وذاق الدواهيا

تصرّمُ لذّاتُ المعاصي وتنقضي ... وتبقى تِباعات المعاصي كما هيا

فواسوأتا واللّهُ راءٍ وسامعٌ ... لعبد بعين اللّه يغشى المعاصيا[1]

لا حاجة لي فيمن دعاني إلى المعصية وأنا أدعوه إلى الطاعة :

قال الأصمعي : عشق رجل من النسّاك جارية من البصرة ، فبعث يخطبها فأبت وقالت : إنْ أردتَ غير ذلك فعلت ، فأرسل إليها :

سبحان اللّه أيتها المرأة ! ! أدعوك إلى الأمر الصحيح والحلال الذي لا عيب فيه ولا وزر وتدعينني إلى ما لا يصلح لا لي ولا لك؟ قال : فأرسلت إليه : قد أخبرتك بالذي عندي فإن أردت فتقدّم وإن كرهت فتأخَّر ، فأنشأ الفتى يقول :

أسائِلُها الحلال وتدْعُ قلبي ... إلى ما تشتهيه من الحرامِ

كداعي آل فرعون إليه ... وهم يدعونه نحو الغرامِ

فظلّ منعماً في الخلد يسعى ... وظلُّوا في الجحيم وفي السقامِ

فلما علمت أنه قد امتنع عليهامن الفاحشة أرسلت إليه : أنا بين يديك على الذي تحب فكتب : إليها « هيهات ، لا حاجة لي فيمن دعاني إلى المعصية وأنا أدعوه إلي الطاعة ، وقال :

لا خير فيمن لا يراقبُ ربّهُ ... عند الهوى ويخافه أحيانا

إن الذي يبغي الهوى ويريده ... كمؤاجر شيطانه شيطانا

حجب التقى بابَ الهوى فأخو التقى ... عفّ الخليفة زائدٌ إيمانا[2]

---

(١) « ذم الهوى » (ص٢٣٤ ـ ٢٣٥) .

(٢) « ذم الهوى » (ص٢٣٦) .

ولله در من قال في وصف العفيف :

يقظاتُه ومنامُه شِرَعٌ[١] كل بكل فهو مشتبه

إن همَّ في حلم بفاحشة زجرته عفَّتُه فينزجر

قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[٢] .

قال مجاهد : هو الرجل يذكر الله عند المعاصي فينحجز عنها[٣] .

قال مالك بن دينار : جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن فيها جَوارٍ خُلقن من ورد الجنة ، قيل : ومن يسكنها ؟ قال : الذين همُّوا بالمعاصي فلمَّا ذكروا عظمة الله راقبوه والذين انثنت أصلابهم من خشيته .

وقال ميمون : الذكر ذكران : فذكر الله عز وجل باللسان حسن ، وأفضل منه أن يُذكر عندما يُشرف عليه من معاصيه .

وقال عُبيد بن عُمير : من صدق الإيمان وبرِّه أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعُها ، لا يدعُها إلا لله عز وجل[٤] .

عن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « **بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل ، فانحطَّت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرِّجها .**

فقال أحدهم : اللَّهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار

---

(١) مفردها شِرْع ، وهو المثل والشبيه .

(٢) سورة الرحمن الآية (٤٦) .

(٣) « ذم الهوىٰ » (ص٢٤٠ ـ ٢٤١) .

(٤) « ذم الهوىٰ » (ص٢٤٤ ـ ٢٤٥) .

كنت أرعى عليهم فإذا رُحت عليهم فحلبت بدأت بوالديّ أسقيهما قبل ولدي وإنه نأى بي الشجر ، فما أتيتُ حتى أمسيتُ فوجدتهما قد ناما فحلبتُ كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصّبْية قبلهما والصبية يتضاغوْن عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرّج الله لهم فرجة حتى رأوا منها السماء .

فقال الثاني : اللّهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشدّ ما يحب الرجال النساء، فطلبتُ إليها نفسها ، فأبتْ حتى آتيها بمائة دينار فسعيتُ حتى جمعتُ مائة دينار فلقيتها بها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمت عنها اللّهم فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها ففرّج لهم فرجه ... »[1] الحديث .

القسّ عبد الرحمن بن أبي عمار يعفّ عن سلامة :

كان عبد الرحمن بن أبي عمار بن جُشم معاوية ينزل بمكة ، وكان من عُبَّاد أهلها فسُمي القس لعبادته ، شُغفت به سلاّمة وقالت له : أنا واللّه أحبك قال : وأنا واللّه أحبك ، قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك ، قال : وأنا واللّه ، قالت : وأحب أن ألصق صدري بصدرك وبطني ببطنك، قال: وأنا واللّه ، قالت : فما يمنعك ؟ فواللّه إن الموضع لخال قال : إني سمعت اللّه يقول : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تئول بنا إلى عداوة يوم القيامة .

قالت : يا هذا أتحسب أن ربي وربك لا يقبلنا إن نحن تبنا إليه ؟ قال : بلى ولكن لا آمن أن أفاجأ .

---

(١) « ذم الهوى » (ص٢٤٤ ـ ٢٤٥) .

عفاف شاب من الأنصار :

وانظر إلىٰ هذه الميتة العجيبة : أحبت امرأة من المدينة رجلاً من الأنصار فأرسلت تشكو إليه حبها وتسأله الزيارة وتدعوه إلىٰ الفاحشة وكانت ذات بعل فأرسل إليها :

إن الحرام سبيل لست أسلكه ... ولا أمرٌ به ما عشتُ في الناس
فابغي العفاف فإني غير متَّبِعٍ ... ما تشتهين فكوني منه في يأس
إني سأحفظ فيكم من يصونكم ... فلا تكوني أخا جهلٍ ووسواس

فلما قرأت الكتاب كتبت إليه :

دعْ عنك هذا الذي أصبحت تذكره ... وصرْ إلى حاجتى يا أيها القاسي
دع التنسُّك إني غير ناسكة ... وليس يدخل ما أبديت في راسي

فأفشىٰ ذلك إلىٰ صديق له فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك ، فقال : واللَّه لا فعلت ، ولا صرت في الدنيا حديثًا وللعار في الدنيا خير من النار في الآخرة وقال :

العار في مدة الدنيا وقلتها ... يفنى ويبقى الذي في العار يؤذيني
والنار لا تنقضي ما دام بي رمق ... ولست ذا ميتة منها فتفنيني
لكن سأصبر صبر الحرِّ محتسبًا ... لعل ربي من الفردوس يدنيني

وأمسك عنها فأرسلت : إما أن تزورني وإما أن أزورك فأرسل إليها : اربْعَي أيتها المرأة علىٰ نفسك ودعي عنك التسرع إلىٰ هذا الأمر فلما يئست منه ذهبت إلىٰ امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب في تهييجه فعملت لها فيه فبينما هو ذات ليلة جالسًا مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه ، واختلط ، فقام من بين يدي أبيه مسرعًا

وصلَّىٰ واستعاذ وجعل يبكي والأمر يزيد ، فقال له أبوه : يا بني ما قصّتك؟

قال : يا أبت أدركني بقيْد ، فما أرىٰ إلا قد غُلبت علىٰ عقلي ، فجعل أبوه يبكي ويقول : يا بني حدِّثني بالقصة ، فحدَّثه قصته ، فقام إليه فقيّده وأدخله بيتًا ، فجعل يتضرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هدأ ساعة فإذا هو ميت وإذا الدم يسيل من منخريه .

قال عمر بن عبد العزيز : « أفضل الجهاد جهاد الهوىٰ » .

وقال سفيان الثوري : « أشجع الناس أشدهم من الهوىٰ امتناعًا »

وكان الثوري ـ رحمه اللَّه ـ كثيرًا ما يتمثّل بهذين البيْتين :

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الوزْرُ والعارُ

تبقى عواقب سوءٍ في مغبّتها ... لاخير في لذةٍ من بعدها النارُ

وقال الحسين بن مُطَير :

ونفسك أكْرِمْ عن أمور كثيرةٍ ... فما لك نفس بعدها تستعيرُها

ولا تقرب المرعى الحرام فإنما ... حلاوته تفنى ويبقى مريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل : الفتوة ترك ما تهوىٰ لما تخشىٰ .

رجل لا يبيع جنة عرضها السموات والأرض :

قال العُتْبي : عَلِقَ أعرابي امرأة ، فطال به وبها الأمر فلما التقيا وتمكَّن منها وصار بين شعبتيها ذكر الدار الآخرة وجاءته العصمة ، فقال : واللَّه إن إمرءا باع جنة عرضها السموات والأرض بفتر بين رجليك لقليل البصر بالمساحة !

أخاف نارًا لا يخبو سعيرها :

عن رجاء بن عمرو النخعي قال : كان بالكوفة فتىٰ جميل الوجه ، شديد التعبد والاجتهاد وكان أحد الزهاد ، فنزل في جوار قوم من النخع

فنظر إلىٰ جارية منهن جميلة فهويها ، وهام بها عقله ونزل بها مثل الذي نزل به فأرسل يخطبها من أبيها فأخبره أبوها أنها مسمّاة لابن عم لها ، فلما اشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوىٰ أرسلت إليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك ، فإن شئت زرتك وإنْ شئت سهّلت لك تأتيني .

فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلّتين إني أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم، أخاف ناراً لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال قالت : وأراه مع هذا زاهداً يخاف اللَّه! واللَّه ما أحد أحقّ بهذا من أحد وإن العباد فيه لمشتركون .

ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها ، ولبست المسوح وجعلت تتعبد ، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًا للفتىٰ وأسفا عليه حتىٰ ماتت شوقًا إليه ، فدفنت فكان الفتىٰ يأتي قبرها ويبكي عندها ويدعو لها فغلبته عينيه ذات يوم علىٰ قبرها ، فرآها في منامه وكأنها في أحسن منظرها فقال : كيف أنت ؟ وما لقيت بعدي ؟ فقالت :

نعم المحبة يا سُؤلي محبتكم حب يقود إلى خير وإحسان

فقال : علىٰ ذلك إلىٰ ما صرت ؟

فقالت :

إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد ملك ليس بالفاني

فقال لها : اذكريني هناك ، فإني لستُ أنساك ، فقالت : ولا أنا واللَّه أنساك ولقد سألت قربك مولاي ومولاك فأعنّي علىٰ ذلك بالاجتهاد ، ثم ولتْ مدبرة . فقال لها : متىٰ أراك ؟ قالت : ستأتينا عن قريب فترانا ، فلم يعش الفتىٰ بعد الرؤيا إلا سبع ليال[1] .

---

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٦٣ ـ ٢٦٤) .

اللّهم سوّدها :

قال أبو الكُرير معمر : سمعتُ أبا زرعة الخَبْني يقول : فكرت بي امرأة فقالت : يا أبا زرعة ! ألا ترغب في عيادة مبتلىٰ تتعظ برؤيته ؟ فقلت : بلىٰ فقالت : ادخل إلىٰ الدار فلما دخلتُ الدار أغلقت الباب ولم أر أحداً فعرفت قصدها فقلت : اللّهم سوِّدها فاسودَّت فحارت وفتحت الباب فخرجت وقلت : اللّهم رُدَّها إلىٰ حالتها فَردَّها إلىٰ ما كانت .

هبْتَ مُهَاباً :

عن يحيىٰ بن عامر التيمي أن رجلاً من الحيّ خرج حاجًّا فإذا هو بامرأة في بعض الليل ناشرة شعرها في بعض المياه فأعرض عنها فقالت : هلم إليَّ لِمَ تُعرِضُ عنِّي ؟ قال : إني أخاف اللّه رب العالمين ، فتجلببت ، ثم قالت : هِبْتَ مُهَاباً إن أولىٰ من شَرِكَك في الهيبة لمن أراد أن يشركك في المعصية قال : ثم ولّت فتبعتها فدخلت بعض خيام الأعراب : فلما أصبحتُ أتيت رجل من القوم فوصفتها فقلت : فتاةٌ كذا وكذا من حسنها من منطقها ، فقال شيخ منهم : ابنتي واللّه ، قلت : هل أنت مزوّجي ؟ قال : على الأكفاء ، قلت : رجل من تيم اللّه قال : كفؤ كريم فما رُمت حتىٰ تزوجتها ودخلتُ بها ، ثم قلت : جهزوها إلىٰ قدومي من الحج فلما قدمتُ حملتها إلىٰ الكوفة فها هي عندي لي منها بنين وبنات[1] .

عفة بها ملك الدنيا والآخرة :

قال الحسن بن زيد : وَلِينا بديار مصر رجل فوجد علىٰ بعض عُمَّاله فحبسه وقيّده فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته ، فكتبت إليه وكان قد نظر إليها :

أيها الرامـي بعينيـه ... وفي الطـرف الحتـوفُ

إنْ تُـرِدْ وصـلاً فقـد ... أمكنـك الظبي الألُـوفُ

---

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

فأجابها الفتى :

إن تَرَيْني زاني العينيـــ ـــن فالفــرج عفيــفُ

ليــس إلا النظــــر الفـــا تر والشعـــــر الظريـــفُ

فكتبت إليه :

قد أردنــــاك على عشــ ـــقك إنسـانًا عفيفـــــًا

فتــــأبّيت فــــلا زلـــــ ـــت لقيـديك حليفـــــًا

فأجابها :

مــــا تأبّيـــــت لأنــــي كُنْــتُ للظبــــي عيُــوفًا

غيـــرُ أنّي خِفـــتُ ربــّا كـــان بي بـــرًّا لطيـــــفًا

فذاع الشعر وبلغ الخبر الوالي فدعا بها فزوّجه إياها ودفعها إليه[1] .

في حديث الغار قالت المرأة لابن عمها : « يا عبد اللّه اتق اللّه ولا تفتح الخاتم إلا بحقه » فللّه درها .

حديث الكفل وصاحبته :

عن ابن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ قال : سمعت النبي ﷺ يُحدِّث حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ولكن سمعته أكثر من ذلك سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورّع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أُرعدت وبكت ، فقال ما يبكيك ؟ أأكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة فقال : تفعلين أنت هذا وما فَعَلْتِه؟ اذهبي فهي لك ، وقال : لا واللّه لا أعصي اللّه بعدها أبدًا ، فمات من ليلته ،**

(١) « ذم الهوى » (ص٢٦٧ـ٢٦٨) .

فأصبح مكتوبًا على بابه : إن اللَّه قد غفر للكِفْل »[١] .

نساء عفيفات :

وإن كان يحمد الصبر من الرجال عن الفاحشة فهو من النساء أعجب :

دع ذلك ليوم التغابن :

قال خارجه بن زياد ـ رجل من بني سليمة ـ هويت امرأة من الحي فكنت أتبعها إذا خرجت من المسجد فعرفت ذلك مني ، فقالت لي ذات ليلة : ألك حاجة : قلت : نعم ، قالت : وما هي ؟ قلت : مودتك ، قالت : دع ذلك ليوم التغابن ، قال : فأبكتني واللَّه فما عُدت إلى ذلك .

فأين مكوكبها ؟ :

قال أعرابي : خرجت في بعض ليالي الظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم ، فأردتها على نفسها فقالت : ويلك ! أما لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين ! فقلت : إيها ! واللَّه ما يرانا إلا الكواكب ، قالت : فأين مكوكبها ؟!

هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات :

قال محمد بن عبد اللَّه بن زيد : حدثتني أمي عن أبيها قال : أحببت جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب فما زلت أحتار في أمرها حتى

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي ، وأحمد ، وأبويعلي في « المسند » ، وابن قدامة في «التوَّابين» ، وابن حبان ، وأخرجه رزين في « جامع الأصول » ، وحسنَّه الترمذي ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وضعَّفه الألباني في « ضعيف سنن الترمذي » رقم (٤٤٨) .
والكِفل هذا ليس النبي المذكور في كتاب اللَّه تعالى ، فقصته لا تليق بنبي ، انظر : كتاب « من قصص الماضين في حديث سيد المرسلين » ، بقلم مشهور حسن سليمان (ص٢٢٧ ـ ٢٢٩) ، دار الهجرة .

اجتمعت معها في ليلة مظلمة شديدة السواد في موضع خال ، فحادثتها ساعة ، ثم دعتني نفسي إليها فقلت : يا هذه ، قد طال شوقي إليك قالت : وأنا كذلك . قلت : قد عسر اللقاء . قالت : نحن كذلك !

قلت : هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب .

قالت : هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات .

قلت : لو أدنيتني منك ؟

قالت : هيهات هيهات ! إني أخاف العقوبة من اللّه ، قلت لها فما الذي دعاك إلى الحضور معي في هذا المكان .

قالت : شقوتي وبلائي ! .

قلت : فمتى أراك ؟

قالت : ما أراني أنساك ، فأما الاجتماع معك فلا أراه يكون .

ثم تولت من بين يدي ، فأستحييت مما سمعتُ منها ، فرجعت وقد خرج من قلبي ما كنتُ أجد من حبها ، ثم أنشأت أقول :

توقت عذابا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تعذّبا

وقالت مقالا كدْت من شدة الحيا ... أهيم على وجهي حيا وتعجبا

ألا أف للحب الذي يورث العمى ... ويورد نارًا لا تمل التوثبا

فأقبل عودي فوق بدء مفكرا ... وقد زال عن قلبي العمى فتسربا

قال : فلم أر امرأة كانت أصون منها لدينها ولا أعقل [١] .

بقي الباب الذي بيننا وبين اللّه لم يغلق :-

قال : أبو محمد الشيباني : كان بالبصرة رجل له أكّار [٢] وكانت له

---

(١) « ذم الهوى » (ص٢٧٢ ـ ٢٧٣) .
(٢) الأكّار : الحرّاث .

امرأة جميلة حسناء كثيرة الشحم فوقعت في نفسه فركب زبيبته إلىٰ قصره، وقال للأكّار : القط لنا من الرطب وصيّره في الدواخل ثم قال له : إيت به فلانًا وفلانًا فذهب به فلما مضىٰ قال لامرأته : أغلقي باب القصر فأغلقته ثم قال لها : أغلقي كل باب ففعلت فقال لها : هل بقي باب لم تغلقيه ؟ قالت : نعم باب واحد لم أغلقه ، قال : وأي باب هو ؟ قالت : الباب الذي بيننا وبين اللَّه عزوجلّ .

فبكا ثم قام يتصبّب عرقًا وانصرف و لم يواقع الخطيئة [1] .

استحِ من هذه الهمة :ـ

عن محبوب بن صالح أن رجلا من العرب رأىٰ امرأة فوقعت في قلبه فكلم بذلك دهرا ثم إن الأمر تفاقم وتمكنت منه الصبابة واستخفه الغرام فبعث إليها يسألها نفسها ويخبرها بما هو عليه من حبها فكتبت إليه : اتق اللَّه أيها الرجل وارْعَ علىٰ نفسك ، واستح من هذه الهمة التي قد تعلقت بها فإن ذلك أولىٰ بذوي العقول .

أنامَ رب العالمين ؟

قال ابن الجوزي ـ رحمه اللَّه ـ : بلغنا أن بعض المتعبدات البصرْيات وقعت في نفس رجل مهلبي وكانت جميلة وكانت تُخطَب فتأبىٰ ، فبلغ المهلبي أنها تريد الحج فاشترىٰ ثلاثمائة بعير ونادىٰ : منْ أراد الحج فليكترِ من فلان المهلبي فاكترتْ منه فلما كان في بعض الطريق جاءها ليلاً فقال : إما أن تزوجيني نفسك وإما غير ذلك فقالت : ويحك اتق اللَّه ، فقال : ما هو إلا ما تسمعين واللَّه ما أنا بحمّال ولا خرجت في هذا إلا من أجلك فلما خافت علىٰ نفسها قالت : ويحك انظر أبقي في الرجال أحد لم ينم ؟

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٧٣ ـ ٢٧٤) .

قال : لا ، قالت : عُدْ فانظر فمضى وجاء ، فقال : ما بقي أحد إلا وقد نام .

فقالت : ويحك أنامَ رب العالمين ؟ ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة .

وخرّ المهلبي مغشيًا عليه ثم قال : ويحي قتلتُ نفسا ولم أبلغ شهوتي فخرج هاربا (1) .

« وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها وأكملها إجلال الجبار ، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار ، فإن من صرف استمتاعه في هذا الدار إلى ما حرم اللَّه عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك . . . فليتخيَّر العبد لنفسه إحدى اللذتين وليطب نفسًا عن إحداهما بالأخرى ، فلن يجعل اللَّه من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقى اللَّه ، ودون ذلك مرتبة أن يتركها خوف النار فقط ، فإن تركها رغبة ومحبة أفضل من تركها لمجرد خوف العقوبة(2) .

ترك المحبين أدنى المحبوبيْن رغبة في أعلاهما :

قال العلاَّمة ابن القيم : « هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدون ، ولا تقنع بالأدنى بيع العاجز المغبون ، ولا يملكها لطخ جمال مُغَشّ على أنواع من القبائح .

فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون ، وقد عاب اللَّه سبحانه أقوامًا استبدلوا طعامًا بطعام أدنى فنعى ذلك عليهم وقال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾(3) ، وذلك دليل على وضاعة النفس وقلة قيمتها

---

(1) « ذم الهوى » (٢٧٦-٢٧٧) .

(2) « روضة المحبين » (ص٣٤٨-٣٤٩) .

(3) سورة البقرة الآية (٦١) .

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما :

إذا المرءُ لم يترك طعاماً أحبّه ولم ينْه قلباً غاوياً ثم يمماً

قضى وطراً منه وغادر سُبّةً إذا ذُكرت أمثالها تملأ الفما[1]

عفة امرأة :

قال سعيد بن جبير : كان عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - إذا أمسىٰ أخذ درته ، ثم طاف بالمدينة فإذا رأىٰ شيئًا ينكره أنكره ، فبينما هو ذات ليلة يَعُسّ إذْ مر بامرأة علىٰ سطح وهي تقول :

تطاول هذا الليل وأخْضَلَ [2] جانبه وأرّقني أن لا خليـــل ألاعِبُهْ

فـــواللَّه لولا اللَّه لا ربّ غيـــره لحُرِّك من هذا الســـرير جوانبـــهْ

مخافة ربي والحيـــاء يصـــونني وأُكـــرم بعْلي أن تُنـــال مراكبـــهْ

ثم تنفست الصعداء وقالت : لهان علىٰ عمر بن الخطاب ما لقيتُ الليلة فضرب باب الدار فقالت : من هذا الذي يأتي إلىٰ امرأةٍ مُغِيبة[3] هذه الساعة؟ فقال : افتحي ، فأبت فلما أكثر عليها قالت : أما واللَّه لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك فلما رأىٰ عفافها قال : افتحي فأنا أمير المؤمنين ، قالت : كذبت ما أنت أمير المؤمنين فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو ، ففتحت له فقال : هيه كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قالت : فقال : أين زوجك ؟ قالت : في بعث كذا وكذا ، فبعث إلىٰ عامل ذلك الجند أن سرِّحْ فلانَ بن فلان ، فلما قدم عليه قال : اذهب إلىٰ أهلك ، ثم دخل علىٰ حفصة ابنته فقال : أي بنية كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : شهر أو

---

(١) « روضة المحبين » (ص٣٩٩ـ٤٠٠) .

(٢) أظلم .

(٣) امرأة مغيبة : غاب عنها زوجها .

اثنين أو ثلاثة وفي الرابع ينفد الصبر ، فجعل ذلك أجلا للبعث[١] .

إياك والعشق :

قال النبي ﷺ : « **لا ينبغي للمسلم أن يُذّل نفسه** ..... » قال الإمام أحمد : تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق .

قال ابن القيم في « روضة المحبين » (١٩٥) : « وهذا مطابق لحال العاشق ، فإنه أذل الناس لمعشوقه » .

ومن اقتحم بحر العشق ولعبت به أمواجه فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة .

الحب أوله شيء يهيم به قلب المحب فيلقى الموت كاللعبِ
يكون مبدؤه من نظرة عَرَضتْ ومَزْحَةٍ أشعلت في القلبِ كاللهبِ
كالنار مبدؤها من قدحة[٢] فإذا تضرّمت[٣] أحرقتْ مستجمع الحطب

الإسلام وتوفير العفة والحفاظ عليها :

« اتفق الأصوليون على أن الأديان كلها عملت على توفير العفة والحفاظ عليها ضمن الضروريات الستة التي لابد لكل مجتمع منها والتي هي : الأديان ، والأنفس ، والعقول ، والأعراض ، والأنساب ، والأموال، فقد حُرِّم الزنا في جميع الأمم وقد تقدمت الإشارة إلى قصة يوسف ومريم والنفر الثلاثة من بني إسرائيل وفي خصوص الإسلام وهو خاتمة الأديان فقد كانت عنايته بذلك تفوق كل الحدود حيث أحاط العِرْض بسياج منيع من جميع جوانبه وحرّم كل نافذة تطل عليه ابتداءً من نظرة

---

(١) « روضة المحبين » (ص٢٢٢) .
(٢) القِدْح : بالكسر اسم لاقتداح النار .
(٣) تضرّمت النار : اشتعلت والتهبت .

بالعين وخطرة بالقلب وهمسة بالأذن ورنّة بالحليّ ، وألزم الحجاب صونًا له وحفاظًا عليه .

وتكاد سورة النور وجزء كبير من سورة الأحزاب يختص بذلك .

سورة النور :

وبتأمل سورة النور نجد عند افتتاحها وفي آخر السورة التي قبلها وهي سورة المؤمنون يأتي في ختامها الحديث عن قضية التوحيد والشرك .

ونستطيع أن نقول : إن الاقتران الموضعي بين قضية التوحيد وقضية الزنا يُشعر بالربط بين القضيتين في عظم خطرهما وعظيم الجرم فيها .

أ ـ فالأولىٰ : في حق اللَّه تعالىٰ وهو أعظم حق للَّه علىٰ عباده .

ب ـ والثاني : في حق المجتمع كله بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ لأن الاعتداء علىٰ أي فرد من أفراد المجتمع يعتبر اعتداءً علىٰ حق المجتمع كله ولو كانت لهذا الاعتداء ثمرة خاطئة فسيتحملها المجتمع كذلك ، سواء كانت رزيلة تظهر ، أو حملاً يولد ، وبالنظر إلىٰ هذا الاستهلال في بداية هذه السورة الكريمة بتقديم ذكر المرأة مما يُشعر بقوة تأثير المرأة في هذه القضية ، لبداءة الإغراء من جانبها هي[١] .

المنهج المتكامل في توفير العفة :

١ ـ تقبيح الزناة لقبح فعلهم : ﴿ **الزَّاني لا ينكحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٢] .

أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلىٰ إقامة بيت ، وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة ، لا تنتهي بانتهاء

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٤٥ ـ ١٤٧) .
(٢) سورة النور الآية (٣) .

اللحظة الجسدية الغليظة وأن تقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين التقاء نفسين وقلبين وروحين، وبتعبير شامل التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، ويلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

من هنا شدَّد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني وتطيح بكل هذه الأهداف ، وتردُّ الكائن الإنساني مسخًا حيوانيًا ، لا يفرِّق بين أنثي وأنثي ، ولا بين ذكر وذكر ، مسخًا كلُّ همِّه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة .

المعاقبة على قذف المحصنات :

ويمضي الإسلام في الطريق خطوة أخرى في استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة فيشدد عقوبة قاذف المحصنات ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1] .

إن ترك الألسنة تُلقي التُّهم على المحصنات بدون دليل قاطع يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا بتلك التهمة النكراء ، ثم يمضي آمنا ! فتصبح الجماعة وتمشي ، وإذا أعراضها مُجرَّحة ، وسمعتها مُلوَّثة ، وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه ، وكل رجل شاك في أصله ، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تُطاق .

ذلك أن اطِّراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب

---

(١) سورة النور الآية (٤) .

الفعلة أن جو الجماعة كله ملوّث ، وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسِّه بشاعتها بكثرة ترددها وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها .

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ، والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحي بارتكاب الفحشاء .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة ، وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء .

ثم يأتي أدب دخول البيوت بعد الاستيناس والاستئذان :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] .

إن الإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء مجتمعه النظيف ، إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية .

والفكرةُ السائدة في منهج التربية الإسلامية في هذه الناحية هي تضييق فرص الغواية ، وإبعاد عوامل الفتنة ، وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة .

والبيوت لا تكون سكنًا إلا حين تكون حرمًا آمنًا ولا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم ، وفي الوقت الذي يريدون ، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا الناس عليها .

---

(١) سورة النور الآية (٢٧) .

ذلك أن استباحة حُرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات ، وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة تنشأ عنها علاقات ولقاءات يدبرها الشيطان ، ويوجهها في غفلة عن العيون الراعية والقلوب الناصحة هنا أو هناك .

عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من اطّلع في بيت قوم بغير إذن ، ففقئوا عينه فلا دية له ولا قصاص** »[1] .

وعن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حلّ لهم أن يفقئوا عينه** »[2] .

وعنه - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من اطّلع في دار قوم بغير إذنهم ، ففقئوا عينه فقد هُدرت** »[3] .

غض البصر قضية عامة في حق المؤمنين والمؤمنات :

قال تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ**

---

(١) رواه أحمد ، والنسائي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٢٢) .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم .

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود في « سننه » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٢٤) .

عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١] .

كم من نظرة تحلو في العاجلة مرارتها لا تطاق في الآجلة[٢] .

والمرء ما دام ذا عين يقلِّبها في أعين الغيد موقوف على الخطرِ

يسُرّ مقلته ما ضرّ مهجته لامرحبا بسرور جاء بالضررِ

غض البصر من الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام ، كما أن فيه إغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية والاستثارة فهو أطهر للمشاعر وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط .

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ..** ﴾

« فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال .

لقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة والحديث الطليق والاختلاط الميسور والدعابة المرحة بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة . . . شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الكبت .

شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرقه من الحيوان ، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين وبخاصة نظرية فرويد ـ رأيت بعيني في أشد

---

(١) سورة النور الآيتان (٣٠ـ٣١) .

(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (١/ ١٦٠ ـ ١٦٣) .

البلاد إباحية ما يكذبها وينقضها من الأساس .

نعم ، شاهدت البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي ، والاختلاط الجنسي بكل صوره وأشكاله ، أن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها ، إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع ! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهومًا أنها لا تنشأ إلا من الحرمان ، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب ، وشاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه . . . ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ولا يقف عند حد ، وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء وللأجسام العارية في الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة واللفتات الموقظة هبوط بالذوق العام ، وغلبة الطابع الحيواني عليه ، والجنوح به إلى التكشف والتعري ، والتنزي كما تتنزي البهيمة في مجتمع يتكشف ويتبرج وتهتف الأنثى فيه للذكور حيثما كانت هتاف الحيوان للحيوان »[١] .

ولا يضربن بأرجلهن :

إنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها فإن الخيال ليكون أحيانًا أقوى في إثارة الشهوات من العيان ، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أوحليّها ، أكثر مما يثيرها رؤية جسد المرأة ذاته ، كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم ، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم . . . وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم وسماع وسوسة الحلى أو شمام شذى العطر من بعيد ، قد يثير حواس رجال كثيرين ويهيج أعصابهم ويفتنهم

---

(١) « الظلال » (٤/ ٢٥١١-٢٥١٢) .

فتنـــة جارفة لا يملكون لها ردًا .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **أيما امرأة استعطرت ثم خرجت ، فمرّت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية** »[1] .

والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله ، لأن مُنَزِّلَه هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض :

إن اللَّه الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن صوت المرأة حين تخضع بالقول ، وتترقق في اللفظ ، ما يثير الطمع في قلوب ، ويهيج الفتنة في قلوب ، وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد ، وفي كل بيئة وتجاه كل امرأة ، ولو كانت هي زوج النبي الكريم ﷺ ، وأم المؤمنين، وإنه لا طهارة من الدنس ، ولا تخَلُّص من الرجس حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس .

فكيف بهذا المجتمع الذي نعيش فيه ، في عصرنا المريض الدنس الهابط ، الذي تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات ، وترف فيه الأطماع ؟ كيف بنا في هذا المجتمع ، في هذا العصر ، في هذا الجو ، ونساء يتخنَّثن في نبراتهن ، ويتميَّعن في أصواتهن ويجمعن كل فتنة الأنثى ، وكل هتاف الجنس ، وكل سعار الشهوة ، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات ؟! وأين هن من الطهارة ؟ وكيف يمكن أن يرف الطهر في هذا الجو الملوث ، وهن بذواتهن وحركاتهن وأصواتهن ذلك الرجس الذي يريد اللَّه أن يذهبه عن عباده المختارين .

---

(١) حسن : رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم عن أبي موسى ، وكذا رواه الطحاوي وابن خزيمة وابن حبان ، والبيهقي في « سننه » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٧٠١) .

وقلن قول معروفًا :

نهاهن من قبل عن النبرة الليِّنة واللهجة الخاضعة ، وأمرهن في هذه أن يكون حديثهن في أمور معروفة غير منكَرة ، فإن موضوع الحديث قد يُطمع مثل لهجة الحديث ، فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء ولا هذر ولا هزل ، ولا دعابة ولا مزاح ، كي لا يكون مدخلاً إلىٰ شيء آخر وراءه من قريب أو من بعيد .

وقرن في بيوتكن :

البيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها علىٰ حقيقتها كما أرادها اللَّه غير مشوَّهة ولا منحرفة ولا ملوثة ، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيَّأها اللَّه لها بالفطرة ، ولا يمكن للأم المكدودة بالعمل خارج البيت أن تَهَبَ للبيت جوه وعطره ، وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد علىٰ جو الفنادق والخانات .

إن خروج المرأة لتعمل كارثة علىٰ البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون علىٰ اجتنابها ، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، في عصور الانتكاس والشرور والضلال .

فأما خروج المرأة لغير العمل ، خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهي ، والتسكع في النوادي والمجتمعات لذلك هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلىٰ مراتع الحيوان .

ولقد كان النساء علىٰ عهد رسول اللَّه ﷺ يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعًا من هذا ولكن كان زمان فيه عفة وفيه تقوىٰ ، وكانت المرأة تخرج إلىٰ الصلاة متلفعة لا يعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتنها شيء ومع هذا فقد كرهت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ لهن أن يخرجن بعد وفاة

رسول اللَّه ﷺ .

في « الصحيحين » عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ أنها قالت : « كان نساء المؤمنين يشهدون الفجر مع رسول اللَّه ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس » .

وفي « الصحيحين » أنها قالت : « لو أدرك رسول اللَّه ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل !

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ ؟ وماذا يمكن أن يُحدثن حتىٰ ترىٰ أن رسول اللَّه ﷺ كان مانعهن من الصلاة ؟ ماذا بالقياس إلىٰ ما نراه في هذه الأيام ؟!

ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى :

لقد كانت المرأة في الجاهلية تتبرج ولكن جميع الصور التي تُروىٰ عن تبرج الجاهلية الأولىٰ تبدو سازجة أو محتشمة حين تقاس إلىٰ تبرج إيامنا هذه في جاهليتنا الحاضرة .

قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية الأولىٰ .

وقال قتادة : وكانت لهن مشية تكسر وتغنج فنهىٰ اللَّه عن ذلك .

وقال ابن كثير : كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها .

الذوق الإنساني الذي يُعجَب بمفاتن الجسد العاري ذوق بدائي غليظ وهو من غير شك أحطّ من الذوق الذي يعجب بجمال الحشمة الهادئ ، وما يشبه من جمال الروح وجمال العفة وجمال المشاعر الحشمة جميلة جمالاً حقيقيًا رفيعًا ، ولكن هذا الجمال الراقي لا يدركه أصحاب الذوق

الجاهلي الغليظ ، الذي لا يرىٰ إلا جمال اللحم العاري ولا يسمع إلا هتاف اللحم الجاهر ! .

جاهلية عمياء ، غليظة الحس ، حيوانية التصور ، هابطة في درك البشرية إلىٰ حضيض مهين .

طول السهاد وقرب الوساد :

قالوا لإحدىٰ الشريفات وقد فعلت الفاحشة : ما حملك علىٰ هذا ؟ قالت : طول السهاد وقرب الوساد . . . وبغل الشهوة والجوار والاختلاط يقود المرأة إلىٰ أي شيء . . . وفي امرأة العزيز عظة وعبرة .

حرَّم الإسلام الخلوة بالأجنبية إلا مع ذي محرم ، وحرم الإسلام علىٰ المرأة السفر مسيرة يوم وليلة إلا مع محرم، وحذّر من دخول الحَمُ علىٰ زوجة الأخ .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يَحِلُّ لامرأة أن تسافر إلا ومعها ذو محرم منها** » ، رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم** »[1] .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم** »[2] .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إيّاكم والدخول على النساء** » . رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي .

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي .
(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه .

ومع هذا المنهج المتكامل للعفة يرفع الجميع أبصارهم إلىٰ الأفق الوضيء الذي يستمدون منه النور ، والعون علىٰ التدرج في مراقي ذلك الأفق الوضيء .

وفي الزواج حصن الفرج :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[١] .

وروىٰ مسلم في « صحيحه » عن أبي الزبير عن جابر - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه ﷺ رأىٰ امرأة فأتىٰ زينب فقضىٰ حاجته منها وقال : « **إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتُدْبر في صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن ذلك يَرُدُّ ما في نفسه** »[٢] .

وهذا هو الدواء الشافي وعلىٰ وليِّ أمر الفتاة أن ييسره ، وعلىٰ ولاة الأمور أن يساعدوا المحتاجين للزواج ، ولذا يأمر اللَّه الجماعة المسلمة أن تُعين من يقف المال في طريقهم إلىٰ النكاح ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾ .

والصوم وجاء :

وعند العجز عن الزواج نقلهم إلىٰ الصوم كبدل ، فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجارىٰ الشهوة .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود عن جابر .

لا وألـف لا للبغاء :ـ

إن وجود البغاء أمر يغري الكثيرين لسهولته ، ولو لم يجدوه لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الحلال الكريم النظيف .

ولا عبرة بما يقال أن البغاء صمام أمن يحمي البيوت الشريفة لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة إن لم تجد هذا الكلأ .

ونسى الناس وصية الرسول ﷺ بالصوم عند تعذر الزواج وبذلك لا تحتاج إلى البغاء ، وإلى إقامة مقاذر إنسانية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقى فيها بالفضلات ـ وكأنها كنيف ـ تحت سمع المجتمع وبصره .

ارتباط هذا القسم بما قبله :ـ

«تقدم ربط كل قسم بالذي قبله وبيان تأثر النتيجة بالسبب وكان ظاهراً في كل ما تقدم» .

وكذلك الحال هنا ، لأن ماقبل ذلك من أصناف تؤدي كلها إلى تحقيق هذا الصنف : ـ

- فعدالة الإمام لن تترك عوامل الإغراء تغزو الشباب ، ولن يسمح بعادات إعاقة الزواج تتحكم في المجتمع .
- ثم نشأة الشباب في عبادة اللّه تورث تقوى اللّه ومخافته .
- ثم التعلق بالمساجد لأداد الصلاة ، فكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[1] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

• ثم المتحابان في اللَّه سيتناصحان على الخير ويتعاونان على البرّ فيكون منهجهما في الحياة منهج عفة وطهارة[١] .

كيف يتخلص المرء من أسر الهوى وذل العشق :

أما الدواء فعند طبيب القلوب ابن قيم الجوزية ، يقول ـ رحمه اللَّه ـ :

« يمكنه التخلص بعون اللَّه وتوفيقه له بأمور :

أحدهما : عزيمة حر يغار لنفسه وعليها .

الثاني : جرعة صبر يصبّر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

الثالث : قوة نفس تشجِّعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلها صبر ساعة .

الرابع : ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .

الخامس : إبقاؤه على منزلته عند اللَّه وفي قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى .

السادس : إيثار لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية .

السابع : فرحه بغلبة عدوِّه وقهره له وردّه خاسئًا بغيظه وهمَّه حيث لم ينل منه أمنية ، واللَّه تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه كما قال تعالى : ﴿ **ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ وقال : ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيراً وسعة** ﴾ أي مكانًا يراغم فيه أعداء اللَّه ، وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم .

الثامن : التفكر في أنه لم يُلق للهوى وإنما هُيئ لأمر عظيم لا يناله إلا

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٤٩) .

بمعصية للهوىٰ كما قيل :

قـــد هيئوك لأمـر لو فَطِنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمل

التاسع : أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه ، فإن الحيوان يميِّز بطبعه بين مواقع ما يضرّه وما ينفعه ، فيؤثر النافع علىٰ الضار ، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنىٰ ، فإذا لم يميز بين ما يضرّه وما ينفعه وآثر ما يضرُّه كان حال الحيوان البهيم أحسن منه .

ولو كان نيلُ المُشتهىٰ فضيلة لما بُخِس منه حق الآدمي الذي هو خلاصة العالم ، ووُفرّ منه حظ البهائم ، وفي توفير حظ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عِوَضٌ عن ذلك .

العاشر : أن يسير بقلبه في عواقب الهوىٰ فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة ، وكم أقعت في رذيلة ، وكم أكلة منعت أكلات ، وكم من لذة فوّتت لذّات ، وكم من شهوة كسرت جاهًا، ونكَّست رأسًا ، وقبَّحت ذكرًا، وأورثت ذمًا ، وأعقبت ذلاً ، وألزمت عارًا لا يغسله الماء ، غير أن عين صاحب الهوىٰ عمياء .

الحادي عشر : أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصوّر حاله بعد قضاء الوطر(١) وما فاته وما حصل له

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميِّـــز مـــا تجني عواقبـــه

الثاني عشر : أن يتصوّر ذلك في حق غيره حق التصوّر ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، فحكم الشيء حكم نظيره .

الثالث عشر : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه

---

(١) الوطر : الحاجة وجمعها أوطار .

عقله ودينه يُخبِرانِه بأنه ليس بشيء ، قال عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ : إذا أعجب أحدكم امرأة فليذكر مناتنها وهذا أحسن من قول أحمد ابن الحسين :

لو فكرّ العاشـــق في منتـــهى حسنِ الذي يسبيـــه [1] لم يَسْـــبِه

لأن ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ ذكر الحال الحاضرة الملازمة ، والشاعر حال على أمر متأخر .

الرابع عشر : أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوىٰ فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً ، ولا يغترّ بصولة أتباع الهوىٰ وكِبرهم فهم أذلّ الناس بواطن ، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذلّ .

الخامس عشر : أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة ألبتَّة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

السادس عشر : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإن الشيطان إذا رأىٰ من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلىٰ هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوىٰ وساقه حيث أراد ، ومتىٰ أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا اختلاسًا وسرقة .

السابع عشر : أن الهوىٰ حظار [2] جهنم المحيط بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « **حُفّت الجنة**

---

(١) يسبيه : يأسره ، من السبي وهو الأسر .

(٢) الحظار : هو كل شيء حُصر بين شيئين مثل جدار البستان .

بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات » .

الثامن عشر : أنه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « **أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى** »[1] .

التاسع عشر : أن اتباع الهوى من المهلكات ، قال ﷺ : « **ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه** »[1] .

العشرون : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه ، قال رجل للحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ : يا أبا سعيد ، أيّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك .

وسمعت شيخنا يقول : جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم .

الحادي والعشرون : أن اتباع الهوى يُغلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان .

قال الفضيل : من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

الثاني والعشرون : أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من

---

(١) حسن : رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » ، والطبراني في « الأسط » عن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠٣٩) .

خانه في أمرٍ من الأمور فإنه يفسده عليه .

الثالث والعشرون : أن من فسَّح لنفسه في اتباع الهوىٰ ضيّق عليها في قبره ومعاده ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوىٰ وسّع عليها في قبره ومعاده وقد أشار اللَّه تعالىٰ إلىٰ هذا في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[1] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوىٰ خشونة وتضييق ، جازاهم علىٰ ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة .

الرابع والعشرون : أن اتباع الهوىٰ يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم .

قال محمد بن أبي الورد : إن للَّه عز وجل يومًا لا ينجو من شره منقاد لهواه ، وإن أبطأ الصرعىٰ نهضة يوم القيامة صريع شهوته ، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظًا من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر .

الخامس والعشرون : إن مخالفة الهوىٰ طردة للداء عن القلب والبدن ، ومتابعته لبه لداء القلب والبدن ، فأمراض القلوب كلها من متابعة الهوىٰ ، ولو فتشت علىٰ أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوىٰ علىٰ ما ينبغي تركه .

السادس والعشرون : أن الهوىٰ رِقٌّ في القلب وغلٌّ في العنق ، وقيد في الرِّجل ، ومتابعه أسير لكل سيئ الملكة ، فمن خالفه عُتق من رقّه وصار حرًا ، وخلع الغُل من عنقه والقيد من رجله .

رب مستور سبته شهوة فتعرى ستره فانهتكا
صاحب الشهوة عبدٌ فإذا غلب الشهوة أضحى ملكا

---

(١) سورة الإنسان الآية (١٢) .

السابع والعشرون : أن لكل عبد بداية ونهاية ، فمن كانت بدايته اتباع الهوىٰ كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يُعَذَّبُ به في قلبه كما قال القائل :

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذابا فصارت في المشيب عَذابا

قال أبو عليٰ الدقّاق : من ملك شهوته في حال شبيبته أعزّه اللَّه في حال كهولته .

الثامن والعشرون : أن مخالفة الهوىٰ تقيم العبد في مقام من لو أقسم عليٰ اللَّه لأبره ، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه ، فهو كمن رغب عن بَعْرةٍ فأُعطي عِوَضها درة ، ومتبع الهوىٰ يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة .

والعيش الهنئ ما لا نسبة لما ظفر به من هواه ألبتَّة ، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لمّا قبض نفسه عن الحرام .

التاسع والعشرون : أن مخالفة الهوىٰ توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن ، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر وفي الباطن .

وإذا جمع اللَّه الناس في صعيد واحد نادىٰ منادٍ : ليعلمن أهل الجمع مَن أهل الكرم اليوم ، ألا ليقم المتقون ، فيقومون إلىٰ محل الكرامة وأتباع الهوىٰ ناكسو رءوسهم في الموقف في حرّ الهوىٰ وعَرقه وألمه ، وأولئك في ظل العرش[1] .

---

(١) « روضة المحبين » (٢٨٢) باختصار .

من يظلهم اللَّه في ظله ومخالفة هواهم :

قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ : « إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم اللَّه عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوىٰ .

● فإن الإمام المسلّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه .

● والشاب المؤثر لعبادة اللَّه علىٰ داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر علىٰ ذلك .

● والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله علىٰ ذلك مخالفة الهوىٰ الداعي له إلىٰ أماكن اللذات .

● والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر علىٰ ذلك .

● والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف اللَّه عزَّ وجلَّ وخالف هواه .

● والذي ذكر اللَّه عز وجل خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلىٰ ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدَّته سبيل عليهم يوم القيامة ، وأصحاب الهوىٰ قد بلغ منهم الحرُّ والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهاوية[1] .

الربيع بن خثيم للَّه دره سيد من سادات أهل العفاف :

يروي أصحاب السير والتراجم أن قومًا أمروا امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خثيم لعلها تفتنه ، جعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم .

---

(١) « روضة المحبين » (ص٢٨٢) .

فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب ، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه ، ثم تعرّضت له حين خرج من مسجده ، فنظر إليها فراعه أمرها ، فأقبلت عليه وهي سافرة .

فقال لها الربيع : كيف بك لو قد نزلت الحمىٰ بجسمك فغيرّت ما أرىٰ من لونك وبهجتك ؟!

أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين[١] ؟! .

أم كيف بك لو سألك منكر ونكير ؟!

فصرحت صرخة فسقطت مغشيًّا عليها .

فواللَّه لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربها أن كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق من خشية اللَّه عز وجل[٢] .

• قال ابن أبي عمامة - رحمه اللَّه - : إن رجلاً أحب امرأة فأحبته ، فاجتمعا ، فراودته المرأة عن نفسه ، فقال : إن أجلي ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فنلقىٰ اللَّه عاصيين ، فقالت : صدقت، فتابا ، وحسنت حالتهما[٣] .

• أوصيك بحفظ نفسك من نفسك :

قال سعيد أبو أحمد العابد - رحمه اللَّه - :

كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم لمسجد جامع لا يفارقه ، وكان حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به ، وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له علىٰ الطريق ، وهو يريد المسجد ،

---

(١) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .

(٢) « التوابين » لابن قدامة (ص٢٧٣) ، و« صفة الصفوة » لابن الجوزي (٣/ ١٦١) .

(٣) « ذم الهوىٰ » لابن الجوزي (٢١٣) .

فقالت له : يا فتىٰ ، اسمع مني كلمات أكلمك بها ، ثم اعمل ما شئت ، فمضىٰ ولم يكلمها .

ثم وقفت له بعد ذلك علىٰ طريقه ، وهو يريد منزله ، فقالت له : يا فتىٰ ، اسمع مني كلمات أكلّمك بها ، فأطرق مليًا ، وقال : هذا موقف تهمة ، وأنا أكره للتهمة موضعًا .

فقالت له : واللَّه ما وقفت موقفي هذا جهالة بأمرك ، ولكن معاذ اللَّه أن يتشوف العباد إلىٰ مثل هذا مني ، والذي حملني علىٰ أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العبّاد علىٰ مثال القوارير أدنىٰ شيء يعيبها .

وجملة ما أقول لك إن جوارحي كلها مشغولة بك ، فاللَّه في أمري وأمرك .

قال : فمضىٰ الشاب إلىٰ منزله ، وأراد أن يصلي ، فلم يعقل كيف يصلي ، فأخذ قرطاسًا وكتب كتابًا ، ثم خرج من منزلة ، وإذا بالمرأة واقفة في موضعها ، فألقىٰ الكتاب إليها ، ورجع إلىٰ منزله ، وكان فيه :

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

اعلمي أيتها المرأة أن اللَّه عز وجل إذا عصاه العبد حَلَم ، فإذا عاد إلىٰ المعصية مرة أخرىٰ ستر ، فإذا لبس لها ملابسها غضب اللَّه تعالىٰ لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، فمن ذا يطيق غضبه ؟!

فإن كان ما ذكرت باطلاً ، فإني أذكرك يومًا تكون السماء فيه كالمهل ، وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم :

وإني واللَّه قد ضعفت عن إصلاح نفسي ، فكيف بإصلاح غيري .

وإن كان ما ذكرت حقًا ، فإني أدلك على طبيب هدى يدوام الكلوم[١] المريضة والأوجاع المرمضة[٢] ، ذلك اللَّه رب العالمين ، فاقصديه بصدق المسألة ، فإني مشغول عنك بقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾[٣] .

فأين المهرب من هذه الآية ؟!

ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق ، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها ، فقالت : يا فتى ، لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلا غدًا بين يدي اللَّه عز وجلّ ، ثم بكت بكاءً شديدًا ، وقالت : امنن عليّ بموعظة أحملها عنك ، وأوصني بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وأذكرك قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ** ﴾[٤] .

فبكت بكاءً شديدًا ، ثم لزمت بيتها ، وأخذت في العبادة ، فلم تزل كذلك حتى ماتت[٥] .

عفيف يفوح المسك منه :

« قيل لأبي بكر المسكي : إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه؟ فقال : واللَّه لي سنين عديدة لم أستعمل المسك ، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب ،

---

(١) الكلوم : الجراحات .
(٢) المرمضة : المحرقة .
(٣) سورة غافر الآيتان (١٨ - ١٩) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٦٠) .
(٥) « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي (٩/ ١٢٠ - ١٢١) .

وراودتني عن نفسي فتحيرت في أمري فضاقت بي الحيل ، فقلت لها : إن لي حاجة إلي الطهارة ، فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلىٰ بيت الراحة ففعلت ، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها علىٰ جميع جسدي ، ثم رجعت إليها وأنا علىٰ تلك الحالة ، فلما رأتني دهشت ، ثم أمرت بإخراجي ، فمضيت واغتسلت ، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام يقول لي : فعلت ما لم يفعله أحد غيرك ، لأطيبنّ ريحك في الدنيا والآخرة ، فأصبحت والمسك يفوح مني ، واستمر ذلك إلىٰ الآن »[١] .

فعليك أخي بالعفة ، فعدمها يعفي علىٰ جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومن اتسم بسمة العفّة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل ، وسهّلت له سبيل الوصول إلىٰ المحاسن .

❊ ❊ ❊

(١) « المواعظ والمجالس » لابن الجوزي (ص٢٢٤) ، طبع دار الصحابة .

فهرس الموضوعـــات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
• مع خادمه في السفر	١٣٨
• • • ذو النورين عثمان الرحيم العادل	١٤٠
• وقفات للذبّ عن ذي النورين ـ رضي اللَّه عنه ـ	١٤٠
• ما نقموا على عثمان !! وهو الجواد الرحيم والعدل العادل	١٤٠
• لين جانبه ورحمته بالرعية	١٤٠
• إقامة عثمان الحدود على القريب والبعيد	١٤١
• قالوا لم يقتل عبيد اللَّه بن عمر بالهرمزان ، مع ظهور القصاص ووجوبه	١٤٣
• قال المفترون عنه أنه ولّى أقاربه	١٤٣
• إعطاء العطاء من مال الصدقة	١٤٤
• الطعن بأنه أخرج أبا ذر إلى الربذة	١٤٥
• الطعن عليه بأنه ضرب عمّار بن ياسر وابن مسعود وكله كذب	١٤٧
• • • قضية ولا أبا الحسن لها	١٤٨
• علي بن أبي طالب ما زانته الخلافة بل زانها بعدله	١٤٨
• الإمام العادل	١٥٢
• بالعدل قامت السموات والأرض	١٥٩
• • • معاوية بن أبي سفيان ـ رضي اللَّه عنه ـ أعدل الملوك وأحلمهم	١٥٩
• • • وسليمان بن عبد الملك يعقد عقداً ليس للشيطان فيه نصيب	١٦٠
• • • عمر بن عبد العزيز أشج بني أمية إمام عدل	١٦١
• كتابه إلى أهل الموسم	١٦٣

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

* * *